إنجا أبيلي

المد العالي

ترجمة: جنة عادل وفاطمة الزهراء

مكتبة التميز والإبداع

t.me/Book_cr2

أدب لاتيني معاصر

رواية

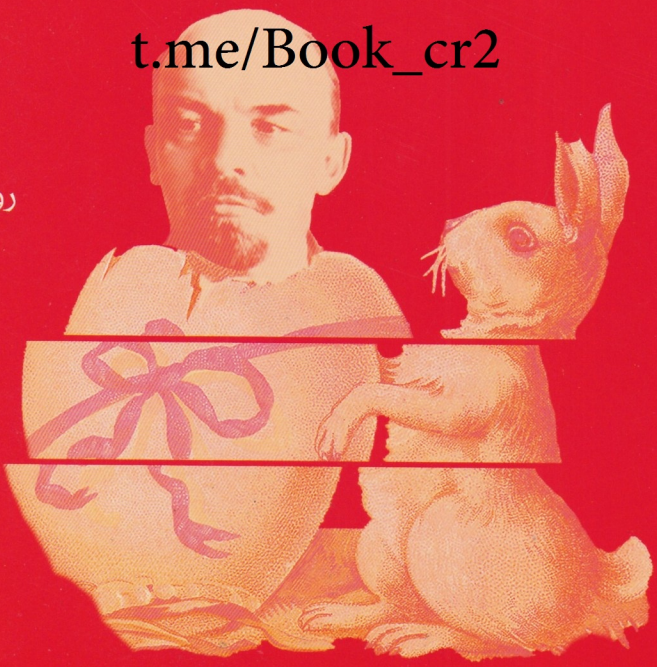

المحروسة

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

رواية

المد العالي

إنجـــــا أبيلي

ترجمة

جنة عادل وفاطمة الزهراء

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

عنوان الكتاب: المد العالي High Tide
المؤلفة: إنجـــــا أبيلي Inga Ābele
ترجمة: جنة عادل وفاطمة الزهراء
مراجعة لغوية: محمود شرف

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 002 02 28432157

mahrousaeg
almahrosacenter
almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٣١٥٦ / ٢٠٢١
الترقيم الدولى: 978-977-313-835-6

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية
محفوظة لمركز المحروسة
2021

منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grants Fund
«تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق»

Copyright © 2008 by Inga Ābele.
All rights reserved by the author and "Dienas Grāmata," Ltd.
Originally published in Latvia as Paisums
t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

رواية

المد العالي

إنجـــــا أبيلي

ترجمة

جنة عادل وفاطمة الزهراء

الطبعة الأولى 2021

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

أبيلي، إنجا
المد العالي: رواية/ إنجا أبيلي؛ ترجمة: جنة عادل وفاطمة الزهراء.-ط1
القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2021
327 ص؛ 14.5×21.5 سم
تدمك 978-977-313-835-6
1 - القصص اللاتيفية
أ-عادل، جنة (مترجم)
مسعد ، فاطمة الزهراء (مترجم مشارك)
ب- العنوان
883
رقم الإيداع 2021/3156
مكتبة التميز والإبداع t.me/Book_cr2

في البداية

لم يخلق الرَّبُّ الكلمات.

في البداية كان هناك حلم.

وفي النهاية، لم يكن هناك أيضًا سوى حُلمٍ.

ظهر الرَّبُّ لامرأةٍ في حلم يشبه الموت.

عثر الرَّبُّ على المرأة في الحلم، وقال لها:

"إذا وافقتِ على أن تعيشي حياتَكِ معكوسة؛ ستصبح لديكِ القُدرَةُ على إعادةِ حبيبِكِ الذي مات صغيرًا للحياة، فقط لا ترفعي من آمالِكِ. اجتماعُكما في مفترق الطرق هذا سيستمر لحوالي عشرين دقيقة، لا أكثرَ. بعدها، سيمضي هو نحو الشَّيخوخَة، أمَّا أنتِ، فستعودين لمرحلة الطفولة".

وافَقَت المرأةُ على الفور.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

قال الرَّبُّ:

"يا للغرابة! إلى هذا الحدِّ تستهينين بقيمة حياتك وتجربتك، حتى تجِدي في نفسك الاستعدادَ للتَّنازُل عنهما هكذا دون إعادة تفكير؟"

لم تَقُل المرأةُ شيئًا.

تذكَّرَت هذا الحُلمَ عندما استيقَظَت.

واتَّضح أنَّنا عِشنا...

هي لا تحتاج إلى المزيد من النصائح أو النماذج أو الأمثلة. ربما وصلت لمستوًى جديدٍ تمامًا، لكنها ليست بحاجة إليه الآن. لا تقرأ الكُتُبَ أو الصُّحفَ أو المجلَّات، ولا تستخدم الإنترنت أو تشاهد التلفاز، ولا تذهب -لا سمح الله- إلى المسرح. كأن تكون ملفوفًا لذَقنِكَ في بطانيَّة: ترى وتسمع كل شيء، لكن لا يمكِنُكَ تحريكُ ساكن. كل شيء هنا، حولك، في متناول اليد. تتجوَّل في المنزل بين الحين والآخر، تلتقط شيئًا ما، تمسك بشيء ما، أو تمسُّ شيئًا ما: جملة من إحدى الصحف، عبارة من مسلسل مكسيكي طويل، أو فكرة لبروست. ستكون كلها صحيحة دومًا.

في تمشياتها، تدور إيڤا حول الغابة في دوائر. ثم في عيد ميلادها تسأل نفسها سؤالًا: لماذا أسير في دوائر، ككَلبٍ مُقيَّد بالسلاسل إلى عامود؟ بسبب مخاوفي؟ فقط بسبب مخاوفي القاسية المريرة؟ أستطيع السير في خطٍّ مستقيم -تخبر نفسها- وأنَّى شئت. ولكنها حين تمشي أخيرًا في خطٍّ مُستقيم، تشعر -مجرَّد شعور- أنها ستصل إلى مكان ما. تتغيَّر المشاهد والتكوين واحد. جميع المدن الكبرى مُتشابِهةٌ في الأساس، وفي كل ريفٍ يرتدي المزارعون قمصانًا كاروهات، صُنِعت في الصين. وفي كل مكان جديد تنتهي إليه، تكوِّن في نهاية المطاف مجموعة جديدة من الأصدقاء المُقرَّبين، تشبه سابقتها إلى حدٍّ كبير. في كل مجموعة، هناك دائمًا مُعلِّم، وحبيب، وشخص ستخونه، وشخصٌ

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

سيخونها، وعدوٌّ، وأصدقاء يمكنها التَّحدُّث إليهم، ومعهم يمكنها أن تجد علاجًا روحانيًّا، بدلًا من إهدار المال على جلسات العلاج النفسي.

من حينٍ إلى آخر، تنفصل عن الحملات والسباقات والبعثات، وتعود إلى بيت الكلب وتجلس بجوار سلسلتها. تجلس في سكون تام، كبدويٍّ يُحدِّق في الأفق، ثم تكتب. عادةً ما تكون كتابة السيناريو مُعقَّدة، لكن نصوصها كلها تدور حول نفس الشيء. كلُّها كليشيهات مُبتَذَلَة. وحين تحاول الاعتذار للمخرج، يقول لها: أنا أحتاجك تحديدًا من أجل الكليشيه؛ لأن النهايات يجب أن تكون متوقَّعة.

تدور نصوصها حول كيف لا يحدث أيُّ شيء؛ لأنه من غير الممكن أن يحدث أيُّ شيء. لا يضيع جزيء واحِدٌ في الدورة الأبدية بين الأرض والسماء. لا يمكن إلَّا لروحٍ نَقيَّة أن تأمل في التَّحرُّر من دائرة الحياة والموت، والعبور إلى الكون الفسيح من نفق الضَّوء، بسرعة تجعل كل شيء، وصولًا إلى أصغر الجُسَيمات، يبدو ثقيلًا، وعديم الوزن في نفس الوقت. يتضاءَل كل شيء حتى يختفي، حتى يُمحى من ذاكرة العالم مع الزمن. لكن لتعيشَ حياتك حتى تصفو روحك -لا تَضحَكْ، الأمر ليس بتلك السهولة- عليك أن تصبح بوذا أو المسيحَ أو محمدًا. يجب أن تصبح نورًا بذاتِكَ، روحًا نقيَّة. بعدها ستجد طريقك، ولكنه طريق طويل، وسوف يَتمُّ غسلك ونَقْعُكَ وعَصْرُكَ لتصير نظيفًا في تلك الأثناء. هذه الأخطاء القليلة التي سوف تُطارِدُكَ، وتَهزُّكَ لتوقظك في الليل، وتُجبِرُكَ على الاستمرار، هذه الأخطاء التي تحملها معك طوال حياتك، سوف تدمِّرك في النهاية. لكن استَمِرَّ في التفكير فيها، استمِرَّ في التفكير. من الممتع أن تستمر في مشاكستها. سوف يشفيك ذلك.

في النهاية، لم تَعُد حتى تكتب النصوص بنفسها، بل صارت تضع لمستها على نصوص كتبها آخرون ثم ترسلها. تأخذ المُنتَجَ النهائي وتُزيِّنُه بموضوعية. لقد قامت بأعمال مشابهة من قبل، تضيف

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

التفاصيل إلى مُلصَقات النشرات في أيام مَدرَستها، رائدةٌ في الجيل الأخير لإمبراطورية سوفييتيَّة شَرِسَة. كان مُدرِّس فصلها يطلق على الأمر "إعطاء الحياة" لشيء ما. "خُذْهُ إلى إيڤا"، كثيرًا ما قال المعلِّم، "ستعطيه بعضَ الحياة". وستأخذ إيڤا قَلَمها الأسود وتعطي بعض الحياة لرسوماتٍ مُمِلَّة بالقلم الرصاص، سواء كانت للينين، أو لأرنب عيد الفُصح. ظَلَّ راقص في الأفق، بريق في عين لينين، عضلات فَكِّه القوية، الشيءُ الذي رأته في وجه والدها عندما حَلَق ذقنه في الصباح، ويعود لينين للحياة، وأرنب عيد الفصح أيضًا.

يدلُّ كلُّ شيء عليها: هبة الوجود الإجبارية تلك، حتى وجه سائق الحافلات المُتعَب في بلدَةٍ صغيرة في الصباح الباكر؛ يحكي عن الشوق، وصبرك اللا نهائي حين تدقِّق مُتشكِّكًا في حظٍّ جيِّد سقط عليك بشكلٍ غير مُتَوَقَّع. وما الذي تُقدِّمه الحياة في المقابل؟ همهمة هادئة داخل الحافلة حيث يمكنك أن تشعر ببعض الدفء، تغيير عن المشهد الشتوي المتجمِّد القاتم، ماذا تُقدِّم في المقابل؟ قُبلَة الوداع من زوجتِكَ قبل الخروج، والمرارة الطفيفة في طعم القهوة مع الكِريمة؟ ضباب الصباح الباكر والموظ الميِّت على جانب الطريق؟ مثل الهنديِّ الذي يقايض الذهب ببعض الخرَزِ الزجاجيِّ، نقايض معاناة الوجود برائحة خبز العيش، وملمس أنف الكلب الرَّطب على يدكَ، والنظرة في عيون أطفالك، وآنية طعام الطيور. علَّها جميعًا تجلبُ لك الفَرحَ- تقول تلك الفرصة الضَّخمة غير المرغوب فيها: الحياة. الحقيقة في كل مكان، صفوف وصفوف من الحشائش التي لا تحتاج سوى القليل من المطر لتنمو: حفنة من البرامج التلفزيونية، وحفنة من المقالات الفلسفية، وحفنة من المُتعالِين المتحفِّظين، وحفنة من البائعين المُقايِضين.

اعتادت جَدَّتُها لأمِّها، نانا، أن تقول: "لن تعرف أبدًا أين ستفقد شيئًا أو أين ستجده، وإذا علمتَ أين ستسقط، لوَضَعتَ وسادة أوَّلًا". من نواحٍ كثيرة، لم تتجاوز نانا طفولتها. لم تختبر الشغف أبدًا، لم تختبر

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

خيبة الأمل أبدًا، لكنها ظلَّت بريئة. كان ذلك مصيرها. كانت تحياتها اليومية المُبهِجة دليلًا على أنها لم تكتشف نفسها أبدًا، لم تكتشف غضبها، أو شكوكَها الدفينة. فِعل ذلك يعني أن يُطلق سراحك من جنة عدن. بقيت هي في عدن، تلعب بين صفوف الفراولة البرية التي أنضجتها الشمس. وفي هذا الصخب، أصدرت الحياة أحكامها: بموت أبويها، وزوجها، وأولادها، وأحبَّتها. لكنها لم تَقُل كلمة "الحب" أبدًا؛ لأنها لم تعرفها. لم تتطوَّر حدَّ استخدام الكلمات. كانت نانا فَخْرَ أبويها وفرحتهما، مساعِدةً في مزرعة الألبان في مئزرها الأبيض وشَعْرِها الأشقر الحريري، شخصًا لم يكبر أبدًا ليعرف الكراهية. للدقَّة: كانت غافِلَةً عن كل خناجر الكراهية التي وُجِّهَت لها. فنفذت، بدلًا من ذلك، من خلالها كأن لم تَكُن شيئًا؛ لأنها لم تؤمن بالأشخاص السَّيِّئين، آمنت فقط بالأشخاص. خَطاياها الوحيدة كانت كبرياءها واعتمادها على نفسها. دومًا ما كان لديها بطاقاتٌ للسُّكَّر والخبز، ولكنها أيضًا، دومًا ما كانت تحصل على ما هو أكثر مقابل أشياء إضافية: كلمة طيِّبة قالتها، يدعون مودَّتها، وحسٌّ يدفعها لتقديم الآخرين على نفسها... آمَنَت أن هذا هو اختيارها ومسؤوليَّتها.

لم تكن بحاجَةٍ إلى أي شيء من الرَّبِّ الإله، فقط بعض أغاني عيد الميلاد اللوثَريَّة، والسلام الروحي. لم تكن قد فتَحَت في قلبها ذلك الباب الصغير الذي يقود إلى الحقد. بَقِيَت في برعمها، قَضَت كامل حياتها فيه، كطفلة. يهاجم الرَّبُّ والإنسانيَّةُ هذا النوع من الناس أكثرَ من أيِّ شخص آخر؛ لأن هناك شيئًا بغيضًا بشأنهم. لكن لا الرَّبُّ ولا الإنسانية يستطيعون استخدامَ وصفاتِهم اللا نهائية للكوارث على هؤلاء الناس؛ لأنهم يفتقرون إلى أيِّ أثرٍ للكراهية، بإمكان الربِّ أن يأخذَ إجازةً، فلا يوجد مَن يمكنه أن يسوق له الرذائل. بعد أن أنجَزَت واجبها تجاه كل من أحبَّتهم، عادت نانا بسرعةٍ لطفلتها الداخلية، عادت لبرعمها: فتاةً صغيرةً مُهذَّبة، تسير دائمًا على الجانب المُشمِس

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

مـن الشـارع. هكـذا أنهـت رحلتهـا. كانـت عالِقَـةً في براءتهـا العاجـزة، ثـم تراكمـت عليهـا كلُّ تُهَـم العـالم. ابْـقَ بـلا حـولٍ ولا قـوَّةٍ كرضيـع أو حيـوان أو سـجين أو أحمـق أو مدمـن عـلى الكحـول أو متـشرِّد بسـاق واحـدة في نفـق- وسرعـان مـا سيناوشـك العالَـمُ حتـى تنـزِفَ، وسـتفهم لمـاذا كنـت دومًـا بحاجـة إلى الـرَّبِّ. تقـدِّر الجنَّـة طالمَـا كانـت لديـك القـوة، فـإذا مـا أصابـك الوهـن، تـرى الشـيطان. ليـس ذلـك الـذي لـه قـرونٌ وذَيـلٌ، بـل الشـيطان الكامـن في ومضـات تعاطُـف مـن عالَـم سريـع الخُطَـى، سـيقتُلُكَ باللُّطـف.

الحنـين إلى الجَنَّـة لا يختلـف عـن التَّـوقِ إلى زوجٍ قـويٍّ مـن الأيـدي. انـسَ كلَّ التَّفَهُّـم، والنفـوس الطيبـة والأرواح العظيمـة، الـشيء الأكـثر أهميـة هـو عَـدَن المُجسَّـدة في يدَيْـن قويَّتَـيْن عندمـا تعجـز عـن المتابعـة، عندمـا يتوقَّـف عقلـك عـن العمـل، عندمـا تكـون مجـرَّدَ كتلـةٍ مُرتَجِفـة مـن الأعصـاب العاريـة المُتعفِّنـة، هـلام بـلا ملامـح. عندمـا تكـون مجـرَّدَ قطعـةٍ مـن اللحـم.

بعـد هـذه التجربـة، بعـد وفـاة نانـا، تخلَّصَـت إيڤـا مـن كلِّ الأوهـام التـي كانـت لديهـا. لا يمكـن لشـخص واحـد أن يفعـل كل شيء. وعـلى الرغـم مـن أن إيڤـا كانـت قـادِرةً عـلى تحقيـق الكثـير، إلا أنهـا لم تسـتطع الحفـاظ عـلى صفـاء نبـع الطيبـة هـذا. كان بإمكانهـا أن تقاتـل كنَمـرٍ، لكن ذلـك لم يكـن أسـلوبها. كانـت هنـاك قصـة عـن إيڤـا -حـوَّاء- في الكتـاب المُقـدَّس، التـي أكلـت التفاحـة المُحرَّمـة وأعطتهـا للآخريـن، ونـشَرَت السُّـمومَ المُحرَّمـة بتهـوُّرٍ، وانطلقـت مُسرِعـةً نحو المـوت والخطيئـة، وثنائية الخـير والـشر، والمعركـة بـين الـرَّبِّ والشَّـيطان. كانـت هنـاك، عنـد مفـترق طُـرُقِ الوجـود، وقلمهـا الأسـود في يدهـا. أعطـت الحيـاةَ لـكلِّ مـا وقـع في طريقهـا: الخطيئـة، القداسـة، والحيـاة نفسـها. لـن تتمكَّـن أبـدًا مـن حماية أي شـخص، هـي فقـط تتحدَّاهـم. وإلى أيِّ شيء؟ الحيـاة، أو المـوت. العثـور عـلى الاختلافـات السـبعة بـين الصورتـين.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

الأمـر أصعـب بالنسـبة للمتحفِّظـين. المتحفِّظـون يظلـون هادِئـين لسـنواتٍ وسـنوات، ثـم يقفـزون مـن فـوق جـسر. لكـن أولئـك الذيـن يُطـارِدون أصدقاءهـم باسـتمرار بالشـكوى والشـكوك، هـم مـن يحافظـون عـلى حياتهـم. اطْـرُق! وسـيُفتَح البـاب أمامـك. ربمـا لـن يُفتـح تمامًـا، لكـن شـيئًا مـا سـيتغيَّر بالتأكيـد، إذا كان ذلـك سـيجعلك سـعيدًا. ربمـا ورق حائـط جديـد، الانتقـال إلى شَـقَّةٍ جديـدة، عطـر جديـد، منظـور جديـد، صـورة جديـدة. قـد تشـتعل شرارة أمـل غـير منطقـي في عروقِـكَ بـين الحين والآخـر، ربمـا في لحظـة وجـودك في القطـار، بينـما تقـرأ كتابًـا مُتَرجَـمًا إلى اللاتقيَّـة، وفي ومضـة خاطفـة تـدرك أنـك تفهـم المؤلِّـف والشـخصية الرئيسـية وحيـاةَ المترجـم. لثانيـة واحـدة، تجتمـع الشـخصيات الثلاثـة فيكَ، وليـس بالمعنـى السـطحي، بـل كـذروة متوهِّجـة لمنحنـى قـدريٍّ مـا. كـما لـو نفـدت إلى الأعـماق، وتمكَّنـتَ مـن رؤيـة قـاع البحـيرة المتجمِّـدة، أو سُـكون التيـار الخفـي السـاري بـين زنابـق المـاء التـي لا تتحـرَّك. ثـم تقلـب الصفحـة، ويتـلاشى كل شيء. عُـدتَ إلى جَسـدِكَ، وعليـكَ شراء الحليـب للطفـل، وقلبًـا لتطهـوه للكلـب -قلـب بقـرة ضخـم أحمـر- وتعـود بـكل شيء إلى منزلـك. يجـب أن تكـون صيَّـادًا؛ لأن كل مـا حولـك ليـس سـوى حقـول شـتوية متجمِّـدة، تدمِّـر كل مـا هـو حـيٌّ ودافـئ.

أحيانًـا، يبـدو مـن الأفضـل ألَّا تذهـب لأي مـكان، ولا تقـرأ أي شيء، ولا تَقُـل أي شيء؛ لأن هـذا العالَـم يُشـبِهُ قِطَـع الزجـاج المُلوَّنـة في المِشـكال. اقلِـبْ الاسـطوانة تَـرَ شـيئًا جميـلًا. اقلبهـا مـرَّةً أخـرى، تـرى شـيئًا مختلفًـا تمامًـا، لكنـه لا يـزال جميـلًا. تعـرف إيفـا أن الأشـكال المتناظـرة في المِشـكال يخلقهـا نظـامٌ مـن المرايـا. إنـه خَطَـأُ المرايـا، يمكنهـا فقـط أن تخلـق أشـياء متناظِـرَة... متناظـرة أكـثر مـن الـلازم. التناظُـر مُخيـفٌ. بصراحـة، حتـى الحقيقـة ليسـت بهـذا التناظُـر. وحـده المـوت. لكـن المرايـا لا يمكـن أن تعمـل بأيـة طريقـة أخـرى.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

وهـي ليسـت شـخصًا متحفِّظًـا. ليسـت كذلك. تسـير عـبر الغابـة وتكلِّم الأشـجار، والـكلاب التـي تَعـبُر طريقهـا، سـتتحدَّث حتـى مـع الغُرَبـاء بـين الحـين والآخـر. لكنهـا تنـأى بنفسـها عـن تقديـم المشـورة وتَلقِّيهـا. إنهـا ترغـب في اجتيـاز الغابـة بـدون مسـاعدة. ليسـت بحاجـة إلى موسـوعةٍ عـن النباتـات أو خريطـة. عـلى الأقـل ليـس الآن. لكنهـا تحتـاج الغابـة. غابـة متفجِّـرة بالأشـجار، والطحالـب ورائحـة السـماء المُسـكِرة، والهـواء البـارد والرطوبـة الجليديـة في جـذور الأشـجار تحـت حصـيرة السَّراخِـس في الخريـف. إنهـا الأفضـل في نوفمـبر. أو في ثِقَـل حـرارة يوليـو الخانقـة، عندمـا يكـون كل شيء جافًّـا تمامًـا، كـما لـو أن الغابـة نفسـها تختـزن النـار؛ ذاويـة كعجـوز بخيـل منكفـئ عـلى كومـة كنـزه، أخطـر عـلى نفسـها مـن خـزان البروبـان قـرب لهـبٍ مفتـوح. الغابـة موجـودة في تكوينهـا، وفي تكويـن آخريـن مثلهـا. يحتـوي تركيبهـا الكيميـائي عـلى هـذا العنـصر الـسري: الغابـة. لكنهـا بعـد ذلـك سـتذهب إلى الصحـراء وتلاحـظ سُـكَّانها، وتُراقِـبُ شـيوخَها الذيـن يدركـون أنهـم لا يسـتطيعون الذهـاب إلى أي مـكان. لا يُمكِنُـكَ أن تحتمـي مـن أيِّ شيء في الصحـراء لأنـه لا يوجـد مـكانٌ للاختبـاء. كل مـا يمكنـك فعلـه هـو الوقـوف صامِتًـا في ظـلال كوخـك الضيقـة، والتحديـق في الأفـق، مـع مَضـغ التَّبـغ المتجمِّـع أسـفل شـارِبِكَ، أو بـدون التَّبـغ. مجـرَّد الجلـوس والمراقبـة، دون أي تقـدُّم. لا غابـة، لا تَقَـدُّم. يجلـس الشـيوخ وينظـرون إلى الأفـق، ويشـاهدون آثـار الريـاح والميـاه فائقـة الدقـة، أبديـة التغـيُّر، عـلى الرِّمـال...

أمَّـا أولئـك الذيـن لديهـم حريـقٌ بداخلهـم، فقـد أخمـدوا النـار قـدر الإمـكان، بمـا فيهـم إيقـا. تفصِـل نفسـها عـن الواقـع كي لا تَصِـلَ النـار إلى أفكارهـا. كل مـا يـدور حولهـا ليـس أكـثرَ مـن إخـماد الحرائـق. أحيانًـا تأخـذ الكلـب معهـا لأنـه لا فائـدة مـن خروجهـا بمفردهـا. تـشرح بعـض المناظـر صدرهـا كموجـةٍ غامـرة مـن البهجـة. في أوقـات أخـرى، تكـون كزَبَـدٍ يتراكـم ببـطء عنـد قدميهـا. وفي أوقـات أخـرى، كإبـرة في الوريـد،

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

شعور حارق يُسرِّع من نبض قلبها ويرسم العَرَقَ على جبينها. ينفتح لها شيء دائمًا عندما تمشي. يا لهذا الوهم الصغير بالحركة! لا تحتاج إلى أي شيء آخر.

يحتاج الناس لأن يُفهموا وحسب- تقول لنفسها. يحتاج العالَم لأن يُفهم. الناس مثل الأحذية، لا يمكِنُ لقالب واحد أن يناسب الجميع. جِلد كُلِّ حذاء له منحنيات فريدة، وخياطات، وطرق خاصة في الارتداء. يستغرق الأمرُ بعضَ الوقت لرؤية هذا.

نالت نصيبها من المبارزات بالفعل، ولا حرجَ في ذلك. بعد وجبة الإفطار الهادئة المُعتادَة، ترمي بنفسها لمرور الوقت، وتسمح لنفسها بأن تتبعثر تمامًا كي تفيض بالوعي، وكل السفاسف التي تُبقيها على قيد الحياة. تصبُّ أشلاءها الصغيرة المُحطَّمة على سفح طريقها المسدود، وتبكي وتنتحب، وبعد ذلك يصبح كل شيء هادئًا لفترة من الوقت، هدوء رائع، ساكِنٌ ومتجمِّد وجميل. يعمل العالَمُ كآلَةٍ مُزيَّتة بعناية، مزوَّدة ببارامترات وبارومترات، وألتيمترات، وكرونومترات. أنت تحِبُّ المسافات الطويلة والقصيرة، البدايات والنهايات، ولديك وِلَعٌ خاصٌّ بالحلول الوسط: الذهاب إلى العمل، وقروض المنزل والسيارة، والأطفال والآباء والأمهات، وحتى العَرَّابات غير المُتزوِّجات. مَن يدري، لولا الزُّكام والدوار المستمر، أكنت لتقدِّر هذه الآلية الصغيرة -الركيزة أو المطرَقَة أو السِّندان، أيًّا كان ما تُسمَّى تلك العِظامُ الصغيرة- آليَّة الموازنة في أذنِكَ، تلك التي تُبقيكَ واقفًا؟ جهازك الدِّهليزيِّ؟

المادة الحمراء واحدة في دماء الجميع، بطيئة التَّدفُّق، ومُشبَّعة تمامًا بالوقت وأرشيفات مُتنوِّعة. إنها مادة ساخنة دومًا، مع ذلك أيُّهما يخلق أكثر؟ الوقت أم الدم؟ وإذا كانت الإجابة كلاهما، فلماذا نعيش لما هو أبعد من ذلك؟ بعد أن لا يبقى على الأرض مَن يضعك في فِراشك، ويَقبَلَكَ بِحُبٍّ غير مشروط، ويأخذك كما أنتَ تمامًا. من

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يجد البهجة في مراقبة ما تفعله، وتبدو في عينيه، جيدًا ببساطة... حين لا يبقى لديك شخص كهذا، أمام مَن ستكون على سجيَّتِكَ؟ لأنك دائمًا ما تجد رابطًا مع مَن يحتوونك، أو يلقون إليك بحبل ليسحبوكَ إلى الشاطئ، أو مَن يتنبَّؤون لك بشيءٍ في عالَمِ الفوضى المُطلَقة هذا، حيث يتعيَّن علينا أن نحيا، حيث وحدها الشمس تتحرك في نفس المسار، حيث يزحف ضوء النهار متسلِّلًا على النوافذ كاللبلاب. وبخلاف ذلك، تغيَّر كل شيء. ولم يُخبرك أحد بأي شيء مُلهم، فقط -أليست غريبة قِيَم العالَم الحديث؟- ذات الأشياء القديمة التي تحتاجها للبقاء. حتى إيڤا قيل لها شيء كهذا. شيئان، لا... ثلاثة أشياء من أجل البقاء. الأولان هما: لا تجلِسي على الحَجَرِ أبدًا قبل أن تسمعي صوتَ الرَّعد، ولا تَقِفي في مهبِّ الريح. من الواضح أنها مُرتَبِطَة بحزمَةِ الأعصاب اللعينة ذاتها. يُتلِفها البرد والتيارات الهوائية، وستتبوَّل دمًا إن لم تتوخَّ الحَذَر. سوف تذبل كغُصنٍ مشوَّه إن لم تحترس.

ولكن الشيء الثالث شُرح لها بطريقةٍ ملتوية، من خلال قصَّة. أسدتها جَدَّتُها التي عَمِلَت قبل الحرب العالمية الثانية كخادِمَةٍ لعائِلَةٍ ثريَّة في "ريجا" تلك النصيحة. لقد عملَت معهم لمدة شهر واحد فقط لتوفير ما يكفي لمكانٍ للعيش في هذه المدينة الجديدة.

"حبيبتي" قالت لإيڤا، "كنتُ أعلم جيِّدًا أنني سأعمل لديهم لفترة قصيرة وحسب؛ لذلك تحمَّلتُ كلَّ شيء بكرامة، وكان لديَّ من القوَّة والطاقة ما يكفي لكل يوم جديد. عندما غادَرتُهم بعد شهر، كانوا يبكون ولا يريدون مني أن أذهب؛ إذ لم يكن لديهم أبدًا خادِمةٌ في مهارتي". كانت هذه القصة تعني أن كل شيء سوف يَمُرُّ، حتى الحياة. ربما استغرق الأمر نفسه أيًّا يكن أكثر من شهر، لكنه سوف يمرُّ. كلُّ مشهد وكلُّ منظر طبيعي، حتى أنت. إنه حَلٌّ، على الأقل إلى أن تأتي اللحظة التي تضيق فيها بالحياة أكثر من الموت، حين يصبح كلُّ ما تراه في الأفق مجرَّدَ مساحات خاوية محترقة من السواد. حين تكره

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

الحيـاة تمامًـا حتـى ينتفـض جسـدك ألمًـا لمجـرد التفكـير فيهـا... شـكرًا يـا نانـا.

لأنـه -وبصراحـة- لم تَعُـد إيڤـا تقـول عـلى نفسـها فتـاة، حتـى إنهـا أحيانًـا تطلـق عـلى نفسـها تلـك الكلمـة الجميلـة "في منتصـف العمـر". نعـم، تريـد الآن أن تفكـر كمَـن هـم في منتصـف العمـر. لقـد اختَـبَرَت بالفعـل تلـك الفـترة جسـديًّا، أتَتهـا الأفـكارُ في صبـاح عيـد ميلادهـا الثالـث والثلاثـين. في ذلـك الصبـاح شـعرت أنهـا تقـف عـلى قِمَّـة جبـل، يمتـدُّ هـذا الجبـل المتحـدِّر الضَّخـم في كلا الاتجاهـين، لتـذوب أطرافـه في شروق الشـمس الذهبـي البعيـد. كان الحَيـدُ طويـلًا وأسـودًا، وللغرابـة، كان هنـاك الكثـير مـن الأكسـچين، فلـم يخـرج دمهـا عـن السـيطرة! وبـدلًا مـن ذلـك، كانـت هنـاك ريـاح شرقيـة رطبـة مُنعِشـة، وفي الأعـلى، تـلألأت النجـوم وتداخَلَـت مـع الزُّرقَـة كعُقَـدٍ بيضـاء. الأمـور جيِّـدة جدًّا.الأمـور جيـدة جـدًّا الآن. فهـي لا تفكِّـر في الطريـق إلى هنـا أو في رحلـة الهبـوط، كل شيء هنـا والآن، جيـد جـدًّا. كل شيء في منتصـف الطريـق. والـشيء الوحيـد المؤلِـم، هـو وعيهـا بأنهـا تسـلَّقَت الجبـل مـن اتجـاه البحـر، وسـوف يتعـيَّن عليهـا النـزول إلى الصحـراء. المعرفـة تخِـز قليـلًا، كترقـوة كُسِـرَتْ ذات مـرة، تُؤلِمُـكَ كلَّـما أمطـرت السـماءُ، لكنَّـكَ تعتادهـا.

ثـم يـأتي يـوم، حياتُهـا في منتصـف طريقهـا للانتهـاء، وهـا هـي تمـشي في الغابـة ذات صبـاح خريفـيٍّ. تُخَشـخِشُ أوراق الخريـف الذهبيـة حولهـا، وتَزفـرُ الأرضُ بالـبرودة، والسـماء زرقـاءُ كعيـون حبيبهـا. حياتهـا نصـف منتهيـة، ومـن حـينٍ لآخـر، سـيحدث شيءٌ بينـما يمـضي الزمـن. عـلى سـبيل المثـال، كانـت هنـاك ولادات كثـيرة، وبضـع وَفَيـات، وسـيكون لديهـا مـا تتألَّـم بشـأنه طـوال حياتهـا، شيء مـا لـن تقـدر عـلى إصلاحـه أبـدًا، شيء سـوف تضطـرُّ إلى صرف النظـر عنـه، وهكـذا... تمـشي عـبر الغابـة وتشـعر أنهـا سـتصل قريبًـا إلى هـذه النقطـة الحَرِجَـة حيـث يمتلـئ الكـوب وتنكسر يـده، فـلا يمكـن أن يمـرَّ الأمـر مـرور الكـرام. بـرودة زجاجـات الحليـب

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

في طفولتها، وعلب الكرتون الهرمية، وعليها كلمة "مولوكو"، لا يمكن أن تنساهم أيضًا. أو أكوام مال الوطن المحرَّر حديثًا في الحقائب، وأول راتب حقيقيٍّ لها -رُزمَة كاملة من الورق الملوَّن- كُلَى مُجمَّدَة، وسراويل مبتلَّة، تجربتها الأولى مع صبيٍّ لن تراه ثانية أبدًا، المرَّة الأولى في الطائرة، المرة الأولى بالخارج ورؤية أشياء جديدة. الشخص الذي ترَكْتَه بطيئًا، لكن نهائيًّا؛ لأنه كان يغيب، رغم أنه توسَّل إليك لتبقى. خيانات قلبِكَ، وروحك الوحشية الحاقدة، ولحظات التقاط الأنفاس الوجيزة، وصفقاتك مع ضميرك، والدك ووالدتك، وأسفارك القريبة والبعيدة، حين وَقَعتَ في حُبِّ المدن والسماء، أو مناطق بأكملها من الأرض غير المأهولة.

ليس على الحب أن يتعلَّق بالناس دومًا. لا، ليس بالضرورة؛ يمكنك أن تقع في حبِّ مدينة، روائحها العديدة، كم هي هادئة تحت الثلج. الشوارع الصغيرة والكبيرة، والغسق في النوافذ المتوهِّجة الذي يشعل رغبتك، عندما تقف في الشوارع بعيونِكَ التي تلمع ببساطة، من فرط الرَّغبة في تجربة كل حياة يمكن تَخيُّلها، كل ما وراء تلك النوافذ. تريد تمزيقها عن الجدران ودسَّها في صَدرِكَ لمجرَّد أنَّكَ تعرف وتفهم كل شيء ببساطة؛ لأنك تحبُّ هذه الستائر والظلال وقِطَعَ السَّجَّاد المهترئة خلف أواني الزهور على الجدران والنوافذ ببساطة. عشاء سريع أو فاخر، قطط على أُطُر النوافذ، وقدور تغلي في المطابخ. وهدوؤه حين يعود من العمل. وكيف تُميل رأسَها له ليُقبِّل خَدَّها. ها هو انتصارك، حياتك في هذه التفاصيل الأساسية الصغيرة التي سينهل الجميعُ منها حتى نهاية الوقت، كما لو كانوا يعانون من الجفاف، وحين يسكرون بها، يهيمون بطول أسوار الباحات، متلهِّفين لهذا التحوُّل الأبدي بين الليل والنهار. الشيش، وقيلولةٌ على أريكةٍ مُخطَّطة بينما يُحضَّر لك الشاي. لحظة من الدفء المريح داخل نفسك، حين لا تطعن عقاربُ الساعة جفونَك الجافَّة والمُتعَبَة كسكاكين فولاذية. ستشتهي عزلة امرأةٍ

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

عجوز، قِطَّتَها وحفلاتِها وسريرَها المليء بالفُتات من أحفادها، بالذات في نوفمبر، حيث الداخل مُشرِق ودافئ والخارج مُعتِمٌ وبارد ومتجمِّد قليلًا. بالخارج، حيث تقف بقلبِكَ الوحيد، وحياتك في صدرك، وأنت تعرف كل شيء -لكن كيف؟- وتغرق، تغرق، تغرق في حبه.

ولكن لا يوجد سوى هذه اللحظة في الوقت الحاضر، وهذا الشعور المُفرِط الذي لا يرحم بالوعي، ورائحة الأرض النفَّاذة.

لماذا أتجوَّل بأوركسيترا تعزف في رأسي؟

ثم تتصدَّع مثل شجرة الصنوبر. يتقشَّر اللحاء، طبقة تلو الأخرى، ويتساقط مشتعلًا. تتنفَّس الغابة وتنمو وتقف بتواضُعٍ، ولا تحاول إثبات أي شيء، إنها فقط موجودة. هي تعرف أن الغابة مثاليَّة، أما الغابة نفسها فلا تعرف ذلك. يتطلَّب الوجود الكثير والكثير من المرء، ومن تلك البنية المُعقَّدة، كُرَة الأعصاب تلك ذات القلب والدماغ والعينين -كيف لها أن تنسى؟ إنه صراعٌ لا نهائيٌّ، زوبعة من النشاط والميول والأفكار والغرائز والمسؤوليات- وإذا لم يكن أيًّا مما سبق، فعلى الأقل أبسط لمحة عنه بين الحين والآخر. أن ترفع يَدَكَ لتغيير قنوات التلفزيون، إخراج الجبن المشويِّ من فُرنِ التحميص، أو تجاوز إشارة حمراء في تقاطع مزدحم. أو حين تعود للديار بعد أن أمضيتَ فترة طويلة بالخارج، وبينما تنظر لأعواد الغاب الحريرية تحت ظِلال السُّحُب المنزلقة، تسأل نفسك: مَن الذي يرى كُلَّ هذا؟

أو حين تكون في مكان جديد وتعرف أن والدتك تُوفِّيَت. لا أريد أن أسمع ذلك، يصيح قلبُكَ المتعب المشوَّه الساخر. قلبك لا يريد المزيدَ من الألم. لكن شيئًا ما بداخلك يرتجف، يقشعرُّ -حلمٌ ضئيل هام قبل أن تستيقظ مباشرة، أو صراخ حيوان بصوتٍ عالٍ كمُحرِّكٍ يعمل فوق طاقته- وتصل إلى ذلك الإدراك الثاقب أن نَفَسَك التالي قد لا يأتي أبدًا. لكنَّكَ تتنفَّس، وستشعر في الوقت نفسه، بالإثارة وبخيبة أمل لا

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يمكن شرحها. لأن سؤال القلب لا يزال قائمًا. لو أن هناك شخصًا قريبًا منك... قريبًا جدًّا، وقد مات الآن، وتتخيَّل قلبه الذي لم تره أبدًا، ولكنَّكَ تتخيَّله جيِّدًا -ولِمَ لا تفعل؟- كيف كان حيًّا، وكيف يرقد الآن، محارة مُتيبِّسة ساكنة في قاع قبر. وتحاول أن تتخيَّل ما يفعله القلب في هذا القبر. هل كوَّن روحًا؟ تلك اللؤلؤة المنشودة؟ أم لا؟ على الأرجح لا. لا لؤلؤة هناك بالأسفل. لم يعثُر أيُّ عالِمِ آثارٍ على لؤلؤة مكان قلب. إنه شيء لم نسمع عنه. ربما كنتَ أنتَ نفسك اللؤلؤة، ثمرة هذه الحياة الغريبة وخلقها، لكن سكون القلب المفاجئ، انقلاب ذلك الجسد الذي ربما أحبَبتَه أكثر من حُبِّكَ لجَسدِكَ، يمكن أن يدفعك إلى الجنون بسكونه وذوبانه في الأرض. وتحلُّل القلب، تحوُّله الذي يفوق الحواس إلى تراب وديدان وطين وجذور، يؤلمك، حتى تصير مستعدًّا لنبش الأرض لتعيده لضوء النهار، هذا الشيء عديم الفائدة الذي لا شَرارة فيه، ولا حركة، ولا صدى. إنه هوس.

لكن أفكارها تقشَّرَت. على الأقل قُضِيَ الأمر. تأخذ خطوةً مُتردِّدَة بعيدًا عن شجرة الصنوبر وتتحرَّك إلى الأمام. رمل مخلوط بالتُّربة السوداء، غرقت في ليونته لكاحِلَيْها. مصدُّ حرائق صَبُّوه حديثًا؛ تَحسُّبًا لحرائق الغابات. لن يكون هناك المزيد من الحرائق. لقد تقشَّرَت أفكارها وصولًا إلى لُبِّها الحيِّ الرطيب. وصولًا إلى كينونتها، إلى الحاضر، مُتحرِّرةً من الماضي والمستقبل والوراثة والأصل والتأمُّلات، من شهادات المدارس الثانوية وإنذارات مراكز الاحتجاز. يبدو لها فجأة أن هذا السلام الروحي سرقة. تجسيدٌ لا نهائيٌّ مُؤلِمٌ لحياة الآخرين- كانت حُفرةٍ عميقة للغاية، لكنها الآن مجرَّد طبقة سميكة: الغابة والطريق والسماء. لا بُدَّ أن يكون ذلك دليلًا على المعاناة، تريد أن تصرخ، لكنها تلزم الصمت. وإذا انتهى الأمر بأن تكون تلك هي الفرصة الوحيدة للاستمرار؟ انحنِ أرضًا، وخُذْ حفنةً من ظلِّكَ مع بعض الرمال، لا شيء سوى الغابة والطريق والسماء. وأنت. تَكَثُّف المادة، عقبة عَرضيَّةٌ

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

لأشعَّة الشمس، كائِنٌ بلا چينات، بلا أسلاف، بلا ماضٍ، أو مستقبل. مراقِب، امرأة رأت واحدة أو اثنتين من أجمل لحظات حياتها في الطبيعة. ليس هناك الكثير من هذه اللحظات، ولكن هناك البعض، ولا يمكنها التوقُّف عن التفكير فيها. تعتقد أنها سوف تتذكَّرها حتى في ساعتها الأخيرة، كضباب يتسلَّل للمدينة في صباح صيفيٍّ قائظ. حركات حيوانات الضباب في شوارع المدينة الخالية، حين يمدُّ السديم محاليقه لوادي النهر القديم. حركة بلا حركة. أو حين يسقط الثلج الأوَّل على البحيرة في الغابة. مرآةٌ سوداءُ نقية تلمع إلى ما لا نهاية، وستارة من البياض تتلاشى، وجيشٌ من الثلج، مليارات من الرقائق تكفُّ عن الوجود بمجرَّد لَمْسِ الفجوة السوداء النقية.

نعم، ولكن أكان هناك مشهدٌ قبيح في الغابة على الإطلاق؟ ألم تَكُن السماء المظلمة في كل أمسيات الخريف، إذا استطعت إقناع نفسك بالتوقُّف لبضع ثوانٍ في فسحة من الغابة لترى زوجًا من الغِربان يطير بنعيق خفيض، لترى مسارات الطائرات النفَّاثة البيضاء وهي تتحوَّل إلى حُمرَةٍ متزايدة في وهج الشمس الغاربة، وتداخُل قِمَم الأشجار الناظرة للشمال الناعم يزداد سوادًا بشكل غامض مقابل صفرة السماء الغنية... ألم يكن هذا جَمالًا؟ تمامًا كما يزداد لون الغروب الزاحف تركيزًا قبل أن يَثقُلَ الليل، قبل أن تغرق الأرض في نفسها. لا أثر للأفكار التي بعثتها الرياح بلا مُبالاة حيث تقف الغابة في السكون الشتوي الهشِّ، مغمورةً لجذورها وأطرافها في حالة تأمُّلٍ لا يعرفها سواها. جَمال لذاته، ومع ذلك، وفي الوقت نفسه، قُسم لها أن تراه. قُسم لها، لجسد واحد صغير في تلك الفسحة الكبيرة. لمحة الحياة التي تجدها في تلك اللحظة سريعةً وهامشية، كصافرة قطار يغادر محطة خالية. لفتة غير ضرورية بالأساس، إشارة زائدة عن الحاجة موجَّهة للا أحد؛ لأنه لا يوجد أحد هنا، فقط اندفاع

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

القضبان من الأفق للأفق، وجدار حبريٌّ من أشجار التنُّوب المتجمِّدة، بامتدادها يحمل القطار صرخته، ودفء نوافذه المثير الوهَّاج.

قَرَأَت ذات مرة، لا أحد يعلم أين، ستقع في الخطيئة أكثر من مرة، لكن لا بأس. حيَّرَتها الجملة وفكَّرَت فيها مرارًا لفترة طويلة، بدت لها كما لو أن أحدهم يلقي نكتة مريضة. ما تراه هو خطيئة، لم يكن أكثر من درس لشخص آخر؟ لم تُصدِّق الأمر، لكن في الوقت نفسه شَعرَت بأمل، أمل كبير في أن تتحمَّل هذه الجُملَةُ مسؤوليَّةَ كلماتها. وما هي الخطيئة؟ أي نوع من الكلمات تلك؟ كما أخبرها أحدهم ذات مرة، مثل أعظم رواية لدوستويفسكي في طبيعتها الشيطانية والمُقدَّسة، لم تكن الخَطيئة هي ما يستدعيه الناس عند مُطارَدَة القَتَلة واللصوص إلى المشانق، لا... لا، تلك مسألة أخرى، أكثرَ وحشيَّةً بكثير، لا تستحقُّ الوقع الهامس لكلمة "خطيئة". الخطيئة، قال، هي أن تنظر إلى قلبك، إلى الاختلاجات اللحظية للكراهية والرغبة والكبرياء والحسد والثرثرة والغيرة التي تولد فيه، تلك هي الخطيئة، حبيسة عواطف قلبك، ذات القلب الذي يحوي غفرانًا وتوازُنًا وسلامًا أبديًّا خفيَّيْن، انظر إلى دمك الثائر وسيكون لديك ما تعترف به، لا يهمُّ لِمَن؛ لكاهنٍ أو للبحر أو لجبل كازبيك المُقدَّس. اختبر قلبَكَ وستجد أنك لا تكره الآخر، بل بالأحرى ما يثيره فيكَ: رغباتك غير النزيهة، ونقاط ضَعفِكَ. هذا ما تكرهه، وليس الآخر. إنه ليس مُخطِئًا؛ إنه مثل طفل، كيف يمكن أن يكون مخطئًا؟ لكن موجات المقاومة تلك التي تأتي من قلبك تخصُّكَ أنت؛ لها لونُ عينيك وتعبيرات وجهك، لم توضع بَعدُ في كلماتٍ ولم تستخدم. قلبك يخفي الخطيئة في أفكاره. ثم فجأةً، تلك العبارة- سوف تقع في الخطيئة أكثر من مرة، لكن لا بأس بذلك. انهض وامْضِ قُدُمًا. لا ترتَكِبْ نفس الخطأ مرَّتَيْن. فقط لو كان بإمكانها أن تغرس تلك الفكرة في جسدها، كزهرةٍ مُزدَوَجَةِ البراعم؛ أملًا في سلالة مزدهرة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

عليك أن تكون في قمَّة الحذر عند قيادة السيارة، نعم بالطبع. هذا إذا استطعت حتى أن ترفع رأسك. أوه، أيها السِّرُّ... حبيس صندوق الزمن... تعبير جادٌ وكئيب... قربٌ مستحيل. وعاء لا يمكن مَلؤه حتى وإن كان هناك الكثير، كوب لا يمكن إفراغُه- أيُّها الإنسان! لو تُفكِّر في كمِّ التروس التي يجب أن تُعَشَّق بدقَّة ليصبح ولو ظل حميميَّة، خيال حميمية، محاكاة للحميمية، مُمكِنًا. لكنها لو كانت حميمية حقيقية، تلك المحاولة اليائسة داهِمَة الألم لمغالبة الزمن والجسد، ومغازلة أحلك الشقوق داخل بعضكما؟ ثم أن تظلَّا قادِرَيْن على النظر في عينَيْ أحدكما الآخر بعد كل ذلك- أليست هذه معجزة؟ وحين تكون في السيارة ترى الجانب الأيمن من وجهه. يفترض أن الجانب الأيمن من عند الله. لذلك هو الأفضل. أوَّل مَا يضيع في الحرب، لكنه أيضًا الجانب الأجمل، بلا شَكٍّ. والطريق نفسه جميل، جميل كَمَصير المشهد الذي يسرع من حولكما: أن يذوب إلى وميض ينعكس على وجهِكَ وعينَيكَ، أن يتغيَّر.

لهذا تأخذ حذرك حين يَعرض عليك أن يأخذك إلى باريس -حسنًا، ربما ليست باريس، ربما إلى هلسنكي أو توكومس أو كالينينجراد أو ليك بايكال- يلمع الطريق في عينيه، وهو دائمًا جميل. لا أجمل من إنسان على الطريق. خالٍ من الهمِّ، يَسحَبُكَ معه. الطريق، الجَمال، ألَم. لكن تشبَّثْ ولو بأصغر قطعة من عقلك النقدي. نغدو أقلَّ عقلانية مع كل عام، ومن الوارد جدًّا أن نتمكَّن ذات يوم من فهم روسيا- كلَّا، هذا هراء، ليس علينا أن نفهم روسيا، بل أن نندفع لندخلها كالحريق، بوحشيَّةٍ، حفاةً، ونوزِّع على أهلها صكوك الغفران. لكن حاوِلْ الحفاظ ولو على أصغر جزءٍ من عَقلِكَ النقدي؛ كي لا تنفجر الأمور في وجهك، كي لا تبتلِعَكَ الأراضي الرُّوسيَّة المُظلِمة. أو على الأقل حافِظْ على إيمانك بنفسك. اترُكْ لنفسك حرية الاستيقاظ في يوم العمل التالي والمَشي إلى البحيرة والعودة. لن تذهب حقًّا إلى أي مكان؛

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

ستتكوم في القطار أو في الرولز رويس المُفضَّلة لديكَ وتَتَّجِه إلى العمل. لكن اترُكْ هذه الوهج من الحرية في عقلك، تلك الإمكانية للنزول فقط إلى البحيرة ولن تضطرَّ إلى الذهاب إلى أي مكان بعدها. ستكون في سلام.

ما سبب أرقها وشهوتها؟ الأمر بسيط حَدَّ الكليشيه. مرة أخرى تغلبها تلك الموجة ولا تعرف ما إذا كانت الموجة تضربها أم أنها هي نفسها الموجة. على الترتيب، ما الذي يختبر قدراتها: القَدَرُ أم الإرادة الحُرَّة؟ السبب بسيط حَدَّ السخرية، ذات السبب الذي يجعلها لا تُحبُّ أو تقرأ ما يُسمَّى بـ "كتب العلاقات". إنها زبالة، وخَطيرَة. بمجرد ظهور الكلمتين "هي" و"هو" على الصفحة، تُغلِق الكتاب بعنف وترميه حتى يصطدم في الركن لأنه على الأرجح سيكون عن نفس القصة القديمة حول الغريزة الأمومية التي تجعل النساء يتورَّطن مع الأوغاد. ربما كانت تجربتها الشخصية المزرية هي سبب تمرُّدها؛ لأن الحب يسعى للنَّيْل منها مرَّةً أخرى، ولكنها ليست علاقة، حبًّا بالله، كلَّا، لا توجد بعدُ علامة على ذاك المستنقع الذي يسمُّونه "علاقة". غلبها حُبٌّ طاهِرٌ ونقيٌّ، وتوَدُّ هي أن تحيل هذه النار إلى جَمرٍ في أقرب وقتٍ مُمكِن؛ كي يعود كل شيء مرَّةً أخرى محكومًا بالهدوءُ، وقرقعة الفحم الهادئة في عمق الرماد. هذه الحالة الهادئة هي المُفضَّلة لها: جمرة في الخارج وحركَةٌ هادئة في الأعماق، اشتعال الفحم الخفي. تُحبُّها، لكن لا يُمكِن حَرقُ أي شيء بشكل أسرع من المقدَّر له. الحياة نار، الحب نار، الأيام براعم من الضوء على ساق زهرة الربيع المسائية، الضوء نار، والوقت نار ودفء. ثم يأتي المَدُّ العالي، ثم تأتي الموجة التاسعة، وإذا كنتِ الشَّخص الوحيد الذي لا يمكنه أن يحبس أنفاسَه بما يكفي للغوص لحين انخفاض المد التالي، فأمسكي به إذًا، وحلِّقَا فوق كل شيء.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

السبب كليشيه وبسيطٌ لدرجة أنها غاضبة من نفسها وتبكي، لكنها لا تريد الشفقة. لا قدر لها سوى قدرها. لا نصيحة، لا مساعدة. تريد تجربتها الخاصة. لماذا تحاول تَجنُّبَه-كي لا ترتكب الأخطاء؟ إنها تحتاج إلى أخطاء... تحتاج إليها! حِيكَ خوف الأخطاء في بزَّات روَّاد الفضاء وانطلق إلى المريخ لسنوات وسنوات. طَفَت الحاجة إلى ارتكاب أخطائها الكبيرة الخاصة على السطح وهي تَعبُر سنوات انفصالها عن العالم. تريد الغابة والصَّمتَ، ورؤية كيف سينتهي كل شيء. وكيف سيبدأ، إن كان سيبدأ. ما تعرفه هو أنه بعد البداية تأتي النهاية، وبعد النهاية تأتي البداية. ولكن ما إذا كان هناك شيء سيبقى بعد رحيلها أم لا، هذا ما لا تعرفه. أَثْمَنُ ما تملكُه هو نسخة قديمة من كتاب التغييرات الصيني. لم تكذب عليها مرَّةً واحدة. تلجأ إلى هذا الكتاب فقط في حالات نادرة، حين يتعذَّر عليها الاستمرار كما تفعل عادةً. وهي لا تبحث عن مفاتيح الماضي أو المستقبل في هذا الكتاب، لا. لقد لاحَظَت أن أهمَّ ما ينقص حياة المرء، ويا لها من عادة مخيفة، هي القدرة على إدراك الوضع الحالي! غالبًا ما تسأل كتاب التغييرات سؤالًا واحدًا: أين أنا؟ ولا يكذب الكتاب عليها أبدًا، يخبرها بالمكان كخريطة طبوغرافية مرسومة جيِّدًا:

انهيار.

ملاحظة.

عدالة.

أو شيء آخر. تتحوَّل الهزيمة إلى اعتداء، والبناء إلى حُطام. والشخصيات هي ذاتها التي تراها في أحلامك. الآن بعد أن وقعت في الحب مرَّةً أخرى، سألت الكتاب فأجاب: بَجَعَة. إنها الحقيقة. لكن لسوء الحظ، هي ليست بجعَةً عندما تقع في حُبٍّ. إنها قِطَّة. والبجعة لا تصل أبدًا إلى الشاطئ. تضحك على نفسها! انظري؟ إنها

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تحب. لكن أهذا ما تحتاجه مرَّة أخرى؟ إنها مُتعَبَة للغاية، تعرف كلَّ الأهوال من البداية إلى النهاية، مثلما تعرف جداول الضرب، فلماذا، ولأيِّ شيء؟ هذا الشعور بتنهُّد الوجود مرة أخرى. هذه الدبلومة في الحياة. هذا التَّيَّار الذي يسحبها للأمام ويجعل قرار معدتها يُرَفرِف.

تُصاب بالبرد كي يصير لديها الوقتُ لموازنة خياراتها. كي تتمكَّن من الجلوس بلا حراكٍ جوار نافذة مطبخها لساعاتٍ، ومشاهدة صاحبة البيت، والحَمام، وأوردة يديها وتجاعيد زاويَتَيْ فمها في انعكاسها في النافذة، أفكارها ومشاعرها، كل ذلك قبل أن تَثِبَ من مكانها فتكلِّمه، وتركض لتطوِّقَه بذراعيها، لأن... هل هناك قيمة لأي شيء دون حُبٍّ؟ المرأة كانت -وستظلُّ دائمًا- القُوَّةَ فيما هو ضعيفٌ، والعظيم فيما هو صغير، ولكن بمَحضِ إرادتها، لا تنسَ ذلك.

في الخارج، بالصُّدفة، مناخ البلطيق الساحليُّ القاسي. عندما كانت صغيرةً، كانت تظنُّ أن هذا هو العالَمَ. هناك، عند البحر، بدت شهور الشمس الثلاث وشهور الظلام التِّسعة طبيعية كجلدها على جسدها. تغيير الفصول، والأطراف الأزهار النامية المخمليَّة، انسياب النَّسغ من أشجار البتولا، طقطقة الأوراق الخضراء الرطبة على سطح المنزل في الخريف، كانت قريبة جدًّا من كل ذلك، رغم أن رأسها لم يَكُن أعلى من سرخسة، وأصابعها بالكاد تصل إلى رُكبَتَيْ نانا المعقَّدَتَيْن. في بعض الأحيان، كان الجَدُّ روبرتس يحني وجهه المُتجعِّد قرب وجهها، فيتصدر المشهد كقطعة من الخشب الطافي، دفعتها الرياح ببطء عن شَلَّة من الأمواج، ويغنِّي:

"فوق الحقول تسري

ريح ربيعيَّة خفيضةٌ،

ومعها يبكي كمان حزين

يلعب عازِفُ الكمان

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

لقد كان شابًّا ذات مرَّةٍ

وكان القلب في صدره مليئًا بالحُبِّ ذات مرة...".

ثم يلعب نفس اللحن على الهارمونيكا الفضِّيَّة.

حينذاك، سألته إيڤا:

"جدِّي، هل يعني هذا أن قلبك لم يَعُد مليئًا بالحب؟".

"دائمًا"، ضحك الجَدُّ، "قلبي دائمًا مليء بالحب".

كان روبرتس يدخِّن جوار الموقد، ويخبر إيڤا أن لفائف الورق المُتوهِّجة التي كان يحملها دومًا بين أصابعه، تشتعل من لهيب قلبه أيضًا. خُلِقَ الغليون لمن يُحبُّون أن يتنفَّسوا النار، يقول ضاحكًا. تزجره نانا وتصفه بالمدخنة، وتأمره بأن يكُفَّ عن ملء رأس الصغيرة بالهراء. ولكن لم يكن هناك سببٌ حقيقيٌّ للتوبيخ، فَلِإيڤا عينان ترى بهما كيف يشعل جدُّها سجائره من جمر المدفأة.

لم تكن إيڤا قد تعلَّمَت القراءة بعدُ حين أخبرها روبرتس بكل شيء عن طبيعة السُّحب. كيف كانت السحب، تلك الكآبة الأبدية من الخريف إلى الربيع، بحرًا ثانيًا فوق البحر الحقيقي. أن هناك بالأعلى، حيث تعيش الطيور، فوق رؤوس الناس، كان سطحٌ رصاصيٌّ آخر، حيث تدور الرياح وتتلاحق كالموج. تضيئه الشمس، وتعلوه سماء صافِيَةٌ زرقاء، تمامًا كسماء الصيف. الآن، بعد سنوات عديدة، ذهَبَت إلى الصحراء وشعرت بالفعل أن الباب مفتوح، يمكنها الهروب من المستنقع إلى خطِّ الاستواء عبر مساراتٍ لا تُعَدُّ ولا تُحصى. هي فقط لا تريد ذلك. تريد أن تشعر كما لو عادت طفلة مرَّةً أخرى، أن تكون في أعماق السحب. أن تكون مرتاحةً في أعماق قلبها. السيناريو

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

الـذي بدَأَتـه للتَّـوِّ يقبـع عـلى الطاولـة، لكـن في الوقـت الحـالي -بالنسـبة إليهـا- ربمـا كان عـلى سـطح القمـر.

ومـا الـذي تبحـث عنـه؟ هـل يمكنهـا أن تطلـب أيَّ شيء مـن الحيـاة أكـثر مـن امتيـاز أن تَثِـقَ في شـخصٍ واحـد فقـط، وفيـه وحـده؟

ومـاذا يمكـن أن تطلـب مـن الجميـع، مـن اللـه الواحـد الأحـد، ومـن الفضـاء الخارجـي والكـون، سـوى الرغبـة والحـد الأدنى مـن الأمـل في عـدم خيانـة أو إيـذاء شـخص آخـر؟ عـلى رَفٍّ، تجـد رسـائِلَ كتَبَتهـا إلى أخيهـا وهـي مُراهِقـة، فترسـل لـه رسـالة نصِّيَّـةً، غابـة كاملـة مـن علامـات التَّعجُّـب، فيجيـب بعلامـة اسـتفهام واحـدة.

اتَّضح أننا عِشنَا، تجيب.

هنـاك دليـل. يمكِنُـكَ لَمسُـه. دفـترٌ أسـود صغـير مـليءٌ بالكلـمات. إذا كان لديـك أسـبوعُ عطلـة واحـد، أو إجـازة غـير مدفوعـة، أو كنـت جـزءًا مـن تجربـة دراسـة سريريـة تقتـضي البقـاء في المنـزل، حيـث يمكنـك قضـاء بعـض الوقـت في خزانـة مُتربَـة، أو البحـث في قطـع مـن الـورق القديمـة المصبوغـة بالحـبر، أو التقليـب في صـور المـوتى التـي لا تـزال تحمـل مَعالِـمَ يمكـن تمييزهـا- يمكنـك لمسـه. يـا لـه مـن إحسـاس!

اتَّضح أننا عِشنا.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تَجَمُّع

أُمٌّ

تحاول الأمُّ أن تتذكَّر أين شاهَدَتها من قبل.

الوجوه التي تُطلُّ عليها من ذلك البريق الصارِخ.

عيــون كبــيرة. شــفاهٌ تقــول شــيئًا، تبتســم، تهــدِل، وتزجــر. وجــوهٌ تســحبها مــن العَتَمَــة المريحــة إلى النــور.

طريق.

لِلَحظَـةٍ، تـرى والِدَهـا. يشـير إلى أوراق الشـجر فوقهـم. وهـي طفلـةٌ في عَرَبَتِهـا، طفلـة تمتـصُّ كُلَّ تفصيلـة. تـرى الأوراق وتصـير واحـدة منهـم، وتُغـرق نفسـها فيهـم وفي حركتهـم الحريريـة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

الوجوه في هذه المساحة الضيقة كأوراق الشجر. تصنع مظلَّةً علوية عالية، مليئة بخَشخَشَةِ الرياح المُزعِجة. تنظر تلك الوجوه لوجهها وهي راقدة، كدودةٍ جافَّةٍ محشورة بين الوسادة الطويلة والجدار. زوج من الأيدي يفتح الستائر، تمتلئ النافذة بالضوء.

"صباح الخير! حان وقت الاستيقاظ"- يقول صوتٌ مُشرِق.

يميل الوجهُ ويقترب جدًّا. إنه وجه امرأة.

تفتح الأم عينًا. على العين الأخرى تكوَّنَت قِشرَةٌ من الرَّمص. تنظر إلى الوجوه، ويتمتم فمها الخالي من الأسنان بعض المقاطع مُحيِّيًا. تخاف الأمُّ النهارَ، تخاف روتين النهار. سوف تُدحرج وتُلتقط وتُحرَّك وتُحَمِّم، يؤلمها هذا كله ويُشعرها بعدم الارتياح. تريد الأم أن تخبرهم أنها لم تَعُد تفهم لِمَ يتعيَّن عليها النهوض؟ إنها مُتعَبَة، لكنهم لا يتركونها وشأنها.

"والأسوأُ هو أنها بطريقة ما تُدخل يدها اليسرى، وتمسك الحفَّاض وتُمزِّقه، وتُلطِّخ كل شيء بالخراء. لقد فقَدَت عقلها. يتعيَّن عليَّ أن أُغيِّر فِراش السرير كلَّه مرَّتَيْن يوميًا".

تغلق الأمُّ العينَ الواحدة، وتتظاهر بأن الكلام ليس عنها. لعدَّة سنوات، اكتست عينها السليمة بطبقة رقيقة. ضبابٌ يحوم بسرعةٍ، به بُقَعٌ سوداء صغيرة.

"عليكَ أن تجدي حلًّا. يُمكِنُكَ أن تربطي قميصًا على صدرها مَثَلًا"- يقول صوت ثانٍ، منخفضٌ، تشوبه القتامة.

تُحبُّ الأم هذا الصوتَ أكثر.

"لا تُدخلها من أعلى، بل من أسفل، من عند فخذها، وفي الصباح، يكون الفراش مغمورًا بالكامل. إنها تتبوَّل كثيرًا، كثيرًا جدًّا. إذا كان هناك خراء أيضًا فلا يمكنني حتى المجيء إلى هنا دون أن أصاب

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

بالغثيان. لن تُصدِّقي الرائحة"- يتذمَّر الصَّوتُ الأول، أبيضَ ومُشرِقًا كشعاع من الضوء.

لا يُمكِنُكَ الاختباء من هذا الصوت؛ لذلك تُغلِقُ الأُمُّ عينَها بشكلٍ أكثر إحكامًا.

"ربَّما شيء كملابس الأطفال، قطعة واحدة مُغلَقَة بأزرار على الجانِبَيْن".

"لن ينفع. منذ أن بدَأَت العلاج الأخير فقَدَت عقلَها تمامًا. انظُرْي كم هي صغيرة، لكنها ثقيلة، ثقيلة كصخرةٍ. ثقيلة كجُثَّة، أثقل عَشرَ مرَّاتٍ منِّي. أجعلها تقف كي لا تَضمُرَ ساقاها تمامًا. بضع دقائق في اليوم. عندما أعود من العمل أجعلها تجلس. لن تُصدِّقي مدى صعوبة ذلك. لقد أُصِبتُ بالتواءٍ في ظَهري. وهو يؤلمني. لا... لا... لا... لا ملابس أطفال، لا سراويل؛ إنها لا تستطيع حتى رَفْعَ ساقَيْها. يعني هذا فقط المزيد من الملابس التي سيتعيَّن عليَّ غسلها. لا... لا... لا. خطرت لي فكرة بالأمس: سأثبِّت الحَفَّاضَ بشريط لحام أو شريطٍ لاصِقٍ عريض. ما رأيُكَ؟".

"لا يمكِنُكِ فِعلُ ذلك يا ماما. سوف يلتهب جلدها".

"أتعتقدين ذلك؟ حسنًا، لا أدري".

تتظاهر الأمُّ بأنها ماتت. تتظاهر بأن هذا الحوار الغبيَّ ليس عنها. الناس يتحدَّثون فقط بهذا الشكل عن الأطفال الذين يسيئون التَّصرُّف. لكنها ليست طِفلَةً سيِّئَة. لم تكن أبدًا. لا... لا... لا.

يختفي الصَّوتُ المشرق ويُغلَق الباب.

ينزلق شيء دافئ أسفل رقبتها، تشعر بالدفء. تشعر الأم بأنفاس ناعمة شابَّة على خَدِّها، وتفتح عينها السليمة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"اشربي بعض القهوة، نانا"، يقول الصوت القاتم "بينما باستطاعتك ذلك. إني هنا كي تشربي قهوتك قبل أن تستحِمِّي".

يظهر كوب أبيض في المشهد، يقترب. تمسك اليَدُ مُؤخِّرَةَ عُنُقِها بإحكامٍ وترفع رأسها. يلتصق فم الأم الخالي من الأسنان وشفتاها الشاحبتان المرتخيتان بطرف الكوب. يمتلئ فمها بشيء أبيض دافئ حلو. يتدفَّق فوق لسانها الذي جفَّ أثناء الليل، ويُخَرخِرُ داخل رأسها. شراب من الجَنَّة. تريد الأمُّ المزيدَ، وبلهفةٍ، تراقب الكوب وهو يبتعد عن شفتيها.

"ترين؟! انها جيِّدة. تريدين المزيد؟".

تعطي الأمُّ إيماءةً حادَّةً بذقنها المُدبَّب، كما لو كانت تخشى أن يبقى الكوب بعيدًا عنها، ولكنه يعود. هذه المرَّة لا تُفلِتُ الشِّفاهُ المرتخية الكوبَ الأبيض. تبلع الأم رشفتَيْن وتغوص عائِدَةً للوسادة. تحاول أن ترسم ابتسامة على وجهها، ولكنها لا تستطيع. يغيِّم المجهود رؤيتَها أكثرَ.

الأم تتحدَّث:

"حبيبتي".

"نعم يا نانا؟ ماذا تريدين؟".

تريد الأم أن تخبرها، لكن لا كلمات.

باحة تقتسمها الشمس المُشرِقَةُ مع ظلٍّ يلقيه السطح، الحصى وحزم العشب. وهي في تلك الباحة، قِطٌّ يربض قريبًا من الأرض، على حافَّة الظِّلِّ.

يقفز القطُّ إلى سِربٍ من الطيور يتشمَّس في الرِّمال الساخنة.

تتفرَّق الطيور، ويتفتَّت المشهد.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

إنها لا تستدعي تلك المشاهد عامِدةً. إنها تأتي وتذهب وحسب. رائحة الطحلب الرطبة، رياح الربيع الباردة على وجهها، انكسار الطبقة الأخيرة من الثلج تحت قدميها، وحذاؤها يخطو فيبعثر الوحل.

ترى فسحة في الغابة، وتلتقط أنفها رائِحَةَ الصَّمغ.

ترى عوارض سِكَكٍ حديدية، عن قُرب، عوارض خشبية فاحمة السواد، وقضبان حديدية يغطِّيها الصدأ الأحمر، وزهور صفراء صغيرة نابضة بالحياة.

ترى طفلًا حديث الولادة، تغطيه السوائل الزَّلِقة، يضعونه بين ذراعَيْها.

بوسعها رؤية كل شيء، باستثناء فرصة أخرى لاختبار كل هذا مجدَّدًا.

تفكِّر في الموضوع كثيراً.

ولكن الآن، لا تريد الأمُّ المزيدَ من المشاهد. تريد ما هو بجانبها تمامًا. الصوت الدافئ البريء القاتم.

تتكلَّم الأمُّ:

"حبيبتي".

"ماذا يا نانا؟ هل تريدين المزيدَ من القهوة؟".

تشيح الأُمُّ بذقنها ببطء.

"ماذا إذا؟".

فقط لو تستطيع أن تتكلم.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تريد الأُمُّ الحرارةَ.

النوع الذي لا يمكن شراؤه بالمال.

تريد الأمُّ شخصًا يستلقي إلى جوارها. إلى جوارها تمامًا، ضاغطًا جسدها بجسده.

كما اعتادت أُمُّها النَّوم بجوارها.

كما اعتادت جَدَّتُها أن تفعل في ليالي الشتاء.

كما اعتاد زوجها أن يفعل، فور أن تجاوَزَت سنوات مراهقتها الباردة البعيدة، فور أن كبرت كفاية لتنام بجوار رَجُلٍ. أن تعود ليالٍ اجتمع فيها دفئاهما المنفصلان، ليصيرا دفئًا واحدًا.

كما اعتاد أطفالها أنفسهم أن يصعدوا إلى السرير للنوم بجوارها.

ألم تكن تلك الموجودة هنا -صاحبة الصوت القاتم- ألم تَكُن حفيدتها؟

بيتٌ ريفيٌّ في قيظ يوليو. النافذة مفتوحة، ولا عُودٌ واحِدٌ من العشب يميل في تلك الحرارة الخانقة. تصيبها الحرارة بالإنهاك فتستلقي على الأريكة الكبيرة في المطبخ. يسمُّونها "القيثارة". وهي مُغطَّاة بغطاء قُطنيٍّ مُخطَّط باهت اللون، تنبعث منه رائحة الغبار. تنادي حفيدتها:

"حبيبتي! تعالي واستلقي!".

كشعلة صغيرة، تتكوَّر حفيدتها خلف ظهرها الواسع. تتقلَّب الشعلة يمينًا ويسارًا إلى أن يغلبها النوم. يطير الذباب حول خشب عمود الستارة البُنِّيِّ. الحياة شاسعة بشكل لا يُصدَّق.

تريد الأم أن تقول لحفيدتها: حبيبتي، تعالي واستلقي!

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تريـد الأم أن تقـول ليذهـب الاسـتحمام إلى الجيحـم، ليذهـب كل التَّبـوُّل والتَّغـوُّط والأكل إلى الجحيـم، مـاذا يعنـي كل ذلـك؟ الـبرودة. الـبرودة تتـسرَّب إليهـا مـن كل جانـب. اسـتلقي بجانبـي، حبيبتـي؛ كي أشـعر بدِفْئِـكِ. خُـذي جسـدي المُتجمِّـد بـين ذراعَيْـكِ. ولنحـدِّقْ في تلـك النافـذة البعيـدة... البعيـدة... لسـاعة أو اثنتـين.

عيشي لحظةً في حياتي، وستشعري أن عامًا قد مضى.

لننظر لأيادينا في الضوء. يمكنك أن تقرئي الكثير فيهما.

حبيبتي، هل لديكِ القليل من الوقت لتقضيه معي؟

ليلة واحدة فقط أقضيها في حرارة عناقك.

"حبيبتـي"، تحـاول الأم أن تقولهـا فـلا يخـرج منهـا سـوى تنهيـدة. كلـمات كثـيرة في جملـة واحـدة، لِنَقـلِ فكـرة واحـدة فقـط. لم تعـد الأم تسـتطيع لَضمَهـا معًـا.

أرجـوك، لا تحرمينـي الـدفء- تَـودُّ لـو قالـت. فهـذا أسـوأ مـا قـد يحرمـه الإنسـان إنسـانًا آخـر.

حبيبتـي، تريـد الأم أن تقـول، وجهُـكِ جميـل كمظلَّـةٍ مـن أوراق الأشـجار. ممتلـئ، ناعـم، وحـيٌّ. هـذا شيء جيـد، تريـد الأم أن تقـول. مـن المهـم للمـرأة أن تكـون جذَّابَـةً.

"نانـا"، تناديهـا حفيدتهـا فجـأة وهـي عـلى مقربـة منهـا. "نانـا، هـل تذكريـن حـين قُلـتِ لي إن الشـخص يصبـح جميـلًا فقـط حـين يفهـم نفسـه؟ نانـا، الآن أنـت جميلـة جـدًّا. نعـم، أنـتِ كذلـك، لا تَهُـزِّي رأسَـكِ، أنـتِ جميلـة. أنـت جميلـة!".

يعود الصَّوت المشرق فوقهم:

"كنـتُ قـد ذَهبـتُ إلى الصليـب الأحمـر وحصلـتُ عـلى أحـد كـراسي المرحـاض الرخيصـة. انظـري، هـذا الـشيء الأبيـض. إنهـم يؤجِّرونهـا، لقـد

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

دَفَعتُ إيجار شهر واحد فقط؛ لأنه لا داعي أن ندفع إيجار نصف عام. قال الرجل ذلك- إذا كانوا يحتضرون فلا داعي لذلك. سيموتون".

وبينما تلك الكلمات تقال، كانت منشفة مبلَّلة تمسح وجه الأم جيئة وذهابًا. تشيح الأم، وتغلق عينيها بقوة، السليمة والمغطاة بالقشور، لكن لا مهرب من المنشفة. مبتلَّة، وخَشِنة.

"يا ماما، لا تقولي ذلك أمامها".

"إنها لا تسمع جيِّدًا، وماذا يهمُّ على أي حال؟ هذه هي الحياة. يوم أعدناها من المستشفى إلى المنزل، ماتت مريضةٌ أخرى في جناحها. كانت عجوزًا ضئيلة الحجم، تسبُّ الجميع، وتشكو، لم تكن راضيَةً. في ذلك اليوم، يفترض أنهم ضَخُّوا الكثير من السوائل فيها، كما تعلمين، ثمانية من هذه الأكياس الكبيرة. حسنًا، وماتت على أي حال. لم تُعانِ طويلًا، ربما عشر دقائق. وكانت ابنتها قد وصلت للتَّوِّ ووقفت بجانب السرير. اندفع الأطباء إلى الغرفة وأرادوا إنعاشها، حتى إنهم أحضروا النقَّالات، لكن لم يبق ما يمكن إنعاشه. فتحوا النافذة، لكي تغادر الروح، ثم قاموا بإخلاء الحجرة، السرير وكلَّ شيء. هكذا انتهى الأمر... في ذلك الصباح، قُلتُ لعاملات الجناح انظُرنَ كيف تضمُّ يديها معقودتين فوق صدرها؟ سترحل قريبًا! وقد فعَلَت".

تنغرس يدان قويَّتان تحت إبطي الأم وتُجلِسانها.

"آه" تبكي الأم، "يُؤلِم!".

"ليس هناك ما يؤلم، أيَّتها الخرقاء. لقد استأجرت كرسيَّ المرحاض بلا فائدة. لم تَعُد تفهم شيئًا. أجلستها عليه وأبقيتها هناك لمدة ساعة. لا شيء. لا بول ولا خراء. لا تفهم الأمر. فقط تجلس وتغفو. يا للهدر! إنها كسولٌ، تفعل ما تفعله في الحفَّاض. وفي الليل تخدش الجدران، وتتململ. ذات ليلة، كانت الساعة الثالثة تقريبًا، سمعت دويًّا عاليًا. تساءَلتُ عمَّا يمكن أن يكون؛ جِئتُ لأجد أنها سقطت من السرير.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

على وجهها تمامًا. وبعد أن حملتها أخيرًا إلى سريرها لم أستطع النوم حتى الصباح. ذهبتُ للعمل بلا أي تركيز. الآن أضع كرسي المرحاض بجانب السرير كي لا تسقط. على الأقل وجدنا له فائدة. إنه ثقيل، انظري؟ مصنوعٌ من المعدن. كما لو كان قضبانًا حديدية".

تبتسم الأُمُّ الدَّرداءُ من خلف القضبان. لا تبتسم لشيء بعينه، ذاب شيءٌ ما، حلو، وأبيض، خارج تلك النافذة البعيدة. لكن اللحظة الراهنة لم تسمح لها بالاستمتاع بهذا المنظر. تضغط بكفِّها على القضبان، محاوِلةً رفع نفسها. انهار جسدها؛ فهو لا يريد أن يتحرَّك. تعقَّدَت عضلات فخذيها ورفضت ساقاها الوقوف. الأمر صعب عليها؛ لا تفهم لِمَ يجب عليها الوقوف إذا كان جسدها لا يريد ذلك. لكنها تحامَلَت بيديها على القضبان وتمدَّدَت كقطعة جلد على إطار، بينما يُرفع طرف قميص نومها لأعلى في ضوء الصباح. إنهم يغسلون ظهرها. تتحمَّل ذلك. ينبض صدغها ويخفق. تندفع الدماء عبر جسدها العظمي، وتتجمَّع في قدميها، وهي الآن ككأس من النبيذ الفاسد، تتأرجح عاليًا بين الخواء وضوء النهار.

"من الجيِّد أن أعطاني باڤيلس هذه القفَّازاتِ المطَّاطِيَّة الصفراء. إنها جيدة حقًّا، انظري؟ فيما سبق، كانت رائحة يديَّ تصبح سيئة للغاية، حتى إنني لم أكن أقدر على الذهاب إلى العمل، تتسلَّل رائحة البول والخراء تحت أظافِرِك، وتمسك ببشرتك مهما حاوَلت فَرْكَ يَدَيْك وغسلها. الوضع صحِّيٌّ أكثر مع القُفَّازات. إنها تعمل! أرتدي قُبَّعَةً قبل المجيء إلى هنا أيضًا. يتشبَّع شَعرُك بالرائحة في ثانية. لا يمكنني التَّحدُّث إلى أي شخص في العمل حول أيٍّ من هذا. لم أحلم أبدًا أن الوضع سيكون كذلك. كانت قويَّةً كحصان طوال حياتها، عَمِلَت بجدٍّ كحصانٍ، وكانت معتدَّةً بذاتها كحصان. لم تَدَعَ أيَّ شخص أو أي شيء يقف أمامها. وانظُرْي إليها الآن! كم من الوقت ستظلُّ كذلك؟ ربما

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

عـام. قـال الأطبـاء إن قَلبَهـا كقلـب حصـان. قـوي. لقـد ذهـب عقلهـا، إنهـا لا تفكِّـر أو تشـعر بـأي شيء، لكـن شـهيَّتها مازالـت مفتوحـة".

تسـمع الأم هـذه الشـكوك في قُدرَتِهـا العقليـة وتبتسـم سـاخرة، وتصـكُّ درادِرَهـا التـي جفَّـت مـرَّةً أخـرى كالصحـراء. ولكنهـا تجفـل سريعًـا حـين تحفـر منشـفةً خشِـنَةً في الجلـد خلـف رُكبَتَيْهـا.

"ماما، مـا تفعلينـه يُحـتَرَم، أنـتِ عظيمـة. تذهلينـي. ستشـعرين بالرضـا حيـال كل هـذا لاحقًـا، صحيـح؟".

" سأشـعر بالرِّضـا حيـال ذلـك؟ أنـا لا أعـرف حتـى كيـف أردُّ عـلى تهليلاتـك الصغـيرة تلـك".

"تهليلات؟ ماما!".

"لا أعلـم. لم أَعُـد أعلـم أي شيء عـن أي شـئ. أحـاول ألَّا أفكِّـر عـلى الإطـلاق".

يضعـوا حفَّاضًـا جديـدًا لـلأم، ويعيدونهـا إلى جسـلتها عـلى السريـر، مـع كومـة مـن الوسـائد خلـف ظهرهـا. يُـدَسُّ منديـل أسـفل ذقنهـا. وتوضـع ملعقـةٌ بهـا شيء أحمـر في فمهـا. تفتحـه كـما لـو كان منقـارًا ميكانيكيًّـا، وتبتلـع.

"كُلي بعض الفاكهة يا أمِّي!".

"يجب أن تقطعيها؛ فهي ليس لديها أسنان".

تومئ الأم وتبتلع قطعة فاكهة كاملة.

"يمكنها هرسها بدَرادِرِها".

"ربمـا مـن الأفضـل لـو وُضِعَـت في دار رعايـة. أنـت تصرخـين فيهـا. ذات مـرَّةٍ حـين اتَّصلَـت بـكِ كُنـتِ تبكـين. تشربـين وتبكـين أحيانًـا".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"أنـا لا أصرخ فيهـا وحسـبُ يـا عزيـزتي، بـل أضربهـا أيضًـا- بالمنشـفة. إنهـا وَقِحَـةٌ جـدًّا. ونعـم، أنـا أصرخ. إنهـا تتغـوَّط في جميـع أنحـاء السريـر وتتبـوَّل في كل الأوقـات. لكـن شـهيَّتها لا زالـت مفتوحـة. أقِـفُ بجانبهـا وأشـاهد حيـاتي تنهـار- أو مـا تبقَّـى منهـا. أحيانًـا تبـدو السـاعة معهـا كعـامٍ كامـل. أشرب دواءَهـا. يحـدث هـذا كثـيرًا. إنهـا الطبيعـة البشريـة! لا تَهُـزِّي رأسَـكِ، تلـك هـي الحيـاة. أنـتِ لا تُصدِّقيننـي، ولا بـأس في هـذا؛ لأنَّـكِ لا تعرفـين شـيئًا عـن الحيـاة بَعـدُ. فكِّـري كـما شِـئتِ، ولكنِّـي لـن أضعهـا في دار رعايـة. إنهـا أمـي".

"إشراف التمريـض، الطعـام الجيـد، لقـد كانـت مُعتـدَّة بذاتهـا طـوال حياتهـا، تذكريـن يـا ماما؟ قـد يكـون مـن الأفضـل لكلتيكـما لـو لم تصرخـي وتضربينهـا بالمنشـفة. لـو لم تبـكي وتـشربي دواءهـا".

"لِـمَ قـد يتكبَّـد المـرء عنـاء إنجـاب أطفـال إذا كانـوا في نهايـة المطـاف سـيضعونه في دار رعايـة؟".

"على الأقل فَكِّري بالأمر".

"تحاولـون جميعًـا أن تدفعـوني لفكـرة دار الرعايـة تلـك، كفـى، لا أحتـاج نصيحَتَـكِ!".

تومـئ الأمُّ وتفتـح فمهـا لتقـول شـيئًا، ولكنـه يمتلـئ بملعقـة مـن معجـون الشـيكولاتة عوضًـا عـن ذلـك. لم يَكُـن ذلـك ضروريًّـا. تكـره الأم الشـوكولاتة. كانـت تقـاوم وتَهـزُّ رأسـها. لكـنَّ درادرهـا تهـرس الشـيكولاتة، فتـذوب وتهبـط إلى معدتهـا.

تقول الأم:

"البيضاء".

"ماما، إنها تريد الجبن القريش".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"سمعت، سمعت. كل شيء تحت السيطرة، سأنجح في ذلك، أتسمعينني؟ إنها أُمِّي. حسنًا، دعنا نمنحها قسطًا من الراحة. من المُقرَّر أن تُجري الأشعة السينية يوم الثلاثاء. هل يمكنك أن تأتي لمساعدتي؟ لنضعها في الكرسي المتحرِّك ونوصلها إلى العيادة".

صمت.

تبتسم الأم.

"لا يمكنني فعل ذلك بنفسي. إنها ثقيلة للغاية. كل عضلة في جسدي ملتوية بالفعل. الألم هنا، على الجانب الأيسر. من أضلُعي إلى فخذي، كما لو كنت أقطع بسكين".

"هل تبكين؟".

"كلَّا. إنه سائل ما يتساقط من عينيَّ من تلقاء نفسه. الأمر وما فيه أن كل شيء يؤلِم. لم أكن أعتقد أن الأمور ستكون هكذا. لم أجرب أي شيء مشابه من قبل. تعلمين؟ هي لا تريد أي شيء سوى الشَّفقَة. ولكن لا يمكنني أن أشفق عليها بسبب كل الخراء والألم. لم أعُد أرى أي شيء عدا ذلك، وأنا خائفة للغاية. لا يوجد ما يمكن فعله حيال ذلك. ليشفق الله بها. تلك وظيفته. أنا فقط أغسل أغطية السرير، وأنزعج، وأبكي. تناولي طعامَكِ بسرعة يا أمي، يجب أن أذهب إلى العمل!".

"ماذا تفعل بمفردها طوال اليوم؟".

"تنام. وماذا غير ذلك؟".

تبتسم الأم. ماذا تفعل بمفردها طوال اليوم؟ الوقت ابن قحبة حقًّا- تفكِّر.

يتظاهر الوقت دومًا بأنه شيء آخر. بعض الأحيان يتظاهر بأنه شخص. يتظاهر الوقت بأنه تجاعيدُ الناس وندوبُهم وأجزاؤهم

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

المترهِّلة. بعض الأحيان يكون طُرُقًا بعيدة لا يمكن الوصول إليها. يتظاهر الوقت بأنه طريق يفضي إلى البحر، فوق التلال ووراء الأماكن الخفيَّة وتدابير القدر القديمة الغامضة التي لا يمكن فَهمُها مطلقًا، أو فوق الأسطح أو المداخن أو القِلاع أو الأكواخ، وحقول أزهار قمح البقر وأذن الفأر، وتحت أشجار الزان الفضية الناعمة في القصور. بعض الأحيان يتظاهر أنه البحر نفسه. والسماء. بعض الأحيان يتظاهر بأنه شواهِدُ القبور، الأطفال، كبار السِّنِّ. يدَّعي أنه عروقُكَ، أسنانك، أو عيناك. في عيني الأم، هذه الأيام، عادةً ما يدَّعي أنه الجدار المقابل لسريرها. نافِذَةٌ هو الوقت. ليل ونهار. نور وظلام. الوقت صور مصفرَّة بالأبيض والأسود، وأشكال تتفكَّك أمام بصرها المنحسر. (ما يُخفيه الوقت عن الأم هو أن تلك الأشكال هي وجهها على مَرِّ السنين، أطفالها، وزوجها). الوقت هو ساعة تعطَّلَت. في بعض الأحيان تكون أصابع الأم هي الوقت، ترفعهم في الضوء وتتفحَّصهم لساعاتٍ كطفلة.

"أرَدتُ أن أسألَكِ شيئًا ما".

"ماذا يا ماما".

"أتمنَّى ألَّا تصل الأمور لذلك، لكن... لو انتهى الأمر مثلها، أطلقي عليَّ الرصاص، أو تخلَّصي مني بطريقةٍ أخرى. سوف أكتب رسالةً بهذا الكلام، وسأُبقيها في حقيبتي مع هويَّتي".

"ماما! لا تتحدَّثي هكذا أمامها!".

"انظري، ها أنتِ تفكِّرين فيها مُجدَّدًا. أنا لستُ عمياء أو صمَّاء، لا أمانع هذا النوع من الحديث من حولي".

"توقَّفي!، فقط كُفِّي عن جَعلِ كل شيء يدور حولك ولو لفترة قصيرة".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"لم أفعل في حياتي سوى أن وضعت نفسي في المرتبة الثانية. لا أعلم لِمَ لم تهتم هي أبدًا بفعل الشيء ذاته".

لا كلمات أخرى. تصمتان وتتعانقان ثم تقفان بجوار سرير الأم. يسقط ظلٌّ على وجهها. تمدُّ الأم ذقنها، هكذا يجب أن تكون الأمور.

الدفء! هي أيضًا تتوق لتلك الحرارة. أوشكت أن تصبح باردةً تمامًا. سيسحقها المدُّ العالي مساء الغد.

يمسح منديلٌ بقايا الشوكولاته من زوايا فم الأم. والأصوات فوقها تواصل الحديث.

تتذكَّر الأم أخيرًا! تتذكَّر. كانت هناك أصوات نسائية آنذاك أيضًا!

كثوب قُصَّ من العدم بمقصٍّ سحري، ككركيٍّ ورقيٍّ من نور -تقترب من الذِّكرى- أنف المُهرِ الدافئة تداعبها، أنفاسه الساخنة، عليها أن تضع اللِّجام على ظهره!

تميل الأمُّ نحو الذكرى متحاشِيَةً الملعقة المقتحمة، وفمها الأدرد يبتلع الجُبنَ القريش بين الحين والآخر. تمزِّق أصابعها النحيلة طرف الملاءة على حِجرِها، وتتذكَّر...

الأصوات تأتي من المطبخ. لا زالت نصف طفلة، ولكنها في الوقت نفسه نصف امرأة. على هذا الحَدِّ الذي يربط فيه الزمن العُقَد الوردية الأولى على أطراف صدر الفتاة. إنها في منزل والدتها في الريف. هناك احتفالٌ غدًا. طقس الربيع حارٌّ، وأزهار الكرز والتوت والزنبق تتفتَّح. باب المطبخ مفتوح، وهناك وقفت كل امرأة في البلدة الساحلية تقريبًا: تخبز وتطهو وتقطِّع اللحم وتفرم البصل. يفرش العشب النديُّ الكثيفُ أرضَ الحديقة كوحش أخضر مُشعِر، وتنسكب أغصان التفَّاح المورقة من النافذة المفتوحة. كانت صرخات الحيوانات التي ذُبِحَت لإعداد الوليمة قد توقَّفَت، وألقيت جلودها المسلوخة

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

كيفما اتفق بجوار الحظيرة، فالدَّبَّاغ مخمورٌ بالجعَّة، وغارق في النوم بجوار بيت الكلب. يداعب الأولادُ شارِبَه بأحد أعواد الغاب، فيبتسم في نومه. يفوح كل شيء بالعَرَق والموسيقى. تقرقر القطط المخطَّطة وتدور حول أعمدة الشرفة.

يتصاعد البخار من القدور على الموقد، فتقعقع الأغطية المعدنية كالأجراس. ينطلق الأطفال الضاحكين بين الكبار وكلاب الحيِّ، ويسرقون شرائح لحم الخنزير المدخَّن المُعَدِّ للفائف الغد، فتزجرهم النساء ثم يمسحن جباههن المتعرِّقة وأعناقهن المتورِّدة بمناديل اليد البيضاء.

يمرُّون حول زجاجة من خمر عنب الثور، الذي يمكنك أن تحتسي القليل منه فقط في المرَّة الواحدة؛ لأنه قويٌّ جدًّا، مُقدَّس جدًّا، وشيطاني جدًّا!

ينفخ العم يانيس بوقًا على سطح السقيفة، أغنية "يحتاج البحر شَبَكَةً دقيقةَ الغَزْل"- لا يعرف أنه في غضون أيام قليلة سيأخذه البحر بدلًا من الشبكة، وحينها ستطبخ النساءُ في جِنازَتِه.

يعزف العم يانيس بوقه، ثم يدخل، ويجلس في نهاية الطاولة، ويدردش مع النساء، ويتمكَّن من الحصول على رشفات قليلة من الخمر، تضربه النساء بمناديلهن البيضاء، ويتورَّدن خجلًا حين يقرص فخذ إحداهن. صوته نقيٌّ، كنار حامية غير مُفَلتَرَة، قويٌّ كخمر عنب الثور. يلمح الأطفالُ البوقَ الموجود على زاوية الطاولة، يلكزون بريقه الأصفر النحاسي، ويتنفَّسون رائحته المعدنيَّة.

تتَّجِه الأم للخارج. يصعب عليها الاحتفاظُ بتماسُكِها أمام تلك الحياة الجريئة الهادرة التي تُمزِّق الهواء وتصفق جسدها كموجة تتحطَّم على حاجز. لأول مرة في حياتها، تشعر في وقتٍ واحد بألَمٍ عميق وفَرَح. السعادة الشديدة في المطبخ، واللا مبالاة في امتداد السماء فوق البحر وباقات الزهور البيضاء العَطِرَة في الشفق.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يصعب عليها أن تظل بالخارج لفترة طويلة، تُمزِّق الرياح الباردة الوحيدة قلبها. إنها تريد العودة إلى الداخل، بقرب النار. بالأحرى، تريد كل هذا معًا، أن تصبَّ هذين العالمين في كوب واحد وتشربه. لترى: أهما حقًا مثل الزيت والماء، لا يختلطان أبدًا؟ أن تحمل البرد إلى الداخل، أو تحمل الحرارة إلى الخارج. وسرعان ما ينصهر العالَمان في عالم واحِدٍ؛ لأن شيئًا ما يحدث في تلك الليلة، شيء سِرِّيٌّ. كأن يتم تجنيدها . لأنه في طريقها إلى الداخل تكاد تصطدم بامرأة. هناك، في القاعة الأمامية، جارتهم "مايا". تحمل مايا بيدها اليمنى حزمة من البصل تضمُّها لصدرها، أمَّا يدها اليسرى فقد تكوَّرَت في فمها، أسنانها البيضاء تَعضُّ إبهامها. من الجانب الآخر لباب المطبخ تستمع إلى ما يقوله يانيس للنساء الأُخرَيات. قال الكبار أكثر من مرَّة إن مايا مهووسة بيانيس.

تحدِّق مايا فيها بعينين داكنتين، ظلٌّ ساكنٌ حادُّ الزوايا لمراهِقَةٍ في المدخل، أمام الأفق الأزرق المخضرِّ فوق البحر. التَّنصُّت أمر سيِّئ، كلتاهما تعرف ذلك. لكن المرأة على باب المطبخ تحترق كالنار، رغم أن هيكلها ضئيل وشَعرها ناعِمٌ وطويل. يمكن سماع الأصوات من المطبخ.

تقول مايا: "يا صغيرة"، وترفع إصبعها لشفتيها. عيناها تلمعان كعيني قِطٍّ.

"لا، لا!" تصيح الطفلة وقد أحرقتها هذه الحماسة.

ثم يُفتح الباب ويخرج شخصٌ ما. تسمح لها مايا بدخول المطبخ قبلها، إلى غمرة البخار والحياة. تُقطِّعان البصل، وتضحكان وتبكيان، ولا تأتيان على ذكر ما حدث مرة أخرى أبدًا. كل ما تفعله هو أن تسترق نظرة على مايا بين الحين والآخر، مايا امرأة. هي أيضًا امرأة

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

الآن. وعـاء مـن النـار. لهـب صغـير متوهِّـج، حتـى يـأتي النجـم- النجـم جالـب المطـر.

تتكلَّم الأم:

"حبيبتي".

صمت.

تفتـح عينهـا السـليمة. فيرحِّـب بها المُربَّـع الأبيـض في النافـذة، والضباب الأسـود الـذي تضعـه عينهـا المعطوبـة عـلى بصرهـا. كل مـا تبقـى في الغرفة الفارغـة هـو حلـم أسـمته حياتهـا. يمكـن سـماع أصـوات مـن المطبخ.

الابنـة

في ظُلمَـة منتصـف الليـل، تشـعل لوتسـيا المصبـاح وتنظـر لـترى مـا إذا كانـت أمُّهـا مـا زالـت تتنفَّـس. إنهـا واهنـة جـدًّا. لوتسـيا الآن أم أمهـا.

الأم طفله ابنتها الصغيرة.

يُفتح فم أمها قليلًا، بينما عيناها مغلقتان.

يلمـع كل الشـهود عـلى هـذا الهـول أمامهـا مـن عـلى الطاولـة: حفَّاضـات، أكـواب أطفـال، قـدوح، مناديـل مُبلَّلَـة، كريمـات للطفـح الجلـدي والقـروح، أشـياء لطفـل. طفـل حديـث الـولادة. فقـط تحـدث تلـك الـولادة بالعكـس، مـن النـور إلى الظـلام.

ثم تسكن الطفلة تمامًا.

تنظـر الابنـة إلى الأم. لقـد ضحَّـت بـكل شيء لتُبقيهـا عـلى قيـد الحيـاة، ولكـن طـوال المـدة التـي أمضتاهـا معًـا، لم تفعـلا سـوى الجـدال.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تنظـر الابنـة إلى الأم. تضـع يـدًا عليهـا. رأسـها لا يـزال دافئًـا. ذراعهـا لا يـزال دافئًـا. آخـر قـدر مـن الحـرارة.

الرحيل صعب جدًّا، ومطوَّل.

وكيف جمعتهما تلك الفترة المضنية ببعضهما أخيراً.

كلُّهم

تُقاتِـل روح نانـا بـكل قوَّتهـا لتخـرج، ترفـرف في رأسـها. يعـبُّ فمهـا للهـواء. يتنـاوب أقاربهـا عـلى تبليـل شـفتيها بالمـاء.

عندمـا يوشـك نورهـا عـلى الانطفـاء، يقفـز باڤيلـس عـلى قدميـه، وينتحـب ويجـذب جدَّتـه مـن كتفيهـا.

يبكي:

"لا تنامي! استيقظِي".

تستيقظ نانا وتسأل:

"لِمَ فَعَلتَ هذا؟ لقد أتوا جميعًا لتحيَّتي".

تموت نانا في اليوم التالي، حين يخرج جميع أقاربها للحظة واحدة.

ولكن كم بَدَت جميلة.

الحفيدة

تربـض إيڤـا في منتصـف الحقـل وتشـاهد جذعـي شـجرتين ضخمتـين يحترقـان بـين كومـة الفـروع. تشـتدُّ الريـاح ويتطايـر الـشَّرَر في الهـواء. أغـراض نانـا في الحريـق.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

ليست يوميات أو رسائل أو ملاحظات، مجرد أشياء. أشياء من أشهرها الأخيرة. تذوب أكياس القمامة البلاستيكية السوداء، تنفتح مثل الجلد المتقرِّح، وتتساقط في النار. يلعق اللَّهبُ الأحذيةَ المُغبرَّة والأكمام الملتوية، وأغطية الوسائد المصنوعة من الدانتيل.

يتحطَّم قدح منفجرًا، تذوب الزجاجات البلاستيكية وتتحوَّل لِبرَك.

تشاهد إيڤا كما لو قُدَّت من حجر. تذيبها النار وتصبُّها في قالب مختلف .

لن يبقى شيءٌ حين تخمد النيران. الذكريات فقط.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

دِينُ أندريس

دِينُ أندريس

بالخارج، تمطر السماء وتعصف الرياح بشكل لا يُصدَّق.

تتحرَّك المرأة في المطبخ وتبدأ في تتبيل اللحم.

يجلس أندريس في ركن الطاولة.

"إلامَ تنظر؟" سألت.

لا يمكنك معرفة أي شيء حقًّا هذه الأيام. إنه لقاؤهما الثاني فحسب، وهو هادئ نوعًا ما. ولكنْ عيناه كشفرتين حادَّتَيْن، قاطِعَتَيْن. يمكنها بسهولة أن تستخدمها في تقطيع الشواء.

"إلام أنظر؟ أنظر وحسب".

"الجميع ينظرون لأسباب مختلفة".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"أنا لست كالجميع. أنا أندريس".

- "مرِّرْ سكِّين الفيليه".

"أيُّها؟".

"ذات الحبل المُضفَّر".

يناولها أندريس السكين، تقطع اللحم. السماء تمطر بالخارج. لا يمكنك معرفة أي شيء حقًّا هذه الأيام.

لكنها امرأة، امرأة حقيقية. تُتَبِّل اللحم أمامه بالثوم والأعشاب. تريد أن تطهوه غدًا على شرفه.

لا يستطيع أن ينظر بعيدًا.

المرأة بيت حقيقي. طعام، أطفال، أعياد، مأوى وسعادة.

"إلامَ تنظر؟"- سألت مرة أخرى. يجب أن تصمت، الحمقاء. سوف تفسد الليلة بأكملها بأسئلتها.

"أنتِ تقطعين وتقطعين"- يجيب.

"لقد انتهيت"- قالتها ومسحت يديها في مئزرها، ثم خلعته وعلَّقَته. "ماذا الآن؟".

يذهبان لمشاهدة التلفزيون، لكن أندريس يريدها أن تخلع لباسها الداخلي على الفور. الجو بالخارج ماطر وبارد. وأثناء هذا كله لا يشعر أندريس سوى بالمرأة التي بجانبه. يشعر وكأنه الوحيد في العالم الذي يفهم ماهية المرأة. هي نفسها لا تفهم نفسها. انظر إلى رأسها الذي سقط فوق كتفه؟ لقد راحت في النوم.

في تلك اللحظة، زارت إيڤا أندريس، بذكرياتها.

بعنف، كالعادة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

مصير فظيع.

ولكنه كان مصيرَه أيضًا.

إنـه مُشـوَّش قليـلًا؛ فقـد شرب بعضًـا مـن البـلاك بَلْـزَم؛ لـزوم الـدفء والشـجاعة. 100 جـرام مـن البَلـزَم.

يحـدِّق في التلفزيـون، وفي المـرأة النائمـة بجـواره. تُعـرض قصـة حياتهـا كفيلـم تحـت جفونهـا. إنـه لأمـرٌ رائـع ومُحـزِن، مشـاهدة هـذا النـوع مـن الأفـلام.

في وعيـه، تفصـل حياتـه نفسـها إلى حياتـين. رغـم أنهـا -تقنيًـا- واحـدة، حياتـه في بيـت الـزاري مـع إيفـا، ثـم الفـترة التـي أمضاهـا سـجنه. إنـه لا يطلـق عـلى السـجن الـذي يحبسـه الآن "حيـاة". إنهـا حالـة يَقَظَـة غريبـة يفكِّـر أثناءهـا في الحيـاة، يتذكَّرهـا، لكنـه لا يعيشـها فعـلًا. طـوال الوقـت هنـاك تلـك المسـافة، هـذا الفـراغ بينـه وبـين الوجـود. الآن لديـه امـرأة، لديهـا ثديـان عاديَّـان، وشـقَّة، ولحـم للشـواء، وبعـض المشـاعر تجاهـه كـما هـو واضـح. ولكـن كل مـا يمكنـه فِعلُـه مـرَّةً بعـد مـرة، هـو مطـاردة ذكرياتـه. في مـكان مـا تختبـئ فكـرة إمكانيـة ترتيبهـا جميعًـا عـلى أحـد الرفـوف.

فكـرة غبيـة. لأن الذكريـات لا تفعـل شـيئًا سـوى أن تطلـق العنـان للجنـون، والشـعور بأنـك تُشَـقُّ حيًّـا، الرغبـة في الـشرب والسـكر والهـروب مـن نفسـك. تـدور الذكريـات في رأسـه كدوَّامـة، وتدفعـه إلى عمـق القفـص الـذي هـو جسـمه. إنهـم يُعـزِّزون ويُدعِّمـون الأشـخاص الفريديـن مثـل أندريـس؛ يبلـغ مـن العمـر تسـعة وثلاثـين عامًـا، مطلَّـق، لديـه ابنـة واحـدة، قـضى خمسـة عـشر عامًـا في السـجن بتهمـة القتـل، ثـم حصـل عـلى إطـلاق سراح مُبكِّـر لحُسـن السـير والسـلوك، وهـو مـا وفَّـر لـه خمـس سـنوات، عمـل خلالهـا في ذات البلـدة التـي كان فيهـا السـجن. لم يذهـب لأبعـد مـن كيلومـتر واحـد مـن سـياج الأسـلاك الشـائكة. ورشـة

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

النجـارة خاصَّتـه هنـا. كل شيء هنـا: كـوخ يسـتمدُّ تدفئتـه مـن موقـد خشـب، بمرحـاض خارجـي خلـف الحظائـر. مبنـى بلـون الـتراب، شرفـة بلـون الـتراب، ومشـهد طبيعـي بلـون الـتراب مـن خلـف سـتار مُتَّسِـخ. كل أغصـان التـوت والعُلَّيـق وزهـور ياسـمين الـبر- ألـوان الطبيعـة. الملابـس وكلـب الجـار والربيـع أو الخريـف الـذي لا ينتهـي، مـن يـدري. سـهب مغـبَّر بـين الطريـق السريـع وخنـدق. ولكـن مـا هـذه الشـعلة، التـي تشـبه سـفينة تائهـة بـين السـتائر كل صبـاح ومسـاء؟ إنهـا سـجنه. الكشـافات القويـة، والجـدران الحجريـة السـميكة، وشـبكة الأسـلاك الشـائكة المُعقَّدة، تتوهَّـج كُلُّهـا باللـون الأبيـض، حتـى في الضبـاب، حتـى في العواصـف الثلجيـة وراء الحقـل البعيـد. سـجن أندريـس. سـجنه.

البجعة السوداء.

يطـلُّ مـن النافـذة. هـذه هـي شـقة المـرأة عـلى الجانـب الآخـر مـن النهـر. لا يـرى السـجن عندمـا ينظـر للخـارج، فقـط البلـدة والكنيسـة.

ليس هذا جيدًا.

يُغالِبُه الرُّعبُ ويقشعرُّ بَدَنُه.

مَـن هـو بـدون السـجن؟ لم يبتعـد عنـه منـذ فـترة طويلـة، حتـى يبـدو أنـه لم يغـادره أبـدًا.

تواسـيه فكـرة أنـه ليـس مضطـرًّا للتـمادي في كل هـذا. بوسـعه أن يغـادر فـورًا إن أراد. يزيـح رأس المـرأة مـن فـوق كتفـه، ويرتـدي سـترته ويذهـب. يعـبر الجـسر، ويعـبر النهـر. قـد يتوقَّـف في منتصـف الطريـق ليدخِّـن سـيجارة. سـيكون الجَـوُّ لطيفًـا. نسـمة لطيفـة تعـبر منتصـف النهـر- بـارد، واسـع... حُـرّ.

أطبـاء أندريـس لا يسـمحون لـه بالتدخـين. تؤلمـه يـده، كتفـه الأيمـن وركبتـاه وقلبـه يؤلمونـه أيضًـا. قـال لـه الأطبـاء أن يُقلـع عـن التدخـين.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

أن يقلِّل. ذهب إلى ثلاثة أطباء في يوم واحد؛ كي لا يُضيع وقته، وإلَّا فسيصبح كل ما تفعله هو التنقُّل من عيادةٍ للَّتي تليها، وهناك -بين العيادات- ستبقى.

لم يُقلِّل، بل أقلع في نفس اليوم. ثم قال الأطباء إن أسوء الأمور يمكن أن تحدث إذا أقلعت عن التدخين فجأة. صار جسمك معتادًا على التدخين. سيصبح متوترًا ويشعر بالحرمان. حسنًا، فليتوتر جسده قليلًا. لم يكن يحب التدخين على أي حال. إنها فقط تلك السنوات، سنوات انفصاله عن العالم، حين كان الامتناع عن التدخين ليدفعه للانهيار بالكامل. وهذا ليس مجرَّد تعبير من نوع ما، أو ماذا يطلقون عليه؟... مجاز؟ كان لينهار. حرفيًّا. لأنه خلال تلك السنوات، كان عدم وجود سيجارة كعدم وجود ساعة. سيجارة في الساعة. ما دام مستيقظًا، بالطبع. ولكن كلَّما اقترب من إطلاق سراحه، كلَّما قلَّ تَعبُه. تك. تك. يمرُّ الوقت.

في مرة، سأل إيڤا باشمئزاز: لماذا تدخِّنين؟، ردَّت أن التدخين يهدئ أعصابها. في ذلك الوقت كان يعتقد أنها مريضة. ثم مرض هو نفسه. لخمسة عشر عامًا.

وإيڤا... ماذا عنها؟ ستظل دومًا إيڤا.

لكن المرأة التي بجانبه نائمة. متعبة. تفوح منها رائحة التوابل. إنها -على الأرجح- محاسِبَة في السجن. لم يسألها. من الممكن أن تكون قد تجاوَزَت الخمسين، لكنها تبدو جميلة. ربما تعمل في السجن. جميع مَن في المنطقة يفعلون؛ لذلك يمكنه القول إنه قضى عمرًا مع هذه المرأة في نفس السجن: هو في الزنزانة وهي في الحسابات.

دعها تَنَم. التقيا للمرة الأولى أثناء موسم الأعياد الماضي في منزل جاره. كان أندريس قد ساعده في حفر قبو، ودُعيَ للعشاء الكبير في ليلة رأس السنة. كان قد فكَّر في الأمر طويلًا، ثم انتهى إلى أن عليه

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

الذهاب كي لا يكون وغدًا لا يعرف التَّحضُّر. وكانت هناك- قريبة أو صديقة أحد المُضيفين. وعلى الفور يلاحظها أندريس؛ ربما لأن عينيها كانتا داكنتين وثقيلتين، كما لو بسِرٍّ. لكن لا، لم يكن هناك أي مؤشِّر خارجي على الأسى، ابتسمت وأطلقت الدُّعابات، وشرب الرِّجالُ على الطرف الذي جلَسَت فيه من المائدة ضعفَ ما شرب الجالسون على الطرف الآخر من الخمر. أوه، ديميتر، الأرض المُثمِرَة!، فكَّرَ.

في منتصف الليل، كان أندريس يدسُّ مغرفة الرصاص المنصهر في يدها، قائلًا "اسكبي لي طالع العام الجديد"[1]. مَن بحَقِّ الجحيم يعرف لِمَ طلب منها ذلك! ربما كان سكرانَ، لكن مُجدَّدًا، ربما لم يكن، فهو لا يحبُّ الشُّرب. لكنها ضحكت وأخذت المَغرَفَة، وغمست الرصاص المنصهر في الماء، وسكبت له ما بَدَا كطالعٍ مرير. لم يكن بوسعك تخمين أي شيء من النتيجة. صفَّر الرصاص لدى اصطدامه بالماء، ثم ومضة ليديها الممتلئتين، طرطشة، وعيناها الضاحكتان، ولكن قطعة المعدن التي اصطادتها تركت انطباعًا غير سارٍّ في نفسه. أقواس ملساء من الرصاص، بَدَت كشخص عارٍ برأسه منحنية كما لو كان في حالة حداد. أصابه الحزن. بشكل لا يُصدَّق. أخذ طالعه العاري، وارتدى سترته الجلدية، وذهب إلى المنزل. قالت إنها شعرت بأنها المسؤولة.

ولكن في السوق اليوم، كانا سعيدين جدًّا لرؤية بعضهما مرة أخرى. سعيدين حقًّا. كان أندريس يبحث عن مقياس جديد لأن مقياسه قد كُسر أوَّلَ أمس، وكان تثبيت شريط القياس مستحيلًا في بعض الأحيان. لكنه بدلًا من ذلك اشترى أكارِعَ الخنزير، وغادر مع تلك الـ "ديميتر"، التي تغطُّ الآن في النوم على كتفه. يوافق الغد عيد

(1) تقليد يمارسه اللاتفيُّون في رأس السنة، فيصهرون بعض الرصاص أو القصدير ويسكبونه بمغرفة في الماء البارد، ثم يحاولون تخمين حظِّ العام الجديد من الأشكال التي يصنعها المعدن المنصهر في الماء- (المترجم).

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

اسـمه. لم يكـن يتصـوَّر أنـه سـيقضي عيـد اسـمه في مـكان غريـب. الحيـاة طريفـة عـلى طريقتهـا.

مـع ذلـك، بوسـعه أن يُغـادر. كان ذلـك دائمًـا خيـارًا مطروحًـا. يمكنـك أن تغـادر حيثـما كنـت طالمـا كنـت حيًّـا. يشـتري سـجائرَ ومشـطَ ثقـابٍ مـن محطَّـة الوقـود، ويتوقَّـف للتدخـين في منتصـف الطريـق عـبر الجـسر، قبـل إلقـاء باقـي العبـوة في النهـر كي لا تغريـه. ثـم يأخـذ يمينًـا باتجـاه الكنيسـة الروسـية الصغـيرة، ثـم يعـبر خـطَّ السـكة الحديـد، حيـث تلتمـع الأنـوار الحمـراء والخـضراء مُرحِّبـةً في الـوادي الضَّحـل. بعـد خَـطِّ السـكة الحديـد، يصبـح تقريبًـا في الديـار. خمسـة كيلومـترات، ثـم كوخـه. وهـو بـارد كالثلـج الآن عـلى الأرجـح. تتـسرَّب الحـرارة مـن الكـوخ سريعًـا، ولا عجَـبَ في ذلـك، فالجـدران مليئـة بالشـقوق، وورق الحائـط يصفـق في الريـاح.

ولكن من اللَّطيف أن يشعل بعض النار.

يفتح المدخنة.

يُراكِـم الخشـب في الموقـد. يكـدِّس القَـدرَ الـكافي مـن الصحـف في المنتصـف. ثـم يشـعلها. يغلـق بـاب الموقـد وينـدم عـلى إلقـاء علبـة السـجائر في النهـر. مـن الجميـل أن تُدخِّـن سـيجارة وأنـت تشـعل الموقـد. محاطًـا بالغرفـة المُظلِمَـة البـاردة، حيـث تعكـس أَلسِـنَةُ اللهـب المسـتعرة صُفـرَةً عـلى الجـدران، وتُمكنـه رؤيـة سـحب أنفاسـه البيضـاء. يسـتعيد دفئـه ببـطء، هـو وأرضيـة الغرفـة والسـقف والسريـر والطاولـة، والطـوب والخشـب. يبـدو كل شيء طبيعيًّـا جـدًّا بشـكلٍ مـا.

يتذكَّـر أندريـس كيـف كانـت إيفـا تفعـل ذلـك أحيانًـا في بيـت الـزاري. مـن المؤسـف أنـه لم يكـن يدخـن آنـذاك. كان ذلـك ليكـون رائعًـا جـدًّا لكليهـما. سـيجارة واحـدة عـلى مـدار الأمسـية بأكملهـا. مـع إيفـا. لكـن لم يكـن لديهـما أبـدًا أي شيء معًـا.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

ولكن هذه المرأة هنا- إنها امرأة نمطية. أخبرها أنه سيتوقَّف عن التدخين، وعلى الفور بدأت تُؤَثِرُ عن كم هذا جيد، وكيف سيتعيَّن عليها مراقبته كي لا ينتكس مرة أخرى. هذا الشيء الموجود في النساء، تلك العادة الشبيهة بالامتلاك، يُفترض أنَّهنَّ الجنس الأضعف، لكنهن جميعًا متآمِراتٌ حقيراتٌ وحسب. يوقِعنَكَ في الشباك بوعودهن، ويربِطنَكَ، ويُلزِمنَكَ بأقوالِكَ كما لو انتزعن مقاليد أمورك، يُهذِّبْنَكَ ويُراقِبْنَكَ، ويُجالِسنَكَ كطفل. سينتظر فقط أن تستيقظ، وسيخبرها بالحقيقة، سيخبرها ألَّا ترفع آمالها، ألَّا تتوقَّع أي شيء. ستعرف فقط ما يَحِقُّ لها أن تعرفه. وتريح نفسها من كل ما سوى ذلك. السجن هو ماضيه. وهذا هو كل ما سيقوله.

ولكن لِمَ يضايقه أمرُ الحسابات إلى هذا الحدِّ؟ آه، صحيح، بسبب الصورة. لقد عرضت عليه ألبوم صور- حسنًا، أجزاء منه، بضعة صور في البداية، وقد رأى الصفحة التالية بشكل عارض: أطفال في غرفة زيارة السجن، في الزاوية مع مجموعة الأراجيح الحديدية. ميَّزها على الفور، بالرغم أنه لم يَرَها سوى مرَّاتٍ قليلة منذ إطلاق سراحه. عندما تكون في السجن، لن ترى كم يبدو جميلًا من الخارج. إنه أبيض. بأسوار للكشافات. ونغمة التنبيه الغريبة تلك التي تنطلق مرَّةً كُلَّ ساعة. ومجموعة أراجيح في منطقة الزيارة. سجنه.

تعرَّف على الفِناء من تصميم بنائه. يلعب الأطفال على مجموعة الأراجيح قرب السجن، بينما تجلس أمهاتهم في مكتب المحاسبة- قرَّر أن هذا هو ما كان يحدث. طفلان. طفلان أفضل دومًا- يعني هذا دومًا المزيد من المرح. وهي الآن وحيدة. يمكنه تخمين ذلك من شبشبها وفرشاة أسنانها. من يدري إذا كان زوجها قد مات أو هَجَرَها. في الواقع، لا يهتم. يمكنها أن تخبره قدر ما تريد. ما حدث قد حدث. لكنْ خَطُّ اليد في الكتابة تحت الصور مألوفٌ. يبدو رقم 2 في تاريخ العام كبجَعَةٍ بعُنُقٍ ملتوٍ. ربما كانت إحدى العاملات في الحسابات،

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

ممَّـن يسـتلمن مدفوعـات الزيـارات في ذلـك الوقـت؟ عندمـا كانـت إيڤا لا تـزال تـأتي لرؤيتـه؟ مَـن يـدري لِـمَ كانـت ذكريـات الـ "2" المائلـة تُزعِجُـه. عـلى الأرجـح رآهـا عـلى أحـد الإيصـالات حـين جـاءت إيڤـا لزيارتـه.

المحاسِـبَة الصغـيرة الجميلـة. تبـدو مليحـةً في الصـور، ولا تـزال تبـدو جميلـة إلى الآن. لقـد قـال لهـا هـذا؛ كي لا تشـعر بالإهانـة لأنـه لم يكـن متحمِّسًـا لمسـألة الصـور تلـك. مـا حـدث قـد حـدث. مـا المغـزى مـن الصـور الفوتوغرافيـة- عينـاك لا تتغـيَّران أبـدًا. أنـتَ لـن تُحـبَّ امـرأة مصنوعـة مـن الـورق. لكـن تلـك التـي تُريـح رأسـها عـلى كتفـه، مسـألة مختلفـة كلِّيًـا- دافئـة وممتلئـة، وتشـخِّر شـخيرًا خفيفًـا. بهـدوء شـديد. يعـرف أندريـس أنهـا نائمـة؛ لأنـه في السـجن تتعلَّـم كيـف تعـرف مـن صـوت تَنفُّـس الشـخص إن كان نائمًـا أم لا. إيقـاع مختلـف تمامًـا. خصوصًـا الزفـير.

ومَـن قـال إنهـما سـيصلان لمرحلـة الـكلام؟ يمكنـه أن يسـألها مبـاشرة عـن المحاسـبة. لكـن مـاذا لـو أراد فجـأة أن يعـود إلى منزلـه؟ أو صبـاح الغـد، أو حتـى أن ينسـحب وهـي لا تـزال نائمـة؟ لا يمكنـك إجبـار قلبـك عـلى الشـعور بـشيء. التـزاور عظيـم، لكـن البقـاء في المنـزل أفضـل وأفضـل. وإذا كان البقـاء في المنـزل أفضـل، فالمحادثـة إذًا ليسـت ضروريـة. لِـمَ تُثقِـلُ نفسَـكَ بمعلومـات زائـدة؟ تحدَّثَـت عـن بعـض الأشـياء بالفعـل وهـي تُتبِّـلُ اللحـم. تُريـه ألبـوم الصـور. وتطـرح الأسـئلة. وهـو لا يقـول شـيئًا. مـن أجـل مـاذا؟ المزيـد مـن وجـع القلـب؟ إنـه عبـثٌ وخيانـة.

إنهـا نائمـة. دَعْهـا. إنهـا لحظـة لطيفـة. أريكـة أسـفل منـه، وامـرأة بجانبـه. شرائـط الضـوء التـي تلقيهـا مصابيـح الحائـط طويلـة وصامتـة. إلى اليمـين نافـذة، ومـن ورائهـا الظـلام والـبرد. أمامـه تلفـاز يعمـل بصـوت خافـت. دفء يحيـط بـه مـن كل اتجـاه، لا تلـك الحـرارة اللافحـة الجافَّـة المُنبعثـة مـن الموقـد، بـل الدثـار اللطيـف للتدفئـة المركزيـة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

إنهـا لحظـة أندريـس. لحظتـه. لحظـة وجـود. لقـد صـار جيِّـدًا في التقـاط تلـك اللحظـات عـلى مـدار السـنوات الماضيـة. يشـمُّها ككلـب الصيـد، ويسـتخرجها كصيَّـاد اللؤلـؤ ويضعهـا عـلى سـطح وعيـه، ويكسرهـا ويطحنهـا ككسـارة البنـدق. يـكاد يكـون سـعيدًا- اللعنـة، سـعيدًا!

لم يَعُـد يحتـاج الكثـير. الأمـواج التـي اعتـادت أن تَسـحَقَه قـد هـدأت. وسرعـان مـا سـتُظهر السـماء مـن خلالها. يوشـك عـلى الاقتنـاع بـأن زواياها المُظلِمَـة لم تَعُـد تُخفـي أيَّ ظِـلالٍ خطـيرة، مـن شـأنها أن تجلـب عليـه المعانـاة. هـذا هـو قَـدَرُه: أن يمـضي حياتـه بأكملهـا كلعبـة بـين أمـواج الحيـاة المتلاطمـة. أن تفعـل شـيئًا ولا تـدرك ذلـك إلَّا بعـد فـوات الأوان. الحيـاة لا تجلـب إلَّا الألم للنـاس الذيـن يعيشـون هكـذا. لقـد اكتفـى. الوضـع لطيـف هنـا، في الميـاه الضَّحلَـة. وذكرياتـه في متنـاول يـده إن أراد أن يشـعر بـشيء في أي وقـت.

كان سـعيدًا أيضًـا حـين كانـت إيفـا تـأتي لرؤيتـه. لكنهـا كانـت سـعادة مُعذَّبَـة. كتلـك التـي يشـعر بهـا الآن، عندمـا يعيـد مَشـاهِدَ حياتـه مـرارًا وتكـرارًا، رغـم أن الأجـدر بـه أن يسـترخي ويسـتمتع بالـدفء، في لحظـة الوجـود تلـك. لمـاذا تـدَعُ نفسـك تغـرق في المـاضي إذا لم يكـن بوسـعك تغييـره أو محـوه؟ لتشـعر بتلـك السـعادة المضطربـة؟ الحيـاة هـي الحيـاة، بهـا كل شيء. المزيـج في هـذا القِـدر سـميك جـدًّا، لدرجـة أنـه -في لحظـة حـدوث شيء مـا- لا تُمكِنُـكَ مَعرِفَـةُ مـا إذا كنـتَ لا زِلـتَ سـعيدًا أم لا. ولكـن وحدهـا الأشـياء الجيـدة تبقـى في ذاكرتـك.

عندمـا كانـت إيفـا تـأتي لرؤيتـه، كان يبـدأ في انتظارهـا قبلهـا بثلاثـة أشـهر. بمجـرَّد أن تُظهـر أنـك تعمـل بجـدٍّ وتسـلك سـلوكًا لائقًـا؛ تحصـل عـلى زيـارة طويلـة. زيـارة واحـدة في الموسـم. كان يمـلأ نمـوذج الطلـب بعنايـة، ويضـع معلومـات جـواز سـفر إيفـا، ويكتـب "الزوجـة" بحـروف كبـيرة عـلى السـطر أعـلى "العلاقـة". آنـذاك، كانـت لديـه زوجـة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

عـادةً مـا يُدخِلـون إيڤـا أوَّلًا. كانـت غرفـة فنـدق السـجن عبـارة عـن غرفـة نـوم طويلـة وضيقـة، في نهايتهـا نافـذة تُطِـلُّ عـلى جـدار السـجن الداخـلي. سريـران ملاصقـان للجداريـن المتقابِلَـيْن. طاولتـان قبيحتـان. لا زَخرَفَـة.

كانـت تجلـس دائمًـا عـلى السريـر عندمـا يُحـضر الحُـرَّاسُ أندريـس. كان يحـب أن يعتقـد أنهـا جلَسَـت لأن رُكبَتَيْهـا المرتجفتـين سـتفضحان حماسـتها. ولكـن ربمـا كانـت تجلـس بهـذا الوضـع لأنهـا تريـد أن تشـبه لوحـة. لأنهـا كانـت تعـرف تمـام المعرفـة أنهـا -في امبراطوريـة القُبـح تلـك- تبـدو جميلـةً بشـكل غـير طبيعـي. مَـن يعـرف بحـق الجحيـم؟ لم يكـن أبـدًا قـادرًا عـلى فهـم إيڤـا.

كان لديـه بالفعـل شـعور في ذلـك الوقـت بأنهـا تبتعـد عنـه ببـطء، أنها بالفعـل ترتبـط بأشـخاص مِمَّـن يبقـون بعيـدًا عـن المتاعـب. وأن السـجن وحـده، بقعقعـة المئـات مـن أبوابـه، وخشخشـة المفاتيـح، والممـرَّات الضيقـة، وبقـع الضـوء عـلى زيِّ الحُـرَّاس، ورأسُ أندريـس الحليـق، وعينـاه الكبيرتـان في وجهـه الهزيـل الداكـن، هـو مـا صهرهـما معًـا، بتلـك الطريقـة التـي وحـده السـجنُ يفعلهـا.

عندمـا توقَّفَـت عـن المجـيء، أمـضى السـنوات الأربـع التاليـة يُغـذِّي فكـرة قَتلِهـا بمجـرَّد الخـروج. ولكـن ذلـك اسـتمرَّ لأربـع سـنوات، لا أكـثر. مـا مـن عاطفـة تسـتمر لفـترة أطـول مـن أربـع سـنوات دون دعـم مـن اللـه. في ذلـك الوقـت وجـد كتابًـا بجـوار الموقـد في غرفـة المرجَـلِ بالسـجن، فقـرأه وهـدأ. لأجـل الحيـاة. الـشيء الوحيـد الـذي طلبـه مـن اللـه هـو ألَّا يـرى إيڤـا مـرة أخـرى. الآن هـو متأهِّـبٌ دومًـا، كُلَّـما ذهـب إلى ريجـا لزيـارة ابنتهـما. إيڤـا عـلى الأرجـح في مـكان مـا ليـس ببعيـد. ولِـمَ لا ينبغي لهـا أن تكـون؟

حيَّة، تمامًا كما كانت آنذاك.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

كانـت يـداه تبقـى خلـف ظهـره، عـلى الرغـم مـن مـرور أكـثر مـن ثلاثـين ثانيـة منـذ أن أزال الحـارسُ الأصفـادَ وتـرك الغرفـة. ابتسـم أندريـس ابتسـامةً واسِـعةً كالأحمـق في كل مـرة- ربمـا لم تلاحـظ إيڤـا ذلـك، عـلى الأقـل هـذا مـا يحـب أن يظنَّـه. ابتسـم ابتسـامة عريضـة كالأحمـق، وفـرَكَ معصميـه.

بعدهـا- بعدهـا يهـرع إلى السريـر ويجذبهـا إلى حِجـرِه كقِطَّـة، يلفُّهـما الـدفء وتختلـط رائحتاهـما. كانـا يجلسـان لفـترة طويلـة، يحتضنـان أحدهـما الآخـر، يمـلأ كلٌّ منهـما انحنـاءات جسـد الآخـر، بـلا حـراك تقريبًـا. يتنفَّـس أحدهـما الآخـر.

ثم يبدآن في التحدُّث.

وفي النهايـة، سـوف إيڤـا تتحـرَّر ليَشرَعَـا في إعـداد العشـاء. الظـلام يزيـد بالخارج.

كـما هـي الحـال في تلـك الأغنيـة -هـما الاثنـان فقـط، وحدهـما في هـذا العـالم- أي أغنيـة كانـت؟ لا يهـمُّ. هنـاك العديـد مـن الأغـاني المشـابهة، وجميـع المُغنِّـين في العـالم يُغنُّـون عـن الأمـر.

لكـن الشـعور كان نـادرًا جـدًّا. كـما لـو خُلـق العـالم لتَـوِّه. وهـما أول شـخصين فيـه.

شخصان يحميها سياج الأسلاك الشائكة، والكلاب، والبنادق.

كان الأمـر جميـلًا جـدًّا. كـما لـو أن أندريـس يفهـم أي شيء عـن الكلـمات، أي شيء عـن كلمـة "جـمال" عـلى سـبيل المثـال؛ لأنـه لم يُعلِّمْـه أحـدٌ حقًّـا معنـى الكلـمات. كل مـا يعرفـه يعرفـه بالملاحظـة. يـا إلهـي! ومَـن كان ليُعلِّـم صبيًّـا يعمـل بمزرعـة مثلـه الكلـمات؟ "اذهـب في داهية!" أو "خُـذه، إنـه في طريقِـكَ!"- هـذا هـو درسـه. أضافـت إيڤـا كلمـة "جمال" إلى مُفرَداتِـه لاحقًـا، لكنهـا تحدَّثَـت بطريقـة مختلفـة؛ كانـت إنجيلَـه. حتى

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

إنها كانت تقرأ له الكتب بصوتٍ عالٍ في بيت الزاري، الكتب. مساءً! قبل الذهاب إلى الفراش- كما لو لطفل.

لكن تلك كانت طبيعتها دومًا: تقضي النهار في التفكير والتحدُّث لنفسها، وفي الليل، تبحث عن إجابات في الكتب، بل وتقرؤها له بصوتٍ عالٍ. ولِمَ لا؟ الأمر صعبٌ حين تعيش في الريف، مُحاطًا بالغابات السوداء من كل اتجاه. حيث يشتدُّ الظلام كثافةً في الشتاءات الخالية من الثلوج، ويمكنك سماع اندفاع المحيط المستمرِّ من جهة الشمال. يُمكن أن تصاب بالجنون. لكن كانت لديهم غرفتهم الصغيرة وسريرهم الكبير، ومصباحهم الأصفر المُعلَّق فوقهم عاريًا. وإيڤا تقرأ لأندريس بصوت عالٍ. كان يُنبِّهها قبل أن يذهب في النوم. ذكَّره هذا النَّوعُ من القراءة بمحاضرات والدته. كانت إيڤا إنجيلَه، ووالدته القانونَ. كان الوقت الوحيد الذي تستطيع فيه والدته ضَمَّه حين كان صغيراً هو وقت النوم، بقية الوقت لم تستطع السيطرة عليه، أو العثور عليه. الزَّلَّاجات، البندقية، قطعة كبيرة من لحم الخنزير المُقدَّد، وكلبه... هذا كل ما يحتاج إليه.

صحيح أنه لم يكن يغفو بسرعةٍ عندما تقرأ إيڤا للكاتب النرويجي "كنوت همسون". الغابة، كلب، فتاة. الكلب يُردَى قتيلًا على شرف الفتاة المغرورة، فَهِمَ أندريس كلَّ ذلك، لم يكن هناك شيء للنقاش.

كان هناك أيضًا -ما اسمُه؟- الكاتب النرويجي الآخر "تريجوف جيلبرانسين" وكتابه "وفي الخلفية تُغنِّي الغابات". الغابة والظلام والخيول وكريستينا المغرورة. ويحمل كل شيء إحساسًا بحياة أكبر وأجدر بالاحترام، كان هذا طبيعيًّا...

ياللجمال!- قالت إيڤا.

الجمال!

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

بالنسبة لها، أعظم الجمال يمكن العثور عليه في أكثر الأشياء التي يكرهها أندريس. عبارة أو جملة من نوع ما، تقرؤها مرارًا وتكرارًا، وتكاد تهتزُّ طَرَبًا في كل مرة.

سخافة.

لماذا نُنفِق الكثير من الوقت في التنقيب عن الكلمات؟ في الخارج هناك حياة حقيقية: الغابة، جرَّار، الماشية، والأهم من ذلك كله: زوج. تخلَّى أندريس عن الكثير ليعيشَا معًا: زلَّاجاته، بندقيَّته، وحتى الغابة- لأن عليهما أن يدبِّرا أمورهما، أن يوفِّرا المال. لكنها تعيد قراءة الجُمَل وحسب. ما المهم في ذلك؟!- كثيرًا ما يسأل، إنها مجرَّد جُملَة لطيفة! تَجاوَزي الأمر! ليست شيئًا حقيقيًّا. من الأفضل الابتعاد عن الأوهام، ويا لها من أشياء فظيعة، الأوهام!

مثل رواية "الأبله"، والتي وجَدَتها إيڤا جميلةً على نحوٍ استثنائيٍّ. يا إلهي! إنها تعريفُ المَلَل.

كلَّما فتحت هذا الكتاب وبدأت في قراءته، غَفَا بسرعة كبيرة ومن دون ذَرَّةِ نَدَمٍ واحدة. كان بإمكان دوستويڤسكي أن يُفسِدَ عقلك، فليفعَلْ، لكنها مسؤوليَّتُكَ: أن تنتبه وترسم الخطَّ الفاصل عندما يحين الوقت. يتذكَّر أندريس كيف بدا ذلك الكتاب: منشور من الحقبة السوڤييتية بغُلافٍ من القماش الرمادي المائل للزُّرقَة، وصورة شديدة السُّخف بلون الكَرز في أحد الأركان، لرَجُلٍ، وامرأةٍ بخَصرٍ نحيل، مُنهَمِكَيْن في الرقص. كانت إيڤا حامِلًا في ذلك الوقت. يتذكَّر كيف كانت تبدو تمامًا كما يتذكَّر الكتاب: البشرة الناعمة فوق بطنها المستدير، والمثلث الحريري الطري في قاعدته، وثدياها، مُتصلِّبان وبارزان كقرنَيْ أُيَّل، بحلمات داكنة كبيرة. لا شيء من سخافات الخصر النحيل تلك. في ذلك الوقت لم تكن إيڤا تأكل سوى الزِّنجة وخبز الشَّيْلَم، هكذا كانت آثار الحمل، كانت تجعله يركض إلى البلدة مسرعًا بحثًا عن

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

الرِّنجة إن لم تكن موجودةً في الثلاجة، ولو في منتصف الليل. وتغمِّسها بخبز الشَّيلَم كالمجنونة. فقَدَت الكثير من وزنها. حذَّرَها الأطباء، لكن لم يساعدها شيء. كانت عنيدة.

مارَسَا الحب كل ليلة، وأحيانًا كانت إيڤا تقرأ بعدها بصوتٍ عالٍ. حدث كل ذلك في تلك السنة: الوقوع في الحب، طفلة، عامها الثامن عشر، زفاف، انهيار الاتحاد السوڤييتي... طفرة! حياة كاملة على مدار اثني عشر شهرًا. بكت إيڤا. طوال السنة، لا عجب أن تشبَّ مونتا لتصير شديدةَ الحساسية. لو أيُّ شيء، فهي عصابيَّة؛ لأن إيڤا أمضت العام كله في البكاء. ما ينبغي للحوامل أن يتصرَّفن بتلك الطريقة- كان أندريس مقتنعًا. حتى لو انهارت الامبراطورية.

وُلِدَت مونتا حين كان بعيدًا. أُرسِلَ إلى الحدود لإزالة غابة في نيكرايس. طوى لاتڤيا بأكملها عائدًا إلى بيته في بيت الزاري بمجرَّد سماع الخبر. أراد أن يُعيدَ ابنته إلى المنزل بنفسه في الجرَّار، لم تسمح له إيڤا بذلك، وقالت إنها تريد العودة إلى المنزل بسيارة أجرة. فانتازيا أخرى أخذتها من كتابٍ ما.

عندما التقى أندريس إيڤا على الدَّرَجات الأمامية للمستشفى وهي تحمل الطفلة، بدا الأمر كما لو مرَّت عدَّةُ سنوات لا عدَّة أيام. بَدَت إيڤا شَعثاءَ ومُشرِقَةَ العينَيْن- لم يكن هذا مألوفًا. على الأرجح كانت تتوقَّع منه زهرةً، لكن لم تكن لديه زهرة. لا ينبغي لها أن تتوقَّع منه شيئًا لم يكن ليقدِّمه.

نظر لابنته- لطيفة. طلب سيَّارة أجرة. لِيَكُن.

ولكنه نام في سيارة الأجرة. لا عجب؛ فهو لم يَنَمْ كثيرًا في الليالي القليلة الماضية. كان الموقد الحديدي يُطلِق الدُّخان في مهاجع الحطابين، وطوال الليل، لم يكن هناك سوى الفحم، وعواء كلاب القرية. بين الحين والآخر كان يشعل سيجارةً ويستمع إلى شخير العُمَّال الآخرين.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

حشـدت الليلـةُ الطويلَـةُ الدُّخـانَ، وأضاقـت صـدره، ولكـن ربمـا كان ذلـك مـن الحـماس؛ أن لديـه الآن ابنـة.

أيقظه سائق التاكسي عندما عادوا بالفعل إلى المنزل:

"استيَقِظْ يا بابا! كان يجب أن تَحمِلَ طفلَتَكَ بنفسك!".

كانت الباحة فارغة. ركضت إيڤا بالطفلة للداخل لإخفاء دموعها.

كان هو نائمًا في تلك الأثناء.

لكـن إيڤـا -بطبيعـة الحـال- كان صامِتـةً خـلال الأيـام القليلـة التاليـة. مـن الواضـح أن ابنتـه لم تكـن تعنـي لـه شـيئًا، إذا كان بإمكانـه النـوم هكـذا. هـل كان متعمِّـدًا؟ ألم يكـن سـعيدًا؟ كان سـعيدًا؛ لكنـه لم يسـتطع إظهـار سـعادته مثـل الباقـين.

في رأيـه، كان حـزن إيڤـا مجـرَّدَ غطـاءٍ ضخـم يُخفـي كـم كانـت مُدلَّلـةً. كان والداهـا يعمـلان، وكانـت أمهـا تعـاني مـن الصُّـداع النصفـي؛ لذلـك لم يتمكَّنـوا مـن الاحتفـاظ بإيڤـا وشـقيقها الصغـير. أرسـلا إيڤـا إلى الريـف للعيـش مـع جدَّتِهـا، ولكـن هنـاك، انفتحـت كل أبـواب الجحيـم. لم تكـن لديهـا ظـروف معيشـة حقيقيـة هنـاك، في نظـره. كان الأمـر أشـبه بالعيـش في محميَّـة. كتـب، كسـل، بحـر، جدَّتُهـا تفعـل لهـا كل شيء، وتسـتلقي الأمـيرة الصغـيرة عـلى عـلى الأريكـة، تقـرأ- مـن سِـنِّ الرَّابِعـة!

كـره أندريـس المُتَحذلِقـين. الأذكيـاء. الكُتَّـاب... مَـن يحتـاج إليهـم؟ حسـنًا، يمكـن للجميـع أن يتوصَّلـوا إلى فكـرة رائعـة واحـدة في حياتهـم. فكـرة قويـة واحـدة خاصـة بهـم. لا يمكـن لأفـكارك أن تجـفَّ تمامًـا، إذا جـاز التعبـير. هنـاك شيء مـا يحـدث في رأسـك، طـوال الوقـت.

حسنًا، فكرتان كبيرتان في العمر، كما هو الحال مع أندريس.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

نعـم، يمكنـه أن يـسرد فكرتـين كبيرتـين خاصَّتَـيْن بـه. الأولى هـي التـي يُحـب أن يُذَكِّـر إيڤـا بهـا، إن كانـت قـد نَسِـيَت، وهـي أنـه رغـم كل مـا حـدث، بالإضافـة إلى السـجن، لم يتحـوَّل إلى خنزيـرٍ مـا.

يقولـون إن أُناسَـكَ سـيفهمونك. لـن يـشرح أي شيء أكـثر لأيٍّ شـخص آخـر. أولئـك الذيـن لم يفهمـوه بوسـعهم تجاهُـل الأمـر. مَـن ذا الـذي يحتـاج التفسـيرات. لـن يقـول شـيئًا أكـثر. إنهـا فكـرة مهولـة، وتنطبـق عليـه تمامًـا، حتـى إن بدنـه يَقشَـعِرُّ كُلَّـما كرَّرهـا لنفسـه، وحقَّقهـا بالكامل.

الفكـرة الثانيـة عـن الحيـاة. سـيقول لإيڤـا عنهـا يومًـا مـا. وسـوف تُبهَـتُ هـي وكل رفاقهـا الأذكيـاء؛ لأنهـم جميعًـا كاذبـون. أرفـف ممتلئـة لآخرهـا بالكتـب. مُزيَّفـون! لأنـه يمكـن لأي شـخص أن يطـرح فكـرة واحـدة أو فكرتـين عظيمتـين في حياتـه، ولكـن هنـاك أشـخاص يُنهـون كتابًـا كل عـام. مـن الواضـح لأندريـس أنهـم يكسـبون المـال باسـم الملـل. هـذه هـي الطريقـة التـي يعمـل بهـا هـذا العـالم: كُلَّـما قَـلَّ ذكاؤكَ، كلَّـما اسـتغلَّكَ الآخـرون أكـثر.

ثلاث أفكار، ما هذه الأكاذيب!. ثلاث؟! مستحيل.

قـال ذلـك لإيڤـا. إنهـا تقـوده للجنـون بحديثهـا، تُثـير غضبـه. لقد شـعر أنـه غـير مَحمـيٍّ للغايـة، مُجـبَرٌ عـلى العُزلَـة والظـلام، حتـى صَرَخَهـا في وجههـا مبـاشرة: "أكـره المُتَحذلِقـين!".

رَدَّت صارِخةً: "ولكني أتوق للمعرفة!".

صيَّاحـة. رُبِّيَـت عـلى ذلـك باسـتمرار: أن تكـون ذكيَّـةً وإيجابيَّـة، غـيرَ مُنضَبِطـة وكسـولًا.

آه يا إيڤا، إيڤاه! ما خَطبُه!

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

في بعض الأحيان يكون بالفعل خائفًا جدًّا. تسير الأمور كما ينبغي لها، فتحتشد تلك الموجةُ بداخله، ثم يصبح خائفًا من نفسه. شيء خفيٌّ في أعماقه يتحوَّل؛ شيء لم ولن يعرف بشأنه أبدًا. في لحظات كهذه، يبدو كلٌّ من الحياة والموت هامِشيَّيْن. ويمزِّق أَلَمٌ شديدٌ قلبه. لا، ليس ألمًا خالصًا، بل هو نوع من اللَّيِّ. حبلٌ مجدول من الوجع والاشتياق والغضب والأمل والرهبة، يمتدُّ عميقًا جدًّا حتى يُضيِّق صدره بأكمله.

لا يستطيع التَّنفُّس، خائف من نفسه. في لحظات كتلك، يُسعِدُه أن قلبه قد حَكَم عليه بالوحدة. لا سمح الله لتلك الموجة بأن تتحطَّم على شخصٍ آخر أيضًا. وحده أندريس يمكنه أن يحمل هذا الضغط. يحمل هذه الموجة كما يحمل أطلس العالم على كتفيه.

تتحرَّك المرأة التي تستريح على كتفيه. لا بُدَّ أن ترقوته تَحفُر في خدِّها.

مُسرعًا يمدُّ أندريس يده الأخرى خلف ظهره، ويلتقط وسادة، ويرميها في ركن الأريكة. ثم يضع ذراعيه حول المرأة ويسحبها معه. هناك دغدغة في صدره، ورغم أن هذه الحركة لم تستمرَّ سوى ثانية، إلا أنه يشعر وكأنه قد أمسك بسمكة عملاقة، وها هو يغرق إلى أعماق المحيط.

تُتَمتِمُ المرأة ولا تريد الاستلقاء، تُقاوِمُ قليلًا، الحمقاء، ربما ظنَّت أنه سيبدأ في تحسُّس جسدها، لكنه لا ينوي ذلك. حسنًا، ربما فكَّر في الأمر قليلًا، لكنه مجرَّد إنسان، يمكنه أن يرى أنها مُتعَبَة من العمل، وأيضًا من تحضير الشواء؛ لذلك يدعها تنام وحسب. يضغط خدَّها على كتفه، ومن زاوية فمها يسيل خَيطٌ من اللعاب على قميصه، كخيط من الفضَّة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"نامـي!" يُمسِّـد شـعرها. ويستنشـقه. إنـه لـشيءٌ غريـب!. رائحتهـا ليسـت شـيئًا قـد يجعلـه يريدهـا الآن، لقـد شـعر ذلـك منـذ البدايـة. لكنـه -للدِّقَّـة- لا يسـتطيع إبعادهـا أيضًـا. كـما لـو أن سرًّا يتدفَّـق عبرهـا. هـذا أمـرٌ جيِّـد. يحـب المـرأة التـي لديهـا سرٌّ.

تُصـدِر صـوت قِطَّـة راضيـة حـين يُمسِّـد شَـعرَها، ثـم تـروح في النـوم مـرة أخـرى. مـن المنطقـي، مـن اللطيـف أن يكونـا معًـا. قريبـين دافئـين.

لطيـف هـذا الـدفء. لطيـف لأنـه يسـمح لأندريـس بالتفكـير في إيقـا دون مقاطعـة. تسـحبه هـذه الأفـكار دائمًـا بعيـدًا عـن أينـما كان، تحملـه في الهـواء، إلى منـزل غريـب ومهـول، حيـث يسـتغرق الأمـر وقتًـا طويـلًا لفحـص وتَفَقُّـد جميـع الأقبيـة، والممـرَّات المتقاطعـة، والأبهـاء، والغـرف، والأسـقف المنحـدرة وآبـار السـلم، وغـرف المـؤن والعلِّيَّـات، وغـرف الضيـوف والممـرَّات المخفيـة، ثـم تنظيفهـا وفهرسـتها حتـى للمـرة القادمـة. والليلـة، بالـكاد يبـدأ. وإلى أن ينتهـي مـن المـرور بـكل ذلـك، ليـدع ديميـتر تنـام. لـن يفوتـه شيء. هكـذا يعمـل الزمـن.

كانـت زيـارات إيقـا جميلـةً في وتيرتهـا البطيئـة. لا داعـي للاسـتعجال. "سـنعود غـدًا في العـاشرة!"- يُذَكِّرهـم الحُـرَّاسُ قبـل مغادرتهـم. ثـم يُقـدِّم الزَّمـنُ -فجـأةً- نسـخةً بديلـةً لأندريـس الـذي يـدور كلُّ مـا في حياتـه في دائـرة مسـحورة، حيـث تقـع نفـس الأحـداث كل صبـاح، وكل مسـاء، ويعـود كل شيء للأبـد إلى نقطـة البدايـة؛ حيـاة تجمَّـدَت فيهـا المرايـا لتعكـس دائمًـا ذات الصـورة، نُبِـذَ مـن الزَّمـن مادِّيًّـا- في السـجن، وروحانيًّـا- داخـل نفسـه.

ولكـن بعـد ذلـك، في صبـاح أحـد الأيـام، سـتظهر إيقـا، ويـدور الزمـن مـن جديـد.

حتـى الحُـرَّاسُ لاحظـوا ذلـك؛ لأنهـم قالـوا إنهـم سـيعودون في الصبـاح لفصلهـما. أصبـح أندريـس فجـأة مهتـمًّا بمتابعـة الوقـت، هـذا الجسـد

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

الـذي حكمـت عليـه المحكمـةُ بـأن يشـيخ مخفيًـا عـن الأنظـار. فـاض شيء مـا واندفـع خارجًـا، وفُتِحَـت بوَّابـاتُ السَّـدِّ بقـوَّةٍ ليتدفَّـق مـن خلالهـا تيَّارٌ قـويٌّ، مـن العـاشرة صباحًـا إلى العـاشرة صبـاح اليـوم التـالي، وانخطفـت أنفاسـه لرؤيـة مـدى مرونـة الزمـن وتغـيُّره، وكيـف يبـدو ماديًّـا ومتدفِّقًـا.

في تلـك الأيـام، كَـرِهَ السـاعة. في تلـك الأيـام، كان للسـاعة معنـى مـرة أخـرى، وكانـت تسـخر منـه قـدرَ مـا تسـتطيع، كشـخصٍ وُلِـدَ ليكـون سـجَّانًا، شـخصًا يجـري التَّعذيـبُ في دمـه، شـخصًا يتأكَّـد مـن أنـك لـن تنسـاه أبـدًا.

كان يجلـس هـو وإيڤـا ويتبـادلان كلـمات متمهِّلـة. بوسـعهما رؤيـة جـدار السـجن مـن النافـذة، ومشـاهدة السـجناء يتجوَّلـون في الباحـة كالماشـية، كقطيـعٍ ذاهـل في سـترات زرقـاء أو قمصـان بيضـاء، حسـب الموسـم. تتنقـل بُقَـعُ ضـوء الشـمس عـلى الأرضيـة. كانـوا يتحدَّثـون عـن الجـيران، وعمـل إيڤـا، وأصدقائـه وحيـاة السـجن، وآبائهـم، والمـال، ومونتـا. كان أندريـس ينظـر إلى صـور ابنتـه؛ إذ تمَكَّنَـت إيڤـا مـن إخفائهـا جيـدًا في ملابسـها، ويقـول إنـه سـيضعها في حافظـة بلاسـتيكية. كانـت لديـه مجموعـة كاملـة مـن هـذه الصـور، مُخبَّـأة في قعـر طاولتـه المُزيَّـف. سـيتأمَّل أندريـس كيـف غَـيَّرَ الوَقـتُ وجـهَ ابنتـه. عندمـا وُلِـدَت كانـت تُشـبِهُه تمامًـا، كـما لـو كانـت صُنِعَـت في قالـب، نسـخة مُصغَّـرة منـه، بصمـة عـلى معـدن داكـن. ثـم بـدأ وجههـا في التغيـير، يقفـز مـن ملامحـه إلى تعابـير وجـه إيڤـا، ويعـود مـرَّةً أخـرى. بالطبـع، يعتمـد الكثـير عـلى زاويـة الصـورة والإضـاءة، ولكـن في النهايـة أصبحـت مونتـا مونتـا. كان مـن المسـتحيل ألَّا يُلاحِـظَ ذلـك.

كان يسـتجدي إيڤـا -عـلى اسـتحياءٍ- أن تجلـب مونتـا معهـا. وكانـت إيڤـا تجيـب -بحسـمٍ- عـلى أن ابنتهـا لـن تطـأ قدمُهـا أَرضَ السِّـجن، أو تتنفَّـس هـواء السِّـجن.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

سألها: "وإن مِتُّ؟".

هزَّت كتفيها بلا مبالاة.

هكـذا كانـت. وَقِحَـةً تمامًـا. كان أندريـس في السـجن بسـببها. بسـببها هـي وذلـك الحقـير أكسـليز، ولكـن انظـروا، لقـد جعَلَـت مـن نفسـها تلـك الحمامـةَ البيضـاء النبيلـة التـي تـزوره كالحلـم مـرَّةً كلَّ فَصـلٍ. لكنهـا كانـت غائِبـةً في نفـس الوقـت. سـذاجة... أو بالأحـرى -مـا المُسـمَّى؟- عـدم النضـج. بالضبـط.

رضيعـة غـير ناضجـة، وعاهـرة. إنهـا تـأتي إلى السـجن، لكنهـا لا تتنفَّـس الهـواء. تـأتي تلـك الحماقـة مـن الكتـب، بطبيعـة الحـال... أنـا هـو أنـا، ومـكاني هـو مـكاني. لكـن انظـروا- الأسـهل هـو إنـكار الواقـع، التلكُّـؤ في الحلـم، التَّظاهُـر، المُلاحَظَـة.

غبيَّة.

الاسـتقلالية والخيانـة. كامـل سُـلالة قُـرَّاء الكُتُـب خَوَنَـةٌ؛ لأنهـم يسـتخدمون الكلـمات كيفـما رأوا، وهـم خبيثـون كالثعالـب. سـوف يُحرِّفـون العـالم إلى الأبـد إلى شيء يُفضِّلونـه. يـرى الجميـع اللـون الأسـود، ولكنهـم سـيقولون إنـه العكـس، أبيـض. بالطبـع يمكنـك أن تقـول الـشيء نفسـه، لكـن ذلـك سـيُبقي الأمـر مرتبطًـا بغايـة أنانيـة مُعقَّـدَة حـدَّ الغَثَيـان.

عنـد ذلـك بـدأت المشـاجرة. حـين أعطاهـا قميصـه قبـل مغادرتهـا لأنهـا كانـت تُمطِـر في الخـارج بغـزارة. زخَّـات مايـو تتناثـر عاليـة، في فـوضى مَرِحَـة.

ولكنهـا لم تـأتِ مَـرَّةً أخـرى. فقـط أرسـلت القميـص مـع ملاحظـة: "انتهـى كلُّ شيء حقًّـا الآن. إيفـا".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

لم تكن هناك مشاجرة. أخبرها فقط بما كان يفكِّر، وفجأة انتهى الأمر. إذا فلم يكن وقتهما معًا قائمًا سوى على الكذب... الكذب والصمت. ولكن هذا كان واضحًا منذ فترة.

في ذلك الوقت، بدا عليها بعضُ التَّشوُّش، كما لو كانت بالغرفة، وليست بها.

ثم فجأة سألت إذا كانت مُمكِنًا أن تتحدَّث معه عن أكسليز.

الورقة الرابحة. حتى إنه ترنَّح قليلًا، فلم يكن يتوقَّع ذلك. لم يأتيَا أبدًا على ذِكر الأمر. لأنه، أولًا وقبل كل شيء، كان لدى كلٍّ منهما نسخته الخاصة عمَّا حدث. وثانيًا، كان للجدران آذان. جميع الجدران في الاتحاد السوڤييتي لها آذان. لا يمكن أن تكون السَّذاجة قد بلغت بهما حدَّ الاعتقاد بأن السجن الذي لم يُجدَّد أبدًا، سيكون خاليًا من أجهزة التَّنصُّت.

لكنها تتساءل- هل يمكنهما التحدُّث عن أكسليز؟

ثم انطلقت تحكي الأمر في نفس واحد- ذكَّرته بمن يقف لركبتيه في مياه البحر بينما يرتفع المَدُّ بسرعة. كان بإمكانه أن يعلم على الفور أنها كانت تمنع نفسها من إخباره. ربما أمضت تلك الساعات الأربع في القطار وهي تُحدِّث نفسها عن الأمر.

عن كيف -تصوَّر- لم يكن عليه أن يرمي أكسليز بالرصاص. كيف كان الأمر نوعًا من العُصاب. والآن كيف يُفترض بهما إصلاحه؟ كيف أنها لم تُوفِّ أكسليز حَقَّه، بل وعوضًا عن ذلك، حوَّلَته إلى نوعٍ من الحيوانات.

يا إلهي! فقط نظر إليها أندريس وابتسم. لو كانت أيَّ شخصٍ آخر غير إيڤا، لردَّ صارخًا ملء رئتيه. بالطبع كان كل هذا كَومةً من الهُراء. هذا المدمن الهزيل المريض، وكلُّ ما انجرفا فيه معًا لسنوات

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

مـن تاريـخ ونظريـات، ذابـت كالجليـد. الحـب الأبـدي. أريـد أن أمـوت بـين ذراعيـك. حيـاتي ومـوتي لـك، وحياتـك وموتـك لي.

"إيقـا" سـأل أندريـس "أخبرينـي الحقيقـة. ألم تعلمـي أن اثنَيْنكـما كُنتُـما مجنونـين تمامًـا؟".

"وماذا عَنكَ؟"- سألت.

ردَّ أندريـس: "صـادف لي أن أكـون هنـاك. وإذا أتيحـت لي فرصـة ثانيـة، لَفَعَلتهـا مـرَّةً أخـرى".

أوَّلًا: كي لا تفعليها أنتِ. ثانيًا: لأنني كنتُ أكرهه. كان يُثير أعصابي.

وَثَبَت إيڤا من مكانها بوجهٍ شاحب، وصدغين مُمتَقعيْن:

"أنـت فقـط لا تفهـم! إذا كنَّـا حقًّـا مجنونَـيْن، فهـل تجلـس في السِّـجن بسـبب اثنـين مـن المُغفَّلـين؟ فكِّـر بالأمـر! هـل تهـدر حياتـك بسـبب اثنـين مـن الحمقـى؟".

لم يكـن هنـاك داعٍ لذلـك- فكَّـر، ثـم أجابهـا: "نعـم!"- ومـا الـذي يمكنـه قولـه غـير ذلـك، بعدمـا حاصرتـه كفـأر؟

نعم!

مثل قارون، يبعثر الأرواح.

محض هراء تام.

عليه أن يفكِّر في الأمر كل يوم.

ذهَبَـا إلى المطبـخ. حمَّـرَا بعـض البيـض واللحـم المُقـدَّد، حَمَـلَا المقـلاة إلى الغرفـة وأكَلَا. ثـم ذَهَبَـا إلى غرفـة التلفـاز بالطابـق الثـاني، وجلسـا متجاوِرَيْـن عـلى زوجٍ مـن المقاعـد الحمـراء الناعمـة خلف النخلـة المزروعة في أصِّيـص. مارَسَـا الحـب ليـلًا، وقـد كان جيـدًا بالنسـبة لهـا، جيِّـدًا بشـكلٍ

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

جنوني. شعر أندريس بذلك. ربما كانت تواعد شخصًا ما في الخارج، لكنه لم يُبالِ. لطالما بدا الجنس أمرًا ثانويًّا بالنسبة له. كان كأن تكون كسولًا. الجزء المُهمُّ هو أن تظلَّ هي بجانبه، وأن تحظى بشعور جيد، وبعدها يصبح بوسعه أن يغرق بدوره في تلك الدوامة أيضًا. هذا آخر شيء. أن يغسل نفسه من قلقه وتَوتُّره ورواسب الوقت، يغسلها كُلَّها. يضرب البرق عصاه نزولًا إلى عالم إيثا. ثم يأتي صباح جديد، نظيف وبرَّاق. صفحة جديدة يمكن أن تُفتح. صفحة بيضاء نقية، ما زالت نظيفةً خالية من النقوش. هكذا كان الجنس بالنسبة لأندريس، لكن لها؟ مَن يدري.

لم تَقُل شيئًا.

تلك الليلة، قُرب الصباح، غمر الغرفةَ بَدرٌ مُشرِقٌ بشكل غير عادِيٍّ. حاول جاهدًا أن يُقنع نفسه بأنه كان نائمًا، لكنه في الواقع كان مستيقظًا تمامًا، بحِمل مُميتٍ على صدره، وهو يعانق الجسد الثمين بجانبه، ثم استيقظت فجأةً صارخة.

لم يكن قادرًا على تهدئتها، رغم أنه استطاع أن يجذبها لحضنه، ويُمَسِّد شَعرَها وضلوعها ورُكبَتَيْها البارزَتَيْن. جلست هناك، متكوِّرَة حول نفسها، وهمست أنها شعرت بشرٍّ في الغرفة!

الشيطان كان في الغرفة. فَرَكَ أندريس ظهرها وحاول تهدئتها، وقال إن الشيطان لا وجود له، كان شيئًا اخترعه الناس، لكنها بكت ورَوَت له حلمها: كانت هي وأكسليز يقفان أعلى تَلَّةٍ، كان كل شيء أخضرَ وسعيدًا، وكان هناك قوس قزح وراءهم. لكن ما إن أمسك أحدهما بِيَدِ الآخر، حتى ظهرت الجروح على راحتيهما، وتدفَّق الدَّمُ إلى الأرض.

يا إلهي!، في تلك اللحظة، كان أندريس على استعدادٍ لإطلاق النار على أكسليز عشر مرات، مالئًا جسده المَيِّت بالمزيد والمزيد من الثقوب، حتى يذهب إلى الجحيم مرَّة واحدة وإلى الأبد. هذا المُقرف

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

الوضيـع، ابـن العاهـرة! كان في أحـلام إيڤـا رغـم أنـه مـات منـذ زمـن طويـل. مـا زالـت خطـاه تـدبُّ في أحـلام إيڤـا.

لم يكـن أندريـس قـادِرًا عـلى قتالـه، ولا يمكـن لأحـد أن يقاتـل في الأحـلام؛ لأنـك لا تسـتطيع أن تقتحـم أحـلام غـيرك، بـل تُدعَـى إليهـا. لم يسـتَطِع أندريـس إلَّا أن يكرهـه، كرهـه أكـثر مـمَّا كان يكـره أي شـخص آخـر في العـالم.

وقال هذا لإيڤا، قال لها إنها في تلك اللحظة عينها مع قاتِلٍ.

قال لها ألَّا تَصِفَ الأمر بغير ما كان.

وأنهـا عاهـرة إن سـمحت لأكسـليز بالتجـوُّل بحريـة في أحلامهـا، بينـما هـي نائمـة مـع أندريـس. وأن هـذه المُنشَـأة -لـو لا تعلـم- قـد بُنِيَـت لمـن هـم مثـل أندريـس؛ لأنـه مـن بـين مائـة شـخص يشـعرون بالكراهيـة، شـخص واحـد فقـط سـوف يسـحب البندقيـة، وكان هـو هـذا الشـخص، وهـو لا ينـدم عـلى فِعلَتِـه.

نظـرت إيڤـا إليـه بخـوف، والتمـع بيـاض عينيهـا المُـزرَقُّ في ضـوء القمـر. كان يسـتطيع أن يقـول مـن خـلال تنفُّسـها إن مـا قالـه كان يسـتقرُّ في رأسـها ببـطء.

"أطلقت النار عليه فقط لأنك تعلَّمتَ كيف تقتل في أفغانستان؟".

بالتأكيـد! كانـت البندقيـة موجـودةً هنـاك، محشـوَّة، والأكـثر مـن ذلك، أن إيڤـا ناوَلَتـه البندقيـة بنفسـها. بالطبـع يـا حبيبتـي! وهـل حانـت لـه أيَّـة فرصـة أخـرى للتخلُّـص مـن الوغـد الصغـير الـذي دَمَّـر حياتـه كلَّهـا؟

لكنـه لم يَقُـل ذلـك -لأن تلـك الفكـرة كانـت في هشاشـة سـماء الخريـف الورديـة الرقيقـة كورقـة- لم يَقُـل إنـه عـلى الأرجـح صـدَّق كذبَتَـه الخاصَّـة. يقـول الآن أمـرًا، لكـن في أوقـات أخـرى، حـين يجلـس وسـط غبـار سـاحة السـجن، يراقـب الريـاح وهـي تسـحب أوراق أشـجار الـدَّردار مثـلًا،

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

حين تكون إيڤا بعيدة جدًّا، في الطرف الآخر من العالم، خلف سور الأسلاك الشائكة، ومائة وأربعة وعشرين كيلومترًا من الغابات والأنهار والمستنقعات، أو حين يمارسان الحب، ويكون قادرًا على التحرُّر من نفسه، من سَرْجِه المؤلم، شاعرًا بأنفاسها الراضية، في تلك اللحظات يمكن لأندريس أن يفعل المستحيل، فلتتدفَّق كلُّ سعادة العالم الآن إلى إيڤا؛ لأنها غالية، ولأنها تستحقُّ. وإذا كانت تحب ذلك ابن العاهرة أكسليز هذا، حسنًا، في تلك اللحظات -رغم أن هذا يبدو مستحيلًا- كان بوسع أندريس أن يتخيَّل أن من حَقِّها أن تحب أكسليز. حتى أكسليز! وفي تلك اللحظات، تفحُّ حَيَّةٌ من نوعٍ ما، مُفعَمَةً بالحياة كقُفَّازٍ من صوف لاتغاليا، في أذن أندريس، أن هذا هو الحب الحقيقي الذي كُتب عنه في الكتاب المُقدَّس. الحب الذي لا يَكرَه، ولا يَغارُ ولا يُدمِّر ولا يخضع، فقط يحملك نحو الشمس... يحملك ويحملك ويحملك، وإلى الأبد يحملك.

لكن لا حاجة لإيڤا بمعرفة ذلك.

فقط أضاف أنه الشخص الوحيد الذي بمقدوره أن يناديها بالعاهرة، وأنه -مَعذورًا- لو رأى شخصًا آخر يناديها بالعاهرة، سيقطع رقبته.

"لقد جعلت مني مُستَنقَعَكَ الشخصيَّ"- قالت بهدوء بعد بُرهَة.

ربما في تلك اللحظة كانت قد حَسَمَت أمرها.

ثم راح كلاهما في النوم على الأرجح.

في الصباح كان الجو غائمًا، وكان الهواء ممتلئًا برائحة الربيع الساحرة، لكن إيڤا كانت شاحبة وصامتة بشكل غير طبيعي. حتى تلك الساعة الأخيرة الجميلة عادةً، حيث يرتديان ملابسهما عادة، وينظِّفان المكان، ويغرقان في أفكار الفراق والذكريات والنظرات- صارت الآن قاسِيَةً كحَجَرٍ. ونَسِيَ الحُرَّاسُ أمرَهم.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

بمجرَّد أن ارتديا ملابسهما، جلسا مُتخشِّبَيْن على السريرين المتقابِلَيْن، بَدَيَا كما لو كان هذا لقاءهما الأوَّل على الإطلاق. حان الوقت لكي يذهب كلٌّ منهما طريقه، لكن لم يأتِ الحراس. انزلق عقرب الساعة الأسود ببطء إلى أربع دقائق بعد العاشرة، ثم إلى عشر دقائق بعد العاشرة.

ازدادت الغرفة إظلامًا بالتدريج، وأخيرًا، تصدَّعَت السحابة الزرقاء الداكنة بالخارج بشرخ مهول، وضربت الأرض بغُصنٍ شائك يعمي الأبصار، وأطلقت العنان لسَيلٍ رماديٍّ. ضرب المطرُ النَّوافذَ بقوَّةٍ حتى اهتزَّ إطارها كطبلة من الصفيح. قفز أندريس على قدميه وراح يقطع الغرفة مسرعًا جيئةً وذهابًا، وفجأة خلع سترته وحلَّ أزرار قميصه. كان قميصًا بنفسجيًّا مع خطوط داكنة، وربما كان أجمل قطعة ملابس امتلكها على الإطلاق. ووضعه حول أكتاف إيڤا.

"خذي قميصي"- قال. "سيغُرقك المطر".

"سيكون مثاليًّا... أن ينسوا أمرنا في السجن"- ردَّت بضحكة مزيَّفة ونظرة خاطفة على الساعة.

مرَّت خمس دقائق أخرى. ظنَّ أندريس أنه سيفقد عقله.

"فقط تخيَّلي، سيصير قميصي حرًّا خلال دقائق"- قالها، فقط ليقول أي شيء. فقط ليملأ الصمت المريب.

استمرَّ هزيم المطر بلا نهاية، ثم انقطع فجأة، انطفأ كشمعةٍ رَكَلَها أحدهم. جاء الحُرَّاس، فوثب إيڤا وأندريس. مطيعًا وضع أندريس يديه وراء ظهره. تكَّة انغلاق الأصفاد، خشخشة المفاتيح، أندريس على الباب، ثم صارت بجانبه، أقرب، أقرب، قبلة، كعضَّة في يأسه، الدفء، شذاها، ينزع تطفل الحارس أصابعها من أكتاف أندريس قائلًا: "وقتك انتهى، سيدتي!". يذهب أندريس، يأخذ بضع منعطفات في المَمرِّ، يعرف الأبواب التي بها نوافذ زجاجية، تلوِّح إيڤا

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

مبتعـدةً خلفهـم، ويرفـرف قميصـه عـلى ثوبهـا الأبيـض، تلـوِّح، وجههـا، ثـم منعطـف آخـر، ثـم الفـراغ، القطـاع، والعاصفـة.

باحة السجن والصمت، ثم انتهى كل شيء.

وقتك انتهى.

ونعـم، بعدهـا، في موعـد الزيـارة التاليـة انتظرهـا دون جـدوى. كل مـا حصـل عليـه هـو رسـالة منهـا مـع قميصـه: "انتهـى كل شيء حقًّـا الآن. إيڤـا".

لا يـزال القـماش المطـوي عـلى عجـلٍ يحمـل رائحتهـا ونعومـة ثدييهـا. لقـد كانـت هنـا! تركـت حقيبـةً صوفيَّـةً مـع القميـص والرسـالة. وقفـت في الطابـور عـلى بُعـد خمسـين مـترًا تقريبًـا. اللعنـة. ليـس بينهـما سـوى الجـدران والحُـرَّاس، لكنـه لم يشـعر بـأي شيء! ماتـت حواسـه، لقـد كانـت هنـا، لكنـه لم يشـعر بالقلـق، ولم يتحـرَّك، ولم يشـعر بـأي شيء... كجَمَـلٍ عجـوز، كحصـانٍ عَـربيٍّ مُرهَـق لم تَعُـد أنفـه تشـمُّ المـاء.

لم يحلم بها حتى.

أيُّ بؤس وضياع!

لم يكـن مسـتعدًّا للأسـوأ، لأن تتركـه إيڤـا في منتصـف الطريـق، وحـده في السـجن. في النهايـة تعتـبر كالخيانـة. كانـا معًـا، غارِقَـيْن لعنقيهـما في الخـراء ذاتـه. ثـم هـذا!

كانـت تعرفـه حـقَّ المعرفـة. تلـك حقيقـة. سـيمضي عقوبتـه حتـى تنقـضي المـدة. ولكـن كيـف يمكـن أن يتحـوَّل الحـب إلى كراهيـة مُسـتَعِرَة بهـذه السرعـة؟

"انتهى كل شيء حقًّا الآن. إيڤا".

والقميص.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

ولكـن بالعيـش مـع إيڤـا، بطبيعـة الحـال، عليـك أن تكـون مسـتعدًّا لـشيء مـن هـذا القبيـل...

لم يكـن جاهـزًا. أمـضى السـنوات الأربـع المتبقيـة مـن مـدَّة عقوبتـه يُخطِّـط للانتقـام.

بطبيعة الحال.

أصبـح السـجن منزلـه. ومـا الـذي يمنعـه مـن العـودة إلى المنـزل إذا كان لديـه سـبب وجيـه؟ قـرَّر أن يمحـو إيڤـا مـن عـلى وجـه الأرض.

ثـم كان هنـاك ذلـك اليـوم الخريفـي الـذي لا يُنـسى، رطوبـة جليديـة غَمَـرَت السـماء، وتَناثَـرَ الوَحـلُ فـوق حذائـه ونخـر الصَّقيـع عظامـه. يـوم كان أندريـس في الفـرن.

جُلِبَـت أكـوام مربوطـة مـن الـورق لتغذيـة فُـرن غُرفَـةِ المِرجَـلِ بالقطـاع. بقايـا أعـداد المجـلات والكتـب الفاشـلة، والمـواد التعليميـة. وفي ذلـك اليـوم، كان كتـابٌ أزرَقُ بغـلافٍ مـن القـماش عـن الأسـاطير اليونانيـة القديمـة مـن مُقـرَّرات المرحلـة الثانويـة مُلقًى بـين كُتَـلِ النشـارة المُتجمِّدة. دون أي سـبب تقريبًـا، مدفوعًـا بشـكل رئيـسي بالفضـول والكسـل، دخَّـن أندريـس سـيجارة وقـرأ صفحـة مـن الكتـاب، ثـم وجـد نفسـه غـيرَ قـادر عـلى تركـه.

هنـاك! دفـن لحيتـه غـير الحليقـة في ياقـة سـترته. في طـوق أسـفل سـترته السـفلية. لـو تـأتي إيڤـا لرؤيتـه مـرة أخـرى، لقـرأ لهـا هـذا الكتـاب- لم تكـن هنـاك طريقـة أوضـح لقَـوْلِ ذلـك. مـا كان قـوم أندريـس يشـيرون لـه بـ "الحـب" كان محـضَ هُـراءٍ تـامٍّ.

ثرثرة فارغة على ضوء الشموع.

عـرف الإغريـق أن الآلهـة كانـت خالِـدةً، وحكـوا حكايـات خالـدة. بمجـرَّد أن يوضـع في الزمـن، يفقـد الفـاني قدرتـه عـلى التفكـير في حكايـة

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

خالـدة، أو قـصٍّ واحـدة. وجـود المـرء مربـوطٌ حـول الحيـاة والمـوت، كشريـط حـول عَصَوَيْـن سـحريَّتَيْن. كان يتطلَّـع لمعرفـة كيـف سـيحلُّون مسـألة الخلـود- إذا كان للقصـة بدايـة، لكـن مـن دون وسـط أو نهايـة، فبـأي هيـكل سيمسـك لحمهـا؟ إذا لم يتحـرَّك إلـهٌ مدفوعًـا بموتـه، فبـماذا يفكِّـر هـذا الإلـه؟ اتَّضَـحَ أن الآلهـة لا تُفكِّـر سـوى في القـوة. يضـع مبـدأ القُـوَّة الوجـود في بنـد الخلـود.

أخـذ أندريـس الكتـاب. وضعـه تحـت قميصـه بـدلًا مـن أن يرميـه في الفـرن، وفي الليـل، قـرأ عـن أوديسـيوس مـن مصبـاح يـدوي:

"بعـد عـدَّة أيَّـامٍ مـن السَّـفَر، وصلـوا إلى حيـث تخفـي أغصـان الصفصـاف الكثيفـة وأشـجار الحـور الطويلـة مدخـلَ العـالم السـفلي؛ أرسى المسـافرون السـفينة عـلى الشـاطئ وبقـوا لحراسـتها. ذهـب أوديسـيوس وحـده. عندمـا وصـل إلى مدخـل هاديـس، تابـع كـما أمَرَتـه سـيرس: سـكب في البدايـة مُزلِقـات الحليـب والعسـل والنبيـذ والمـاء؛ لاسـتحضار شـبح تيرسـياس، وقتـلِ كبـشٍ أسـودَ وسَـفكِ دَمِـه في الحفـرة التـي حفرهـا أمـام المدخـل. ظهـر سِربٌ مـن الأشـباح في الحفـرة ليـشرب مـن الـدم الدافـئ، لكـن أوديسـيوس أبقاهـم بعيـدًا؛ كي يتمكَّـن أوَّلًا مـن سـماع شـبح تيريسـياس الطِّيبـي العجـوز، الـذي كان يقـترب ببـطء مـن الحفـرة.

فكَّـر أندريـس في أكسـليز. لـو كانـت لأندريـس حفـرة ممتلئـة بالدمـاء عنـد مدخـل العـالم السـفلي، لَحَـامَ أكسـليز حَولَهـا بنظـرة جائعـة.

"ثـم اقتربـت أُمُّ أوديسـيوس مـن الحفـرة. وكانـت قـد ماتـت كمـدًا في غيـاب ابنهـا". تذكَّـر أندريـس أمـه. حـين كفَّـت إيفـا عـن المجـيء، حلَّـت أُمُّـه محلَّهـا ببُـطءٍ، لكـن الأمـر كان مختلفًـا تمامًـا. كانـت أمـه تحـضر لـه كيسًـا مملـوءًا بلحـم الخنزيـر المُقـدَّد، والبيـض، والبصـل، والشـاي الأسـود، والسـجائر، وتُعـدُّ لـه العشـاء، ثـم يغلبهـا النعـاس بعـد كل هـذا العمـل. وفي المسـاء، تعقـص شـعرها، وتقبِّلـه قُبلَـةً واحـدة عـلى كل خـدٍّ، وتبـكي

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

حـين يفترقـان في الصبـاح التـالي... كانـت زياراتهـا لابنهـا في السـجن مثـل زيـارة مُنتَجَـعٍ ترفيهـيٍّ جاهـز.

سريعًـا تخـبره ببعـض الأخبـار المهمـة- مـا الجديـد، مَـن مـات، ثـم تصمـت...

"ثم اقتربت أم أوديسيوس من الحفرة، ماتت كمدًا في غياب ابنها".

فكَّـر أندريـس في يـد والدتـه الكبـيرة المرهقـة وهـي تتـدلَّى بجـوار السريـر، حيـث كانـت تنـام كلـوح خشـب ووجهها لأسـفل عـلى الوسـادة.

"ثـم اقتربـت أم أوديسـيوس مـن الحفـرة. وكانـت قـد ماتـت كمـدًا في غيـاب ابنهـا. أخـبرت أوديسـيوس أن منزلـه في إيثـاكا كان بَعـدُ يعـجُّ بخُطَّـاب بينيلـوبي الذيـن لا يَكِلُّـون. بينيلـوبي التـي كانـت مخلصـةً تنتظـر عـودة زوجهـا، لكـن ابنـه تيليماتشـوس كان أصغـر وأضعـف مـن أن يطـرد الخُطَّـاب. غـادر ليرتـس العجـوز -الـذي أَحزَنَـه مصـيرُ ابنـه أوديسـيوس- المدينـةَ، وعـاش في الريـف بـين العبيـد".

فكَّـر أندريـس في والـده. لم يهتـمَّ والِـدُ أندريـس بمصـيره. ربمـا وَقَـرَ أَلَـمٌ دفـينٌ في أعماقـه، وتـآكل كل مـا عـدا ذلـك بفعـل عُمـرٍ مـن العمـل الشـاق. كيـف يجيـد الاعتنـاء بجَـرَّارِه، لا بنفسـه أبـدًا. لم يسـمح أبـوه لنفسـه بالتطلُّـع لأيِّ شيء لفـترة طويلـة جـدًّا. لا ابنـه. لا مسـتقبله، ولا حتـى ماضيـه.

كان لوالده فكرتان عظيمتان:

- عليك أن تعيش الحياة التي مُنِحْتَ.
- يعيـشُ المَـرءُ ويعمـل، وذات يـوم، يُـضرَبُ مـن الخَلـفِ بجـاروف، ويُـزَجُّ بـه في قـبر.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"غـادر ليرتـس العجـوز الـذي أحزنـه مصـير ابنـه أوديسـيوس المدينـة، وعـاش في الريـف بـين العبيـد في الشـتاء، ينـام عـلى الأرض بجـوار الموقـد، وفي الأَشـهُر الأكـثر دفئًـا ينـام في البسـتان عـلى سريـر مـن الأوراق ناعمـة".

مـع ذلـك، قالـت والـدة أندريـس إن أبـاه قـد أصابـه الخـرف بفعـل الشـيخوخة. صـار جافًّـا وهشًّـا كعصفـور، وبـكى كثـيرًا. إنـه في طريقـه إلى الرحيـل؛ ولهـذا صـار هشًّـا مثـل الغُرَيِّبـة، يضحـك مـن بـين دموعـه.

لا يريـد تجربـة ذلـك، لـن يقـدر حتـى عـلى مشـاهدته. هـذا الرجـل المُـؤذي الصلـب الحاقـد، الـذي لم يكـن لـه قلـب؟ بَـكَّاء؟

أيَّ شيء ما عدا ذلك.

ذات مـرة، أتـت أُمُّـه وفي جَعبَتِهـا سِرٌّ. خـلاف المـرَّات الأخـرى، أبقاهـا أَرَقٌ غريـب مسـتيقظةً. جلسـت عـلى السريـر، تمضـغ الحلـوى الصلبـة التي كانـت قـد أحضرتهـا لـه، تُطَـوِّح سـاقيها إلى الأمـام وإلى الخلـف، تراقبـه بينـما يدخِّـن بجـوار النافـذة. بالخـارج، كانـت أمسـيةً صيفيَّـةً حـارَّة.

التفت أندريس إليها، وأخيرًا سألها مباشرة:

"ماذا؟".

احمرَّت أمُّه خَجَلًا ومَرَّرَت منديلًا على جبهتها، وتحدَّث بسرعة:

"جاءت إيڤا للزيارة".

تراجـع أندريـس جالسًـا عـلى كـرسي، مُسـدِّدًا نظـراتٍ ثاقِبـةً لعينَـيْ أُمِّه المنكسرتـين. خطفـت نظـرة عـلى ابنهـا فأصابهـا الخـوف، وفهمـت أن عليها أن تنتهـي سريعًـا مـمَّا بَدَأَتـه مـن حديـث:

"صـار لهـا شـأنٌ كبـير الآن. ذهبـت إلى كلِّ أنـواع المـدارس، ولديهـا سـيَّارة، مضـت إلى أبيـك فرمـى ذراعيـه حـول عُنُقِهـا وبـكى، وأخبرهـا أنهـا سـتكون دومًـا مَوضِـعَ ترحيـبٍ في بيتنـا. لكننـي... أنـا... أنـا... لم أسـتَطِع أن أقـف هنـاك وحَسـبُ. إحـم... وكيـف لي أن أفعـل؟ كان عـليَّ أن أقولهـا.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

أقـول إنهـا لعينـة، خانـت ابنـي وتركتـه ليتعفَّـن، وأنَّ عليهـا أن تبقـى بعيـدًا، بعيـدًا جـدًّا مـن بيتـي، وإلَّا فلـن أكـون مسـؤولةً عـن أفعـالي".

احمـرَّ وَجـهُ أُمِّـه وهـي تتكلـم، ولوَّحَـت بذراعيهـا بحِـدَّة، كـما لـو لتُبعِـد صـورة إيفـا عنهـا:

"أمَّـا بخصـوص ابنتـك، فقـد أخبَرتُهـا أن بوسـعها أن تُخفِيَهـا أينـما أرادت، حـين يخـرج أندريـس مـن السـجن سـيرى ابنتـه، لا شـكَّ في هـذا".

عـاد أندريـس ينظـر إلى النافـذة. أُمِّـي، أنـتِ تكذبـين، أعرفـك جيِّـدًا- كان بإمكانـه أن يقـول لهـا ذلـك. كان بوسـعه أن يخبرهـا. لكنـه لم يَقُـلْ شـيئًا. بالخـارج مـشى قِـطٌّ عـلى شريـط الرمـال المرسـوم بدقَّـة.

بعد أن أفضت بحمل قلبها، راحت أمه في النوم سريعًا.

بالخارج كانت أمسيةً صيفيَّةً حارَّةً.

وجـد أندريـس ديانتـه في الأسـاطير اليونانيـة القديمـة. قـرأ عـن سـيلا وكاريباديـس، وقـرأ عـن السـايكولبس، وبوليفيمـوس، والحوريـة كاليبسـو، وحـول معانـاة بروميثـوس، ومحاكـم هاديـس. أندريـس الـذي قـضى أيامـه ولياليـه مـع القَتَلَـة واللصـوص، قـرأ وفَهِـم.

الابـن الـذي -بنـاء عـلى تعليـمات أُمِّـه- أخـذ المِنجَـلَ وأخـصى والـده، الـذي اختلـط دَمُـه بزَبَـدِ البحـر لتُولـد رَبَّـةُ الحُـبِّ. الأب الـذي، لرُعبـه مـن قُـوَّة أبنائـه، ابتلعهـم بالكامـل. ربَّـات الحُسـن والإلهـام والفكـر- لـكل سـجينٍ نَصيبُـه منهـنَّ؛ رفعتهـم المسـافَةُ والعُزلَـةُ والرَّغبـة لِـمَا فـوق مصـاف الآلهـة. كان زيـوس المُفضَّـلَ لأندريـس. مُتعطِّشًـا للمعرفـة وخائفًـا مـن فقـدان قوتـه، ابتلـع هـذا الرجـل زوجتـه الأولى، وهـو مـا أرادتـه والدتـه. "ابتلـع زيـوس ميتيـس الحكيمـةَ؛ فتخلَّـص بذلـك مـن وريثـه، واكتسـب حِكمَتَهـا".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

لقد فهم هذا النَّوعَ من الحب، لا ذلك الافتتان المتأوِّه الذي يأتيك باستمرارٍ في صورة أغانٍ على التلفاز والإذاعة. يَودُّ لو ابتلع كلًّا من إيڤا ومونتا، سيكونان في بطنه، حكمة إيڤا وجمال ابنتهما، كل شيء في مكان واحد، في مكانه. لم يكن يعرف كيف يحب، فقط يشتهي بجموح، وبين أبطال الإغريق وجد مكانه. هنا، في السجن، لم يكن ثَمَّ عَجزٌ في النساء الغَيورات مثل هيرا، التي قتَلَت أطفال غريمتها وحرَمَتها النوم؛ كي تهيم على وجهها في العالم كشبحٍ، إلى أن أشفق زيوس عليها ومنحها القُدرَةَ على اقتلاع عَينَيْها كي تستريح أخيرًا. كان هناك من أمثال دانوس، الذي جعل بناته يَقتُلنَ أزواجَهنَّ. أو مَنْ هُم مثل تانتالوس، الذين -بغَطرَسةٍ لا تُصدَّق- ضحَّى بابنه وقدَّم لحمه للآلهة. ومَن هم مثل ديميتر، مَن أذهلتهم خسارة فادحة، فراحوا يأكلون كل ما تضعه ربَّات القدر أمامهم كالعميان، حتى لحوم الآخرين. ناهيك عن فواتح الشَّهيَّة، مثل: الأسف واليأس وإدمان الكحول؛ هنا يمكنك أن تجد آريس بكل قواه الشريرة، وأبنائه، رعب وخوف، الذين وجدوا المتعة في انسفاك الدماء.

لقد أَحبَّ أندريس سَردَ هذه القصص لأنها كانت تحكي عمَّا قبل أن يُصلب شخصٌ للتكفير عن خطايا الآخرين، وقبل أن يُنقَذَ أَحدٌ.

كان السجن هو المكان الذي يصطاد منه القساوسةُ الأرواحَ يومًا بعد يوم، كغوَّاصي اللآلئ. أبدًا يسعون للحصول على اعتراف. وكان ذلك الهمجي المخيف الحليق العتيد، بعينيه الداكنتين وهيئته التي تنطق بالإجرام، هو الخيط المثالي لِلَضْمِ تلك اللآلئ.

ذهب إلى القُدَّاس واستمع، ولكن لم يشعر في قلبه أبدًا، ولو للحظة، بذلك الشيء الأساسي الذي طلب القساوسة منه أن يشعره، تلك الرغبة في السقوط عند قدمَيْ المسيح، ومناداته بالربِّ الراعي. في إلقاء مسؤولية أفعاله على الرَّبِّ الراعي، وارتجاء المغفرة. بإمكان

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

أندريس أن يسقط عند قدَمَيْ المسيح، كما سقط على الأرض بجوار جُثَّةِ شخصٍ غريب في زنزانة مُظلِمَة. لا شكَّ أن المسيح كان رجلًا عادِيًّا جدًّا. بإمكانه أن يغسل أقدام المسيح ويُقَلِّم أظافره، كما فعل -في أكثر من مناسبة- مع زميله المُسِنِّ في الزنزانة، والذي كان مُنهَكًا حَدَّ الخمول. لكنه لم يستطع أن يشعر بأهم شيء: الرغبة في إلقاء ذنبه على أكتاف رَبٍّ ما. ذنب أندريس شأنه وحده، وهو جزءٌ منه. كان هذا موقفه طوال حياته، وهو على وعيٍ تام بذلك، ورغم ضبابيَّته، إلا أنه كان يشعر بحُرِّيَّته ومسؤوليَّته في ذلك الموقف.

لم يتمكَّن الملك أوديب -بعد أن قتل أباه وتزوَّج بأمِّه من دون قصد- أن يحصل على صكِّ غفران واحد. تحقَّقت اللعنات، لكن لم يكن هناك صكوك غفران أبدًا. لم يسبق لأحدٍ أن صُلب من أجل أوديب. كان عليه أن يقبل بالعمى مصيرًا فرديًّا. كان عليه أن يقبل نفسه كما هي عليه، ويفقأ عينيه، ويهيم على الطريق بعصاه ناعيًا حظَّه وحظَّ أبنائه.

في المقابل، كان الإغريق بُخَلاءَ في الدروس. اثنان فقط في الكتاب بأكمله، بما يشبه -إلى حدٍّ كبير- تلك الأفكار الحقيقية التي يمكن أن تخطر للإنسان على مدار حياته، وكلاهما مشروحٌ باختصار في الجزء الذي يحكي عن ميديا وجايسون، في مدينة كورِنث.

"لكن السعادة والشرف والثناء الذين كانوا يأملون فيهم لم يَصِلوا إلى اليونان أبدًا. تحقَّقَت كلماتها: "الدِّماء لا تُوَلِّد إلَّا الدِّماء".

قتَلَت ميديا شقيقَها من أجل جايسون.

ربَّة الحب أفروديت، التي مَنَحَت الناس الكثيرَ من السعادة والفرح، كانت أيضًا بلا رَحمَةٍ في أغلب الأوقات. "العاطفة التي تزيد قوَّةً عن الضمير، تجلب أسوأ أنواع الشر للبشر".

قتَلَت ميديا أطفالًا من أجل جايسون.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يتذكَّر أندريس اللحظة التي قرأ فيها هذه الكلمات، وصولًا إلى أصغر التفاصيل. يشخِّر رفاقه الأربعة في زنزانتهم المُظلِمة، الحارَّة بفعل الموقد، المُفعَمَة بالروائح الجسدية، كان مستلقيًا على سرير سُفليٍّ في مواجهة النافذة. في الخارج، هزَّت عاصِفةٌ من عواصف نوفمبر المصباح الأبيض الكبير للأمام والخلف، فبدا الأمر كما لو علَّق أحدُهم بدرًا في خيط، وراح يُلوِّح به فوق جدار السجن. احتلَّت الصراصيرُ وتيَّارُ هواءٍ بارد رُكنَ الزنزانة، وتوهَّجَت بطَّانيَّةُ أندريس بضوء الكشَّاف الذي كان يحمله أسفلها. بعد أن انتهى من القراءة عن ميديا، سدَّد نظرةً متحجِّرةً إلى أعلى، إلى الشبكة المعدنية للسرير العلوي فوقه.

كانت المرأة مستلقيةً بعينين مفتوحتين.

وكان ذراع أندريس قد خُدِّل بشكل لم يَعُد يستطيع احتماله. نهض، بالأحرى خرج من غيبوبة الأفكار التي كان فيها، وحاول سحب ذراعه من تحت ظهر المرأة، وعندما نظر إليها، رأى أنها كانت مستلقيةً بعينَيْن مفتوحتين. متى استيقظت؟

خائفًا من أن تقول شيئًا ما فتقاطع القصة، أمَرَها:

"نامي بعض الوقت!".

أغلقت المرأةُ عينيها مُطيعةً.

في تلك الليلة مع ميديا، تمَّ شفاؤه؛ لأنه أخيرًا تَمكَّن من رؤية نفسه من الخارج. جوالٌ طويل من الحماقة مستلقٍ تحت بطانية سِجنٍ خفيفة. في تلك الليلة أطلقوا سراحه. أدرجوا اسمه على قوائم الاحتياط. عَلِمَ أنه لن يقتل أحدًا مرَّةً أخرى، ولا حتى إيفا.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

انتهى شيء ما، انكسرت العاطفة فجأة. واتَّضَحَ أن مصيره كان معلَّقًا في نهاية تلك الشَّعرة الرفيعة. وقد نضج الآن، وسقط وتدحرج بعيدًا، كقشرة من الجلد الميِّت.

يا للغرابة!- حين كان الحبُّ يتدفَّق من خلاله، لم يكن بحاجة إلى أي شيء، ولا حتى قميصه الوحيد. فعل أشياء فظيعة، لكن يمكن تبريرها جميعًا. حُبُّه. حبُّ أندريس.

الآن وقد خمد الحُبُّ، بوسعه أن يبدأ أيَّ شيء، على الرغم من أن لا شيء سيُشعره بالامتلاء. لم يكن بوسعه أن يتخيَّل ما الذي قد يحتاج إليه ليملأ هذا الفراغ المهول المحيط به.

لم يحاول أندريس فهم ما حدث في مُخِّه عندما قرأ قصة ميديا، ربما تزامن الأمران: ميديا، وتَحرُّر عواطفه الخاصَّة، ولم يكن هناك ما هو مشترك بينهما سوى الأحداث المروِّعة التي تقع على مدار ليلة واحدة.

ربما لم تقصد أفروديت أن تكون هناك بالمقام الأول. هل نزعت ربَّةُ الحب السَّهمَ المُتغلغِلَ المتقيِّحَ من قلب أندريس، قبل أن تختفي بلا أثر؟ بدون رأس السهم، تفتَّت جسده كصَدَفَةٍ خاوية.

ظلَّ في منتصف الطريق بلا إيقا، بلا غاية، بلا مستقبل. علم أنه من تلك النقطة، ستكون الأمور هادئة وسيُطلَق سَراحُه قريبًا. لقد كان ساعة مكسورة، آلية معيبة، لِمَ يقاوم ذلك؟ إنهم لا يحتفظون بأشخاص من هذا النوع في السجن.

في الحقيقة، كان عليه أن يفقأ عينيه في تلك الليلة بالذات.

"هل تريد بعض الشمبانيا؟".

أخاف السُّؤالُ الذي قيل في الظُّلمَةِ الأليفة أندريس كالجحيم؛ فقد أطلقته المرأةُ فجأةً كبندقيَّة ألعابٍ ناريَّة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

وكانت تستلقي هناك بعينين مفتوحتين مرَّةً أخرى.

سأل:

"الآن؟".

"لِمَ لا؟".

حمَـلَا نفسـيهما عـلى أقدامهـما، وأضـاءَا نـور المطبـخ، وفَـرَكَا عيونهـما الغائمـة. كان يتابـع حـركات مرفقيهـا المكتنزيـن. كان المطبـخ صغـيراً، ملأتـه المـرأة عـلى الفـور. أُعجِـب أندريـس بهـذا... بمجـرَّد المراقبـة. كان يتأهَّـب للجلـوس في أحـد الأركان حـين قالـت المـرأة:

"أعطني تلك الكؤوس!".

"أين؟".

"على الرَّفِّ جوارَ رأسِكَ".

اسـتدار أندريـس نحـو الجـدار، ليجـد نفسـه وجهًـا لوجـه مع رسـوماته. حـدَّق فيهـا طويـلًا كـما لـو كان يـرى شـبحًا، ثـم سـأل المرأة:

"ما هذا؟".

"كؤوس".

"أرى الكؤوس. ولكن وراءَها؟".

"هذه؟ أوه، هذه. إنها بطاقة".

بحَـذَرٍ شـديد، أخـذ أندريـس كأسَيْ شـمبانيا رقيقَـيْن في يديـه القاسـيتين، وناولهـما للمـرأة. ثـم أخـذ البطاقـة المائِلـةَ عـلى الجـدار خلـف الكـؤوس، وجلـس عـلى مقعـد بجـوار الطاولـة الصغـيرة. تأمَّـل الورقـة الصفـراء بتركيزِ لاجِـئ سُـحِبَ مـن البحـر ومُنِـحَ لتَـوِّه جـوازَ سَـفرٍ، وهـو لا يـكاد يُصـدِّق أن هـذا الـشيء قـد ينقـذ حياتـه.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

كانت البطاقة قد رُسِمَت بالقلم الرصاص على ورقة كراسة عادية، ثم ثُبِّتَت إلى قطعة من الورق المُقوَّى. زُيِّنَت الحواف بسلكٍ شائِكٍ انعقد أعلى الورقة حول وردةٍ حَمراءَ. فَصَلَ تاريخٌ ما بين كلِمَتَيْ لودميلا- رسلان، بدا فيه الرقم "2" كبجعَةٍ تحني رقَبَتها بفَخرٍ. وكان الرسم أيضًا لنجم الشمال والشَّفَق القطبي الشمالي. وبحروف صغيرة في الأسفل كُتِب: حَلمَت في سهوب القوقاز...

لم تكن محاسِبةً إذًا! هذا إذا هو المكان الذي رأى فيه خَطَّ اليد هذا ونفس التاريخ من قبل! كيف استطاع أن ينسى؟

سأل أندريس:

"لودميلا؟".

"نعم".

جلَسَت على المقعد المقابل على الطاولة ولفَّت خُصلَةَ شَعرٍ حول إصبعها. بَدَت مُرتَبِكةً، لا فِكرةَ لديها عمَّا يجب فِعلُه الآن. عندما رفعت عينيها لتلتقي بعينيه، كانتا تلتمعان بالدموع.

"كانت تلك آخر بطاقة أرسلها زوجي".

أرادت أن تقول له أكثر من ذلك، لكنه أَسكَتَها بإيماءَةٍ نافِدَة الصَّبر. لا يزال لا يستطيع أن يُقرِّر ما إذا كان عليه العودة إلى المنزل على الفور أم لاحقًا. إذا بدأ الحديث الآن فهذا يعني أنه لن يعود إلى المنزل إلَّا بعد ذلك.

لكنه بدأ الحديث. لم يصبح وحشًا بلا قَلبٍ بَعدُ.

"لستِ بحاجةٍ لإخباري. أنا مَن رَسَمَها".

تغيَّرَت التعابير على وجه المرأة بسرعة كالرياح، طارَدَت بعضها بعضًا كظلال الأوراق المتساقطة، بينما جلست متخشِّبةً ومُنتَصِبَة، تبحث عيناها في وجهه عن معنى لهذا كله.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"التقينا أنا ورسلان في المستشفى المركزي بالسجن. كان محجوزًا بالفعل حين أُدخِلتُ. بقينا معًا لمُدَّة أسبوع أو أقل، لا أتذكَّر. ليس أكثر من أسبوع بحال. كنتُ هناك حين مات".

أطلَقَت المرأةُ شهقةً ضعيفة، وفاضت دموعها أخيرًا. مسَحَت البَلَلَ على خديها بظهر يدها. ناولها أندريس مِنشفةً، طَوَتها فورًا كعُشِّ السنجاب ودفَنَت وجهها فيها. انتظر بصبر أن ترفع عينيها إليه مرة أخرى.

"بوسعك القول إنني كنتُ فنَّانَ السجن. أطَّرتُ الصُّورَ بحياكة الأسلاك البلاستيكية حول حوافِّها، رسمت على القماش بدبابيس المشبك والخيط المُلوَّن، حَفَرتُ الخشب، ورَسَمتُ. عرف رسلان بالأمر وأراني رَسمَتَكِ. طلب مني أن أرسم البطاقة وأكتب كلماتٍ كما كنتِ تفعلين. أُحِبُّ خطَّكِ كثيرًا. ميَّزتُه على الفور، لكنني اعتقدت أنَّكِ كنتِ تعملين في السجن كمحاسِبَة".

أومأت له المرأة بوهن. فتَّشَت في أحد الأدراج دون أن تنظر بعيدًا عنه، ووَضَعَت شمعةً على المنضدة. أحرقت أصابِعَها بعود الثِّقاب الأوَّل.

"قُل لي كيف مات"، قالتها بصوت غائم.

"مات ليلًا. كنتُ أكتب رسالةً إلى زوجتي، وكان مستلقيًا. اعتقَدتُ أنه قد ينام. ثم بدأ السُّعال فجأة، ركض إلى الباب ودقَّ عليه كالمجانين. وفجأة، تقيَّأ قُرابَةَ دلوٍ من الدماء، ثم سقط على الأرض. رفَعتُه قليلًا، وحاوَلتُ أن أحمله، لكنه كان قد بدأ بالفعل في انتفاضات الموت. جاء الحُرَّاسُ وأخذوه".

مرَّت لحظة من الصمت.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"لا تقلقـي، حـدث كل ذلـك بسرعـة. لم يُعـانِ. ركـض إلى البـاب في أقـل مـن الثانيـة. لاحقًـا قالـت المُمرِّضـات إن واحِـدًا مـن الأوردة الرئويَّـة لديـه قـد انفجـر".

المزيد من الصمت.

"لكنَّـه تَمكَّـن مـن إرسـال البطاقـة للخـارج. متـى عيـد ميـلادك؟ في وقـتٍ مـا مـن مايـو، أليـس كذلـك؟".

"الثاني من مايو".

"وما أمر القوقاز، إن لم يكن سِرًّا؟".

"كان شخصًا جَيِّدًا حقًّا"- قالت أخيرًا.

"أنا أعلم. ماذا عن القوقاز إذًا؟".

فكَّرَت المرأةُ قليلًا.

حَلُمَت أنَّه في سهوب القوقاز

يستلقي ساكنًا، برصاصَةٍ في صدره...

ومع ذلك، فأنا الآن لرسلان،

وسأكون مُخلِصةً لوعدي.

ثَبَّـتَ أندريـس البطاقـة خلـف إطـار النافـذة، فصـارت حوافُّهـا مُحاطَـةً بانعكاس الشُّـموع.

وقالت المرأة:

"لقـد أحببنـا الشِّـعرَ، كقصيـدة «رسـلان ولودميـلا» لبوشـكين. كنـتُ أقرؤهـا لـه حـين كان أطفالُنـا لا يزالـون صغـارًا. قبـل أن يَنضـمَّ لتلـك العصابـة اللعينـة ويـسرق محطَّـة الوقـود تلـك... كان مندهشًـا للغايـة مـن وجـود قصيـدة كتلـك- عنَّـا. كان يقـول: «تخيَّـلي؟ إنهـا عنَّـا!»".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

وقَفَت المرأة وفتحت البرَّاد. دفعت الشمبانيا نحو أندريس، وقد هدأت تمامًا فجأة. بهدوء مُماثِل، فتح أندريس الزُّجاجةَ وسَكَبَ السائل البارد في الكؤوس. في انعكاس اللهب، بَدَت الفقاعات المتراقصة في النبيذ الفَوَّار مثل كواكب وحيدة.

رفع أندريس كأسه:

"حسنًا، في صحَّتنا! في صحتنا جميعًا".

أومأت له برأسها وشَرِبَا معًا. نعيم. نعيم مُثلَّج.

قالت المَرأةُ:

"وحالتك..هل تحسَّنَت؟".

"ماذا؟".

"السُّلُّ؟".

فَرَكَ أندريس خَدَّه. لقد أَشعَرَته الشمبانيا بأنه حيٌّ للغاية.

"في الواقع، لم يكن بي أيُّ شيء. كان الوقت ينفد. آخر شيء كان يدور في خلد الناس هو السجون. كانت هناك مجاعة في السجون، مجاعة حقيقية. بِطالة، وجنون. لأبقى حيًّا، كنتُ أسحق السُّكَّر وأستنشقه. كثيرون فعلوا ذلك. ويا لهول البُقَعِ الرِّئويَّة التي كانت تظهر في الأَشِعَّة السِّينيَّة! قولي ما شِئتِ، لكنَّ الطعام في المستشفى كان أفضل بكثير. ولكن بعد حين بدأت أظنُّ أنني كنت مريضًا حقًّا. كل ليلة طعم الدَّم في فمي، في البداية في أحلامي، ولاحقًا في الحقيقة. تبصق لترى الدم، كل ليلة. لا شيء بالنهار. بالنهار- مسحوق السُّكَّر".

أفرغا كأسيهما، فمدَّت المرأة يدها وسَكَبَت مرَّةً أخرى.

"لكن ليلة موت رسلان... كنت أقول- ما المُرعِبُ في الأمر؟ الناس يموتون! كنتُ في السجن لارتكاب جريمة قتل. هكذا تسير الأمور".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

قالها قبل أن يفطن إلى ما يقوله، ونظر إلى المرأة. كانت تُحدِّق فيه مباشرة. لا خوف في عينيها ولا مفاجأة ولا أسئلة. فقط تحديقة لا تتزعزع.

"ولكن ليلة موته، حدث ذلك بسرعة كبيرة. لم يستغرق الأمر حتى خمس دقائق. كان حيًّا، وفجأة كنتُ أحمله بين ذراعي وكان كل شيء ملطَّخًا بدمائه. جاء الحُرَّاس وأخذوه بعيدًا. ثم ساد الهدوء مرة أخرى. عُدتُ إلى سريري ووجَدتُ الرسالة نصف المكتوبة إلى زوجتي. لم أستطع إنهاءها. تحرَّكَ القَلمُ حول الورقة من تلقاء نفسه، هَجَرَتني أفكاري. خمس دقائق فقط، وكان الأمر كما لو أنهى الرسالةَ شَخصٌ آخر. أتفهمينني؟".

أنزَلَ الشَّمبانيا وصكَّ أسنانه. كلمات، كلمات. لقد حَثَّه الشيطان مرَّةً أخرى على سكب مكنونات قلبه. لم يَكُن هناك جدوى. كان عليه أن يغادر حين سنَحَت له الفرصة.

"مشروب آخر يا فنان!".

سكَبَت المَرأةُ بقيَّةَ الشمبانيا. امرأة جيِّدة. هكذا يجب أن تكون المرأة. دافِئة مثل فرن الخبز. أراد أن يخبرها بكل شيء، لكن ذلك لم يكن مُمكِنًا. هناك أفكار مُعيَّنة يجب أن تحتفظ بها لنفسِكَ.

"إذا كان مُمكِنًا، سوف أقرأ لك قصيدة".

هذا النَّوع من الشجاعة جعله يتصبَّب عَرَقًا. شجَّعَته إيفا دائمًا على كتابة الشِّعر، لكنه لم يكن جيِّدًا أبدًا. إيفا من ناحية أخرى... بوسعِكَ القَولُ إنها كانت تضع كل ما يحدث في الدنيا على الورق. مثل التصوير الفوتوغرافي، ولكن ما يُمكِنُكَ فِعلُه بالتصوير الفوتوغرافي كان مختلفًا تمامًا عن ذلك الشيء الذي يسيل الكلمات. اكتب ما شَعرتَ به عندما فتَحتَ عينيك هذا الصباح، كانت تُشجِّعه. كان يجلس بقطعةٍ من الورق ليتنهَّد ويشتكي حتى ينتهي من الأمر. كان

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يظنُّ أن كتاباته -ولا بُدَّ- جيِّدة، ما دامت إيڤا تُلِحُّ بهذا الشكل، لكنها لم تكن. كان يعلم ذلك. وكانت إيڤا ترى ذلك أيضًا. كانت تصمتُ لبعض الوقت بعد قراءة ما يُكتَب. "استيقظتُ مُبكِّرًا، رنَّ المُنبِّه كالمنشار..."- أشياء من هذا القبيل، وليس الأمر أنها لم تكن أشياءَ غَيرَ ذات معنًى. ما رآه أندريس لم يكن الصَّباحَ أو المُنبِّهَ على الورقة، بل معركته السيزيفية عديمة الفائدة مع اللغة، مع الكلمات. انتهت تلك المعركة المُدمِّرة للأعصاب ذلك الصباح، حين استيقظ. ذلك الصباح- أحد صباحات كثيرة، لكنه غير قابِلٍ للتكرار. لم يعرف كيف. لكن الآن؟

الغابة السوداء تحيط بك، امسح جبهتك

المستنقعات السوداء تحيط بك، ابْقَ هنا لتَعِيش

لن تَصِلَ أسنان الكلب الأبيض لك لتعضَّكَ

الحقول السَّوداء تَمدُّ فحيح يديها إليكَ

اتَّخِذْ لنَفسِكَ ملجأً خلفَ غابة الصنوبر، واجمَعْ عُشبَ المروج الحلو

الغابة السوداء تُحيط بِكَ، امَسحْ جبهَتَكَ

انسحابُك إلى النَّفَس التاسع لم يَكُن عَبَثًا

أَبْقِ حُزنَكَ خلفَكَ، وفرحتَكَ بين ذراعَيْكَ

سيكون هناك ضبابٌ حادٌّ حين تفتح عينَيْكَ

لن تَصِلَ أسنانُ الكلب الأبيض لكَ لتعضَّكَ

سيُرشِدُكَ النَّفَس، وأشجارُ النَّخيل

الغابة السوداء تُحيطُ بِكَ، لا تَبكِ، بل غَنِّ...

كان قد ظَلَّ وحيدًا في الفراغ المُظلِم، وانتزع السطور من أعماق صدره كرصاصات مشتعلة، كما لو أن حياته تتوقَّف على ذلك. ماتت

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

السطور وبُعثت من موتها الأخير، وتجمَّعَت كحلقاتٍ في سلسلة من منطقٍ لا يفهمه سواه، واستوثقت تمامًا. تردَّدَت فيها أصداء طفولته، لحظات من الجريمة، ما شعر به من ذنب وما قضاه من مدَّة عقوبته، ولمحات من إيثا ومونتا، ومن أمه وأبيه والغابات السوداء- تلك الأماكن التي، كلَّما رآها، سبَّبَت له ألمًا حادًا في قلبه؛ لأنه يمكنك أيضًا أن تُحبَّ مكانًا إلى درجةٍ تُشعِلُ النَّارَ في صدرِكَ كلَّما رأيته.

ثم انتهت القصيدة وأفاق لنفسه، عائدًا مرَّةً أخرى إلى المياه الضَّحلة، إلى مطبخ غريب حيث أفصح عن الكثير، والأسوأ، حيث عرَّى روحه عبر الكلمات. بسبب ذلك الكأس الثالث! ألم تعلِّمه الحياة أن كل الأشياء الجيدة تأتي في اثنينات؟ سيجارتان. كأسان. تناوَلْ الثَّالِثَ وستصبح كل الأرقام سواء.

اندفع أندريس من المطبخ وشرع في ارتداء معطفه في المَمرِّ المُظلِم. وتَبِعَته المرأة بهدوء مثل القطة، وأضاءت مصباحَ حائطٍ أصفرَ صغيرٍ. لقد لمست كتفيه ورقبته وخَدَّه غير الحليق، وكل ما استطاعت لمسه من جلده.

همَسَت:

"يا لها من قصيدة جميلة! كَتَبتَها في السِّجن؟".

"لا، الآن فقط. وماذا عنكَ؟".

"ماذا عنِّي؟".

"لقد مات، هل تجاوَزتِه؟".

"نعم، ببطء. ماذا نفعل سوى ذلك؟".

"سُجَناء. نحن سُجَناء في هذه الحياة... نحن... كُلُّنا".

وضرب الباب.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"افتحي الباب!".

مُطيعة، أخرجت المرأة المفتاح من السَّلَّة ووضعته في الترباس. كان أندريس قد بلغ ذروة انفعاله حين سألت فجأة، وبهدوء:

"ماذا عن الشِّواء؟".

ضمَّها أندريس إليه. شِفاهٌ غريبة مثل السهوب البِكر. تبًّا للسُّهوب، لودميلا. دعينا ننسَ السُّهوبَ وكلماتنا، كنتِ لودميلا رسلان، لكنَّكِ ستكونين ديمتري، الأرض الخصبة نفسها! اكتَشَفَنا أحدُهُم منذ زمنٍ بعيد، مَنَحَنا الكلمات منذ مئات وآلاف السنين. لكم يؤلمني الحنينُ والبحث عن مانِحِ الكلمات هذا، أريد أن أصافحه وأشكره على خُلُقِه -أشعر أننا لن نكون مَن يمنح الكلمات، وأن الوقت سوف يطحننا ويَنثُر غُبارَنا ثلاث مرَّاتٍ فوق حقل مهجور؛ الرَّبَّة ديميتر وأنا: محبوبك الفاني- لكنِّي ما زِلتُ أرغب في النظر إلى وجه مانح الكلمات؛ فهو يعرف كل شيء! النظر في عيون مانح الكلمات، وأخيرًا، سأجد السلام.

ثم جاءت الهاوية، احتَضَنَته وامتصَّته وأخَذَته وابتَلَعَته كما ابتَلَعَت كاليبسو أوديسيوس، بينما كان يتطلَّع في داخله لبرودة الليل، والجسر فوق النهر ولحظة وجوده، وحُكمِه الطويل بالوحدة.

كان أكثرَ إرهاقًا من أن يعترض، صلَّى إلى الرَّبِّ صامتًا، فغمره الربُّ وهدأ أخيرًا، بعد أن أغرق شوكته في داخله الحار.

عندما استيقظ في صباح اليوم التالي، كان بمفرده في الغرفة. ومن المطبخ طارت رائحة الشواء وغناء المرأة. كان صباحًا قاسيًا، ضبابيًّا وباردًا، أكَلَا... كان الطعام لذيذًا وغنيًّا، مثلها.

سأل:

"أليس عَلَيكِ الذهاب إلى العمل؟".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"لكن اليوم السبت"- أجابت.

كما لو لم يكن يعرف.

"هذه الأيام بعض الناس لديهم عمل يوم السبت أيضًا".

"آه، هذا. أنا أعمل في الحسابات في السجن".

عجز أندريس عن الكلام.

"هكذا إذًا!".

"وعندما تُوفِّي في المستشفى في ريجا، تَرَكتُ أنا والأطفال المدينة. أخذتُ قطارًا على عَجَلٍ، كلَّما كان أبعدَ كُلَّما كان أفضل. نَزَلتُ في المحطة الأخيرة، واستَأجرتُ شقَّةً، وبَحَثتُ عن عمل في الجوار. تبيَّن أن هذه المدينة بها سِجنٌ، والسِّجن كان يبحث عن مُحاسِب. ولِم لا؟ قلتُ لنفسي. السجن هو السجن. لا داعي لمحاولة الهرب من قَدَرِكَ. لا عَيبَ في الوظيفة أيضًا. إنها وظيفةٌ جيِّدة. مستقرَّة".

"نعم، إنها كذلك"- ضحك أندريس.

"على المرء أن يكسب قوت يومه. نحن سُجَناء هذه الحياة، قُلتَها بنفسِكَ ليلةَ أمس".

شاهَدَا التلفاز قليلًا. كان هناك إعلانٌ عن فيلم يُعرض في سينما ريجا.

"من اللطيف أن نشاهد فيلمًا"- قالت فجأةً.

"نذهب إلى ريجا؟".

"لِمَ لا؟ لم أذهب إلى السينما منذ زمن، ولا إلى ريجا!".

أرعَبَته الفكرة. كانت بالفعل ترتدي ثيابها وتُدَندِنُ. ليَكُن، فكَّر لنفسه، شاعِرًا بكرم شديد غير مُتوقَّع.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

نهَضَت المرأة وتأنَّقَت للحدث، صَفَّفت شعرها ووضعت بعض المساحيق. ارتدت فستانًا خفيفًا تحت سُترَةٍ قصيرة، جوارِبَ حريرية، وحذاء ذا كعب عالٍ.

كما لو كانت فتاةً، فكِّر. لم يَكُن هذا يُلائِمُها. لكن ما الذي يُمكِنُكَ فِعلُه إن كانت الرحلات المُشابِهة إلى ريجا لا تأتي إلَّا مرَّةً كلَّ حين؟

كان القطار ممتلئًا، لكنهما تَمَكَّنا من العثور على مقعدَيْن مُتقابِلَيْن بجوار نافذة. كان أندريس مُحرَجًا من النظر إلى المرأة، وبدت ساقاها عاريتين للغاية بالنسبة للطقس الشتوي، عُريٌ فاضِحٌ يصرخ بالبذاءة. كان هذا العُريُ يُشِعُّ تجاه أندريس ويُربِكه تمامًا؛ لأن شيئًا ما فيه كان له وحده، يهاجمه كقصيدة جيِّدَة.

آه يا ديميتر، فكِّر مُحدِّقًا بعنادٍ في انعكاس وجهه المُظلِم في النافذة، دون أن ينظر إليها ولو مرَّةً واحدة، رغم أنها بين الحين والآخر كانت تمسُّ ساقه بكاحلها اللامع المُغطَّى بالجورب. لقد تجاهل حتى أسئلتها، إلى أن شعرت بالانزعاج، وحدَّقَت للأمام مباشرة، وقد اختفت الابتسامة عن وجهها وهي تهتزُّ مع حركة القطار. حينها، صار بإمكانه أن يعبس بأمان في انعكاس شَعْرِها على النافذة.

لم تكن هناك ثلوج، وبعد ثلاث ساعات ونصف خرَجَا إلى أسفلت الرصيف الأسود في محطة قطار ريجا. كانت الرياح لاسِعَةً، وانكمش رُكَّابُ القطار عميقًا في معاطفهم، واختفوا سريعًا في جوف المحطَّة.

"السينما بهذا الاتِّجاه"- قال أندريس "دعينا نسير بمحاذاة القضبان، وبعدها نتَّجِه إلى المدينة".

سألته المرأة وهي متفاجِئَة: "ولِمَ هذا الطريق؟".

"لا جدوى من إضاعة المال في التِّرام".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تَـردَّدَت المـرأة. لم يَكُـن بَعـدُ قـادرًا عـلى حَمـلِ نفسـه عـلى النظـر إليهـا؛ فاكتفـى بنظـرات جانبيـة خاطفـة كذِئـبٍ. كانـت عـلى وشـك البكاء، تحـاول إبقـاء سُـترَتِها مُغلَقـةً بِيَـدٍ واحـدة، بينـما تفكِّـر أن هنـاك خطبًـا مـا في مـا يحـدث.

"لنذهب! إنها ليست بعيدة".

سـارا بمحـاذاة القضبـان، أندريـس في المُقدِّمـة، بيديـه في جيوبـه وقـد انحنـى كتفـاه إلى الأمـام، وخلفـه المـرأة بسـاقيها البيضاويـن المكشـوفتين وكعبهـا العـالي، تقفـز فـوق الوصـلات وحديـد القضبـان الصـدئ. ترفـع الريـحُ فتحـةَ الفسـتان فتظهـر سـاقاها وقـد كَسَـتهما القُشَـعريرَةُ. تتعـثَّر خطواتهـا في الفراغـات بـين الوَصَـلات.

تحدَّثَت المرأةُ أخيرًا:

"هكـذا إذا تكـون الرحـلات إلى ريجـا والذهـاب إلى السـينما؟ كان بإمكانـك أن تقـترح فكـرةً أفضـلَ".

أجاب أندريس باقتضاب:

"هذه هي أسرع طريقة".

"كان بإمكاننا أن نستقلَّ التِّرام مثل الناس العاديِّين!".

"يا لَكِ من مُدلَّلَة! استمرِّي في المشي!".

كان مسـار القضبـان المهـول يمتـدُّ عَرضًـا لأكـثر مـن نصـف كيلومـتر في تلـك النقطـة. تـروح القطـارات الكهربيـة وتجـيء مُعلِنَـةً عـن قدومهـا بصافـرة، قبـل أن تظهـر في الأفـق. بمحـاذاة القضبـان، امتـدَّ سـورٌ، كـما امتـدَّت ممـرَّاتٌ أهلَكَهـا المُـشرَّدون، وشـجيرات مليئـة بأكـوام القمامـة، وفي أسـفل كل هـذا، أضـواء المدينـة المرتعشـة، وضجيـج حركـة المـرور.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تباطأ قطار موسكو وتجاوَزَهم في طريقه إلى المحطة. جَمُد أندريس في مكانه، ونظر هو والمرأة في الاتجاه الذي يمضي إليه القطار. تحرَّكَت العرَبَةُ الأخيرة ببُطءٍ.

"إلام تنظر؟"- سألت المرأة.

لم يُجِب.

الكلاب.

الحرَّاس الذين يتقاذفونك فيما بينهم. يُلقونك. يُطيحون بك كجوالٍ لا حياةَ فيه. لكن أوَّلًا، الكلاب. نباح الكلاب الوحشي. مشؤوم. مريع. الكلاب. الشيطان متجسِّدًا... سيريبروس... ثم الحُرَّاس... أحذيتهم...

على الأرض!

على رُكبَتَيْكَ...

يداك خلف رأسِكَ!... تحرَّكْ، يمينًا، يسارًا، سنطلق النار دون إنذار!... أيام وليالٍ من الانتظار في نصف عَتَمَةٍ بلا طعامٍ أو ماء... ثم فجأة ضوء، صراخ، نباح، الريح في وجهك مثل خبز الشَّيلَم، طازج جدًّا، حيٌّ جدًّا، وغنيٌّ... تأكله نصف أعمى، تمضغه، تبتلعه- الهواء المُنعِش... إلى أن تُساق إلى زنزانة جديدة، حيث يُفَلُّونَكَ ويُلبِسونَكَ من جديد، ويحلقون رأسك، وينقذونك من نفسك.

على الأرضِ...

على رُكبَتَيكَ...

سيَّارات ترحيل السُّجَناء.

والآن، بعد أن فقدت كلَّ ما عدا ذلك من صفات الإنسانية، ستلتصق بأبناء نوعك. ستدقُّ نفسَكَ فيهم كما لو بمسمار.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"إلامَ تنظر؟".

"ترحيل السجناء" أجاب أخيراً، على مَضَضٍ. "هل ترين تلك العربة الأخيرة، هناك في قطار موسكو؟ إنها عربة ترحيل السجناء. تُلحَق بالقطار في نقطةٍ ما- في دوجابلوس أو ربما كراستبيل. حين ينزل جميع الركاب، تأتي قاطرة، وتُفكِّكُها وتدفعها إلى القضبان الجانبية. وربما تبيت ليلةً، أو تظل بضع ساعات، وربما يأخذونها فورًا إلى السجن المركزي. مَن يعرف؟ ربَّما ليس قبل بعد الغد تغادر إلى يلجفا أو ليبايا".

كانت معرفة هذه المرأة الروسية بعربات الترحيل تجري في دمها. تعرف أين قضى السُّجَناء الليلة قبل أن يوضعوا في المخازن، قبل جَلدِهم المحتوم، قبل وَشمِهم بعلامة العار ونفيهم إلى سيبيريا، حيث تَلقى كلَّ روحٍ من أرواحهم الملعونة بعض الرثاء، حتى لتشعر بأنك مُجبَرٌ على أن تعطيهم شطيرة ساخنة، أو تُلقي بتفاحة في حجورهم، أو تشقَّ طريقك عبر الحشد كي تتمكَّن -أنتَ أيضًا- من دَسِّ عُملَةٍ معدنية في أيديهم.

ولكنها عاشت مع ذلك ثُلُثَيْ حياتها، وقد اكتفت. لم تكن تريد التعامُلَ مع كل هذا الليلة، فأعلنت التَّمرُّد، وانتحَبَت:

"لنذهب. لقد برَدتُ. هيا، دعنا نذهب، يا إلهي، هل ستقف هنا لساعات؟ سنُفَوِّت ميعادنا".

مشت بِضعَ خطوات إلى الأمام، ثم توقَّفَت.

"هناك ذكرياتك وكل أصدقائك، أليس كذلك؟ عربات الترحيل والأغلال والكلاب والسكك الحديدية، أليس كذلك؟ حسنًا، اذهَبْ. اركُضْ إليهم، استَجْدِهْم، ربَّما سمحوا لك بالدخول إلى هذه العربة. هاه؟ حيث حياتك كلها، أيها الواشي!".

"اخرسي!".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"لكـنَّ الأمـرَ قـد انتهـى الآن"- قالـت المـرأة مـن مـكانٍ مـا خلفـه، وبـدأت في البـكاء.

"ما الذي انتهى؟".

أصابها الخَوفُ وسكَتَت.

"لا تتشـبَّثي بأيَّـة خيـالات أو آمـال. لا تفعـلي! سـتحصلين عـلى القـدر الـذي تحتاجينـه بالضبـط. دعـي البَقيَّـة وشـأنها. لقـد تَرَكـتُ السِّـجنَ ورائي. ولـن أُخـبِرَكِ بـأيِّ شيء آخـر بعـد الآن".

وقَفَـت المـرأة عـلى القضبـان، ورذاذ الخريـف عـلى جواربهـا الشـفَّافة وحذائهـا الغبـي، ترتعـش. عصفـت الريـح بسُـترتِها وشَـعرِها، وبَعـثَرَت أفكارهـا، مَزَّقَـت الرِّيـحُ سُـترَتها وشَـعرَها، وجَذَبَتهـا مـن أفكارهـا، بَـدَت مُثيرةً للشـفقة في ملابسـها الفاخـرة وطـلاء شـفتيها الأحمـر... وقريبـة جدًّا.

"حبيبي"- قالت "ولكن الأمر قد انتهى الآن".

اسـتدار غضبًـا وأراد أن يتوجَّـه إلى المحطـة. يتخلَّـص مـن هـذه الدراما ويغـادر، أن كـما فعـل مـرَّاتٍ عديـدة مـن قبـل، لكنـه شـعر فجـأة أنـه لا يسـتطيع ذلـك. فاجـأه الأمـر. لقـد أخبرهـا بـكل مـا في ذهنـه، لكـن هـذه الكلـمات أصبحـت لا تعنـي شـيئًا فجـأة، واختفـت كـما لـو أنهـا سـقَطَت في بـئر. "حبيبـي"- أجابـت وظلَّـت واقفـة في مكانهـا.

وصار عاجزًا عن الذهاب لأي مكان.

غريب. ماذا تبقَّى لنتحاشى تجريبه، فكَّرَ بحزن.

اسـتدار عائـدًا وتسـلَّق السـور المنحـدر هابطًـا. تعـثَّرَت وراءه، وأطلقـت صيحـةً مكتومـة حـين انزَلَقَـت قَدَمُهـا في الوحـل. وقفـت مُنكَـسِرَةً، كطفلـة تحـاول الحفـاظ عـلى توازنهـا عـلى سـاق واحـدة، حـين أعـاد لهـا فَـردَةَ حذائهـا المخلوعـة وألبسـها لهـا. قبـض كلٌّ منهـما عـلى يَـدِ الآخـر بإحـكام، وانحَـدَرَا معًـا نحـو أضـواء المدينـة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

بضـع بطَّـات وإوَزَّات تقضـم في كَسـلٍ أعـواد العشـب الناميـة عـلى جانبـي القنـاة في وسـط المدينـة. الطقـس حـار ورطـب كبيـتٍ زُجاجـيٍّ. تحتشـد عاصِفـةٌ قويَّـة بعيـدًا في السـماء، لكنهـا لا تسـتطيع أن تجمـع نفسـها.

يجلـس كلٌّ مـن مونتـا وأندريـس بعـد أن غـادرا الشَّـقَّة عـلى مقهـى. يفـرك أندريـس إبهامـه عـلى تذكـرة القطـار خاصَّتـه، يشـتريها مسـبقًا عـلى الـدوام، مـن أجـل رحلـة العـودة.

يلعـب بعـض المُسِـنِّين الدَّامـا عـلى دكَّـةٍ تحـت أشـجار الزيزفـون في شرفـة المقهـى. يركـض الأطفـال صائحـين في الملعـب المجـاور، حيـث تشِـعُّ الأنفـاق البلاسـتيكية والسـلالم والأبـراج وغيرهـا مـن الألعـاب باللـون الأحمـر والأزرق- حرارتهـا السَّـامة في غبـار المدينـة الغافلـة. يفـترش بعـض الپانـك[1] والبلاشـفة الوطنيُّـون العُشـبَ في كنزاتهـم الصوفيـة المُخطَّطـة. لكـن في الوقـت الحـالي، كان المقهـى لـلأب وابنتـه وحسـب.

تحـاول مونتـا أن تمسـح العـرق مـن شَـفَتِها العليـا دون لَفـتِ الانتبـاه. يشـاهد أندريـس البَـطَّ، يشـاهد ابنتـه، ويفتـح الـزِّرَّ العلـوي مـن قميصـه. كـما لـو يفيقـان مـن غيبوبـة، يرفـع كلٌّ منهـما مشروبَـه بـين الحـين والآخـر مُسرِعًـا. يسـبح انعـكاس الأشـجار القريبـة وظـل الماصَّـة في المـشروب المُنعِـش. ماصَّـة أندريـس صفـراء، ومونتـا ماصَّتُهـا زرقـاء. لأندريـس فَـمٌ قـويٌّ، يـكاد يكـون عنيفًـا في وجهـه شـديد السُّـمرة. شَـفَتَا مونتـا رقيقتـان وناعمتـان، عليهـما آثـار مـن طـلاء الشـفاه.

(1) الپانـك: اتجـاه ظهـر في السـبعينات مـع موسـيقى الپانـك روك، واشـتهر بالدَّعـوة للأناركيـة والتمـرُّد عـلى التمييـز الاجتماعـي والبطالـة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تفتح مونتا فمها عدَّةَ مرَّاتٍ دون أن تُصدِر صوتًا، ثم تعود بإصرارٍ لتحديقة والدها بعيونها الزرقاء الثلجية. عندما يكونان معًا، لا فائدة كبيرة من الكلمات.

تجلس بعض الأُمَّهات على الدِّكَّة الطويلة بجوار الملعب، يتحدَّثن عن شيءٍ ما ثم ينفجرن في الضحك، الصوت مفاجئ وحُرٌّ، كانسكاب الشمبانيا من الزجاجة. تبدأ مونتا في عَضِّ ماصَّتها. يسمع أندريس صيحةً مُبتَهِجَةً لصبيٍّ صغير، فيستدير مُلوِّحًا له. ترى مونتا ظلال الأوراق تتلاحق على جلد رقبة أبيها المتجعِّد. تنظر إلى السماء. في الجو لزوجةٌ، تَكفَهِرُّ السماء تمامًا فجأة، وتعتم بشيء خانق وأسود كالسُّخام. مع ذلك، لا تمطر، وإن انهمرت أوراق الشجر. تتجمَّع الرطوبة على أغصان الزَّيزَفون.

يواجهها والِدُها مرَّةً أخرى، ويمدُّ يده عبر الطاولة ويُلامِسُ ظَهرَ يدها، حيث تَسبَّبَت الحرارة في ظهور بعض الأوردة المُزرَقَّة. الآن، يتتبَّع ظُفرَ سبَّابتها المطلي بالأصفر خطوطًا عموديَّةً من تكاثُف الرطوبة على كوبها.

يهاجم بودل أجرب صغير سربًا من الطيور. يبدو غافِلًا عن البط، لكنه يعيد الإوزَّات الشاردات إلى سِربِهنَّ بحماس. صاحبة البودل، امرأةٌ مُسِنَّةٌ لها وَجهٌ شاحب وذراعان معقودتان خلف ظهرها، تتَّجِه نحو القناة وتنظر إلى السدَّة الخضراء الزاهية على الجانب الآخر. كاحلاها متورِّمان أسفل جوارب فاتحة اللون، مليئان بالعُقَد، كجذع الشجرة قرب جذورها.

في هذه اللحظة، المرأة حيَّة. والعُشب بمحاذاة القناة أخضر بشكلٍ لا يُصدَّق. وبدا كما لو أن الهواء الكثيف سيبسط قوس قزح على كل شيء خلال ثوان. وسيفوح كل شيء برائحة التراب البارد المبتلِّ، والهواء.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

هـذا كلـه مـن المـاضي، قالـت مونتـا، لِتُبـدِّد -دون قصـدٍ، ولكن بحسـم- الذِّكريـاتِ الَّتـي كانـت تَميـدُ بأندريـس كالعـادة. تسـتمرُّ في سَـحْبِ أناملهـا عـلى جانـب كوبهـا. تشـعر مونتـا بالذَّنـب. تريـد إخـراج والدهـا مـن ذلـك الكهـف الـذي يجـده مريحًـا للغايـة. تريـد اهتمامـه بمونتـا التـي تجلـس أمامـه، بشـحمها ولحمهـا عـلى الكـرسي المعـدني. هـذه المونتـا التـي لم يَعُـد في وسـعه أن يصـل إليهـا؛ لأنـه مـا زال مُبَعـثَرًا في مـكانٍ مـا مـن المـاضي، كـشيء أضاعتـه إيڤـا إيجليتيـه.

سـتكون مُمتَنَّـةً إذا اسـتمع إليهـا بتفـانٍ. وكان ليسـتمع إليهـا بتفـانٍ لـو كان هنـاك مُتَّسَـعٌ في قلبـه. لكـن لا مُتَّسـعَ في قلبـه. تشـعر مونتـا بذلـك.

هذا ما نحن عليه، تُفكِّر. يهذِّب الحُبُّ الضائع الروح، ويُجفِّفها.

لماذا بحقِّ الجحيم قَتَلتَ أكسيلز يا أبي؟

لكنهـا لـن تسـأله أبـدًا. السـؤال يتعلَّـق بحيـاةٍ لـه، مختلفـة تمامًـا. سيُباغِتُه. ربمـا سيشـعر بـالألم كحلـزون كُشِـطَ مـن قشرتـه فجـأةً بِملعَقَـة؟

لن يتحدَّث عن الأمر أبدًا. إنه فخره، وسَقطَتُه.

يعانـق كُلٌّ منهـما الآخـر بتحفُّـظٍ، ثـم يبتعـدان وينظـران أحدهـما إلى الآخـر بتمعُّـنٍ. ثـم يغـادر أندريـس للقطـار، مُعَلَّقًـا في قضبـان فضِّيَّـة لا نهائيـة، لا تتقاطـع أبـدًا... لا تتقاطـع أبـدًا.

ولاحقًا، بعد بضعة محطَّات، تسقط رأسه إلى صدره؛ إذ يروح في النوم.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

مُحادَثاتٌ تَحتَ سَماواتٍ مُتغيِّرَة

تحتَ سَماواتٍ مُتغيِّرَة

"هل سبق لك أن كُنتَ خارجَ نَفسِكَ؟".

"خارج نفسي؟ يبدو وكأنه مرضٌ بالنِّسبة لي".

"أيُّ مَرضٍ؟".

"الفِصام. كأن تكون شخصًا لدقيقَةٍ، ثمَّ شخصًا آخر في الدقيقة التالية".

"هذا ليس ما أعنيه. ليس مرضًا... حسنًا... تخيَّلْ أَنَّكَ أنتَ. كُنتَ مع نفسك في جميع الأوقات. كُنتَ داخل نفسك، في مكانٍ ما... أقصد... حسنًا... لا أعرف إلى أين يذهب الناس عادةً عندما يكونون داخل أنفسهم".

"على الأرجح ليس إلى أقدامهم".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"ولكن ربما يذهب البعض إلى أقدامهم".

"مُمكِن".

"بالطبع. الأقدام ولا سواها. بل يمكن للمرء أن يستقرَّ داخل أصبع قَدَمِه الأكبر".

"أو مكان أكبر، الرُّكبتَيْن، الوَرِكَيْن، الأضلاع".

"أعلى".

"في القلب إذًا".

"أحيانًا في القلب... نعم. ولكن بالنسبة للسَّواد الأعظم، أعتقد أن الناس داخل أنفسهم يتواجدون حول العينين".

"ليس الأُذنَيْن؟".

"الأمر سيَّان إلى حَدٍّ كبير، على الحدود بين العينين والأذنين. في الجمجمة. لقد كنتَ هناك، في مكانٍ ما، داخل نفسِكَ طوال الوقت. طوال الوقت الذي تُسمِّيه حياتَكَ. لفترةٍ من الوقت اعتَدتُ أن أكون في أناملي. عندما كنتُ طِفلَةً. قبل أن أتمكَّن من المشي".

"نعم، هذا كان قبل زمن طويل".

"لكن كُنَّا نتحدَّث عن كيف خَرَجتُ من نفسي".

"تَكلَّمي إذًا".

"كُنتُ داخل نفسي جدًّا. لا ننفصل. كنتُ مُتوحِّدَةً مع أفعالي".

"تذكرين حين قَطَعتِ مِعصَمَيْكِ؟".

"أذكر. كان هذا سيِّئًا للغاية".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"سيِّئ للغاية؟ أَقَلُّ ما يُقال إنه كان مُرَوِّعًا. كانت تُمطِر بغزارة في تلك الليلة، وحَجَبَت الأمطارُ النَّوافِذَ وأضواء الشوارع والطُّرُق. أحضَرَتكِ ماما إلى المستشفى... كان كابوسًا".

"كنتُ وقتَها داخل نفسي تمامًا، ولكن الحال أسوأ من ذلك الآن".

"ما الأسوأ من سيارة مليئة بالدماء؟".

"هناك ما هو أسوأ. صَدِّقني".

"مثل؟".

"مثل... لا أعرف كيف أَصِفُ الأمر".

"حاوِلي شَرحَه ببساطة".

"لا يوجد شيءٌ بسيط في هذا الموضوع".

"إذًا جرِّبي التَّفاصيل".

"التفاصيل... أتعرف كيف يبدو الجوُّ قبل أن تُمطِرَ مباشرة؟".

"مثل الآن؟".

"مثل الآن. هل تسمع صَيحَة ذلك الطائر؟ نحن في المدينة ومع ذلك يمكننا سماعه. طائر المطر. حفيف الأشجار، حركة قِمَم الأشجار. لا تريد أن تمسَّ شيئًا لأن كل شيء رطب. مؤلم".

"حسنًا، على أيِّ حال! أنتِ الآن تتحدَّثين عن الطقس وطائِرٍ ما، لكنَّكِ أَرَدتِ أن تتحدَّثي عن نَفسِكِ".

"لكن كلُّه سيَّان. يتعلَّق الأمر بهذا الشعور، نوع من شعور الخروج من الجسد".

"تجربة... الكلمة الصحيحة هي تجربة الخروج من الجسد".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"لا يَهمُّني أيُّهما أدَقُّ".

"إذن تخاطرين بقول ما لا تعنينه".

"كثيرًا ما كنتُ أتساءل عَمَّا إذا كان حتى مُمكِنًا للآخرين أن يفهموا".

"اشرحي لي".

"انظُرْ، كما لو أنني دائمًا في مكانٍ ما خارج نفسي. أشاهد نفسي من لقطة جانبية. لنأخذ الحُبَّ، على سبيل المثال. كيف يستولي الحُبُّ على جسدك. القبلات، العناق، أن تجعل الآخرين سعداء، أو حَزَانى. يتغيَّر شَكلُ جِسمِكَ، تحظى بطفل، ثم المزيد من الأطفال، أو ربما لا تفعل على الإطلاق. تحظى بمنزلٍ في مكانٍ ما، ليالٍ دافئة تحت سماء ذائبة. المُشاجَرات، الخوف، الرِّقَّة. لكن لا يحدث أيٌّ من هذا لك، بل يحدث لجسد تدعوه «نَفسَكَ». الجسد الذي تراقبه من لقطة جانبيَّة".

"أنتِ مَريضةٌ".

"ربَّما، نعم".

"جَبهَتُكِ ساخِنَة".

"إنها دومًا ساخنة".

"إذًا ما تقولينه... إنك حتى الآن، بينما نتحدَّث، فأنتِ... أَلِهَذا تنظرين إليَّ بهذا الحزن؟ لاحَظتُ تلك النظرة الغريبة في عينيك منذ فترة طويلة".

"ولِمَ تشعر بالقلق؟".

"ظننتُ أنَّها مثل الهدوء الذي يسبق العاصفة. لستُ مُتأكِّدًا مِمَّا إذا كان عليَّ أن أشعر بالقلق أم لا. ربما ينبغي أن أفعل".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"كيف أبدو؟ صِفْ لي الأمر!".

"كما... كما لو كُنتِ تحاولين امتصاص كل ما حولَكِ... من خلال عينيك. نعم. كما لو كنتِ تحاولين أن تستجمعي نفسك في قطعة واحدة. في عينيك. كما لو أنَّكِ بحاجة لتثبيت نفسك في شيء ما. هكذا تبدين. تبدين كاليأس".

"ها قد فَهِمت".

"ربما عليكِ أن تَرَيْ طبيبًا؟".

"ولِمَ؟".

"لأنَّكِ تشعرين كما لو كُنتِ مَشطورةً لِنصفَيْن، حتَّى معي".

"مشطورة لنصفين؟ يا إلهي لا تَكُن سخيفًا".

"ماذا؟ أنتِ مَن قُلتِ إنَّكِ تشعرين بأنك مشطورة لنصفَيْن!".

"لم أَقُل ذلك أبدًا يا باڤيلس. لم تكن مُصغِيًا".

"آسف، ولكن...".

"لستُ مُنشَطِرَةً إلى نصفين. أنا خارج نفسي. مفهوم؟ خارج نفسي. الأمر ليس سيِّئًا جدًّا حين أتحدَّث مع شخص ما. عندما أتحدَّث مع شخص ما، يكون... منفصلًا".

"ماذا تعني؟".

"عندما يتحدَّث شخصان أو أكثر، فإنهم يفكِّرون ويتكلمون ويتناقشون. يكونون في مكان ما خارج أنفسهم قليلًا. كما لو كانوا بداخل كَفَنٍ من الأفكار. يميل الناس إلى استخدام عبارات مثل «تَذْكُرُ حين...!»، أو «الصيف القادم أرغب في الذهاب إلى...»- يتحدثون. إنهم منفصلون، تُرَى؟ لقد عادوا إلى تلك الذكرى، أو ذهبوا إلى الصيف المقبل. يمكنك أن ترى ذلك في عيونهم، أو كيف يلفُّون شَعرَهم حول

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

أصابعهم وهم غارقون في أحلام اليقظة. إنهم يسافرون. إنهم خارج أنفسهم، ولا شيء غريب في ذلك".

"سأَصْدُقُكِ القَولَ، يصبح الحديث مَعكِ أصعبَ وأصعب بمرور السنوات. أنتِ تجعلين الآخرين غير مرتاحين. على سبيل المثال... كلَّا، لا تشعري بالإهانة... لكن حتى أنا أشعر بعدم الارتياح حين أتحدَّث إليك. نظرة عينيك حادَّة للغاية. ثقيلة للغاية. أنت مُخطِئَة، لو تعلمين. حين نتحدَّث أنا وأنت، أقول لنفسي إن الحياة ليست هكذا. تدور الحياة حول الحياة، ليست حالَةً من التركيز المستمر عديم الجدوى. من السيئ أن تكوني بهذه الجدِّيَّة. لِمَ تريدين بشدَّة أن تعودي إلى عينَيْكِ عندما تتحدَّثين معي؟".

"لأنني لم أَعُد أستطيع".

"لا تستطيعين ماذا؟".

"أن أعود داخل نفسي. حين ننتهي من الحديث، سوف تحبو لورا إلى هنا ومعها كرة قائِلَةً «بابا، هيا نلعب!»".

"وسأذهب إليها".

"وستذهب، وستظلُّ أنتَ. باڤيلس. باڤيلس الذي يركل الكرة، والد لورا، الذي يُحبُّ فيتا، الذي يُحضِّر الدكتوراه".

"وماذا عَنكِ؟".

"سأنتظر في مكانٍ ما خارج نفسي، حتى يهدأ كل شيء".

"أنتِ خائفة من المسؤوليَّة".

"أوه رائع! ماذا أيضًا؟... أيَّة تحليلات عبقرية أخرى؟".

"حسنًا، ماذا تريدين مني أن أقول؟".

"وهل طَلَبتُ مِنكَ أن تقول أي شيء في المقام الأول؟".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"ما دُمنا في مناقشة، فعليَّ أن أقول شيئًا".

"أرجوكَ. المشكلة هي أنك لا تصدِّقني".

"إنها ليست مسألة التصديق من عدمه، يخرج كلامك ليبدو غبيًّا، مُهينًا حتى".

"مهين؟ كيف؟ هل تشعر بالإهانة؟ إن كنتَ تَفعَلُ فأنا آسفة، لم أرغب أبدًا في إهانَتِكَ".

"لكنَّكِ فَعَلتِ. وبطريقة غريبة حقًّا، أيضًا. الجميع داخل أنفسهم، في أجسادهم، لكن أنت... أنت خارج نفسك. كما لو أنَّكِ أميرة، شيءٌ مُميَّز. الأمر رهيب وشديد الغرابة، مثل فيلم «بالب فيكشن» أو شيء من هذا القبيل".

"لم أكن أقصد أن يبدو الأمر كذلك. ولكنَّكَ مُحِقٌّ فيما تقول، شكرًا".

"الآن صِرتُ مُحِقًّا أخيرًا!".

"لا تُسَفِّهْ مِنِّي!".

"لا أفعل! هل قُلتُ شيئًا خاطئًا؟ بحسب ما أرى، على المرء أن يعيش بحرية وسهولة، على نَفَس واحد. إذا كانت لديك أفكارٌ كتلك التي لدَيكِ، فهناك خَلَلٌ ما في نظامك. اختلَّ شيء ما. أنا لا أفهمكِ".

"حسنًا، أنت لا تفهمني. لا يمكنني إجبارك على الفهم إن كُنتَ لا تملك القدرة على ذلك في المقام الأول".

" ماذا ستفعلين إذا؟".

"حسنًا ها هو ذا! ملك الأسئلة! ماذا ستفعلين؟ مُذهِل! فكِّر في هذه الكلمات. ماذا. ستفعلين. إنها كملح الأرض، ولكنها في نفس الوقت غاية في البساطة".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"مهلًا، لا تُفْرِطي في تحليل كل شيء، من التَّنفُّس إلى اللغة. لا يفضي هذا إلى شيء، بل هو عقبة. كان سؤالًا جادًّا، عمليًّا وواقعيًّا، ماذا ستفعلين؟ هل ستستمرِّين في السخرية هكذا إلى الأبد؟".

"لكن انتظر، تلك الكلمات! اسمع... ماذا. ستفعلين. بهذا الترتيب. بهذا التَّسَلسُل. وليس بأيَّة طريقة أخرى. ليست ماذا تريدين. دومًا ما تأتي الإرادة أوَّلًا ويليها الفعل. إذا نظرت للأمر بالطريقة الصحيحة، يمكنك تمهيد الطريق لعالم أفضل".

"عظيم. وما نوع العالم الذي تريدين اكتشافه؟ عالَمٌ بلا أَلَم؟".

"عندما كانت مونتا صغيرة، كانت قِصَّتها المُفضَّلَة هي المدينة الذهبية. في المدينة الذهبية، الذئاب والخراف أصدقاء. المدينة الذهبية لا تحتاج إلى لَيلٍ لِفَهْمِ النهار. لا تحتاج إلى الموت لتُقدِّر قيمَةَ الحياة. إنه عالَمٌ بلا تبايُن. أَتَعلَمُ، كادت مونتا تُقنِعُني. قالت لي «أنتِ حزينة». وعَلِمتُ حينها أنها ستكون على أَتَمِّ استعداد لمُبادَلَةِ المعرفة بالجهل، فقط إن مَكَّنَها ذلك من أن تكون في عالَمٍ بلا ألم".

"بدون الفرح والكراهية؟ دون الحزن والعاطفة، بدون الرغبة؟".

"سيكون مكانًا مُمِلًّا، مُمِلًّا حتَّى الموت... وعديم النفع. قلتُ لها هذا. جادَلَتني بأن الموتَ شَيءٌ اخترعه الكبار؛ كي لا يشعروا بالملل. الكبار حَزَانى، الكبار يرتكبون كل أنواع الحماقات فقط ليفهموا شيئًا ما".

"العالَمُ المُمِلُّ حَدَّ الموت جنَّة".

"جَنَّة؟".

"أو جحيم".

"المَلَلُ المُميت فريدٌ؟".

"الموت نفسه فريد".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"اسـمع إذًا أيُّهـا الإلـه الصغـير الـذي أراد قبـل دقيقـة واحـدة فقـط أن يخلـق عالَـمًا بـلا ظـلال الـشَّرِّ- اسـمَعْ! عقـل الإنسـان صغـير وأحلامـه في حـدود المعقـول والآمِـن. يحلـم فقـط بمـا هـو جيِّـد وآمِـنٌ وغـير مُؤلِـم. الأمـر لا يسـتحق إهـدار أيـة طاقـة".

"يعتني الشَّرُّ بنفسه".

"إهدار الطاقة للشر أكثر غباءً".

"وماذا تَبقَّى؟ أن أشاهد كيف تعيش الحياة في جسدي؟".

"نعـم، مُطـارَدَة الأحـداث ككلـب بوليـسيٍّ هـي الأفضـل. هـذا الصِّـدام الـلا نهـائي بـين الأسـود والأبيـض غنـيٌّ بالألـوان".

"لماذا قُلتِ إن الوجود خارج نفسكِ كان أسوأ من قَطْعِ معصمَيْكِ؟".

"آنـذاك، حـين كنـتُ مـع أكسـليز، بَـرَّر الحُـبُّ كُلَّ مـا فعلنـاه. حتـى أكـثر الأشـياء بشـاعةً واسـتعصاء عـلى الفهـم".

"وهل كُنتِ بحاجَةٍ إلى مُبرِّر؟ لِمَن كُنتِ تحاولين تبرير نفسك؟".

"ليس الأمر كذلك. ليس هذا ما قصدته. المنطق... تَعلَمُ؟ المنطق".

"منطق. كلمة غريبة".

"حسـنًا، هـذا صحيـح. الآن أفعـل كل شيء مـع مراعـاة شـعور الآخريـن، أحـاول أن أكـون دقيقـةً وأسترشـد بالتجربـة، لكـن كل هـذه الحساسـية تذهـب سُـدًى. إنهـا عمليـة حسـابية! إحصـاءات دقيقـة للإنجـازات الفارغـة، والخسـائر. إنهـا هامشـية. كان المَـدُّ عاليًـا، والآن انحـسر. وجُرِفـتُ بعيـدًا عـن نفـسي".

لقـد بـدأتُ طريقًـا لكننـي لا أعـرف مـا إذا كان لصالحـي أم لا. لكـن لا يمكننـي التوقُّـف أو العـودة. سـيكون اختبـارًا، مهـلًا، بـل سـيكون تجربـةً مُمتِعَـةً! هـل سأسـتطيع أن آخـذ فكـرتي وأشـقَّ طريقًـا؟ يمكنـك كتابـة

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

أطروحتـك النهائيـة حـول ذلـك! صِرتُ اثنـين. هـذا هـو الـشيء الوحيـد الـذي يُبهِـرُني ويُبقينـي عـلى قَيْـدِ الحيـاة! أنـا وجسـدي".

"ربمـا هـو بدايـة نـوع مـن المـرض النفـسي. ربمـا لا يـزال بإمكاننـا فعـل شيء حيـالَ ذلـك".

"بالفعل، ولكن فقط إن توحَّدَت رغبات نُسخَتَيَّ".

"ما هدف جسمك؟".

"الحـب، الضحـك، البقـاء عاقِلـةً، وقويـة كشـجرة بلُّـوط عظيمـة، لنفـسي وللآخريـن".

"وما هَدَفُكَ أنتَ؟".

"ألَّا أكون هنا".

"ربما كنتُ مُشوَّشة. ربما كانت مَهمَّتُك هي المراقبة".

"المراقبة؟".

"المراقبـة. إذا كان مُقـدَّرًا لَـكِ أن تظَـلِّي خـارج جسـدك عـلى أي حـال. ربمـا تـأتي سـعادتك مـن مراقبـة جسـدك المـادي وأجسـاد الآخريـن، مراقبـة الحيـاة، القـدر، كيـف يلتقيـان ويفترقـان، ثـم يلتقيـان مـرة أخـرى. أن تراقبـي وتؤمنـي بأنـك سـتفهمين شـيئًا مـا حـين يتَّضِـح شيءٌ مـا. قـد يكـون هـذا جـواب سـؤال واحـد عـلى الأقـل".

"شكرًا أخي. تُشعِرني فِكرَتُكَ عنِّي بالكثير من الإطراء".

"لَدَيـكِ الغطرسـة الكافيـة لذلـك، بالمناسـبة. سـتكونين أنـت الشـخص الـذي يتوصَّـل إلى شيء مثـل هـذا".

"عندمـا يكشـف جوهـر الأشـياء عـن نفسـه، فإنـك تكـفُّ عـن فعلهـا بشـكل تلقـائي. هـذا هـو مـا عَنَيتُـه. ولكـن ربمـا قصـدت شـيئًا آخـر، لا

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

أدري. لا يكـون أَحَـدٌ نَفسَـه حقًّـا في المحادثـات. يتحـدَّث الوجـود مـن خلالنـا. مليـون فـم. مليـون عـين".

"لا تغضبي، ولكن يبدو لي أنك غير قادرة على الحب".

"هذا كل شئ؟".

"الحب فقط".

"يبدو هذا أبسط من اللازم".

"ولكنها الحقيقة. كل شيء آخر هامشيٌّ ومُختَلَق".

"لماذا؟".

"الحـب لا يخضـع لسـيطرتك. يـأتي هـو إليـك، لا توجـد طريقـة أخـري. ثـم تكتملـين مـرة أخـرى، ولا تتسـاءلين عـن أي شيء".

"لكـن لـديَّ أسـئلة بالفعـل! حسـنًا، يبـدو أننـي لا أمتلـك الحُـبَّ فعـلًا، ولا يمكننـي الإجابـة بـأيِّ شَـكلٍ آخـر في مواجهـة اعـتراف منطقـيٍّ. هـا نحـن إذًا".

"إذا تريدينني أن أُشفِقَ عَلَيكِ؟".

"كلَّا. لا داعـي للشـفقة ولا للشـعور بالحـزن عـليَّ أو التعبـير عـن رأيـك. لا شيء مـن هـذا. أنـا سـعيدة لأنَّـكَ قابَلتَنـي لتنـاوُلِ الغـداء اليـوم، وأنَّـكَ جَلَسـتَ هنـا، وشَرِبـتَ الشـاي الأسـود. شـكرًا لـك عـلى انتقـاء الأشـواك بعنايـة مـن سَـمَكِ التروتـة الخـاص بـك، ووضعهـا في طبـق الأشـواك. شـكرًا لإقناعـي بـأن أطلـب سـمكة القـد اللذيـذة هـذه. الأسـماك تحتـوي عـلى الفوسـفور، الـذي يشـجِّع التفكـير. شـكرًا لأنـك لم تتحـدَّث. شـكرًا لـكَ عـلى قـول بعـض الأشـياء التـي يمكننـي أن أقـضي عمـرًا في التفكـير فيهـا إن شِـئتُ. الرغبـة هـي محـور كل شيء. الرغبـة البسـيطة المبـاشرة. يحـدث كل شيء إذًا بنـاء عـلى رغبتنـا. هـذا هـو العـالم الـذي نعيـش فيـه. إنـه أمـرٌ مُهـمٌّ للغايـة! أنـتَ تعلـم... في بعـض الأحيـان أحتـاج إلى هـذا أكـثر مـن أي

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

شيء آخر، أن تكون جالسًا هناك، في مقابلتي، تشرب الشاي. كما لو أن عينيك كرسيٌّ يُمكنني أن أجلس عليه وأستريح قليلًا. شكرًا".

"شُكرٌ فَخمٌ للغاية. شكرًا لهذا!".

"هل ستنادي لورا من جديد؟".

"نعم. لورا حبيبتي".

"لورا!".

"لورا حبيبتي، علينا أن نذهب، قولي وداعًا لعمَّتِكِ إيڤا!".

"مع السَّلامة!".

"وداعًا، لورا، أيَّتها الصغيرة المُفعَمَة بالحياة! لورا جميلة".

"آه".

"حين كانت مونتا صغيرةً، كانت تقول نعم بنفس الطريقة دومًا. آه".

"الأطفال الصغار كاملون. قُلتُ ذلك من قبل، لكن اعتني بنفسك، واذهبي لرؤية طبيب نفسيٍّ جيِّد".

"سيعني هذا المزيد من التربية، لا الحقيقة. ليس هذا حلًّا".

"لا وجود للحقيقة. لكن في مكان ما، هناك حَلٌّ. وسوف تجدينه. تستحقين ذلك. لا ترتابي هكذا. الحياة جيدة. أنت جيدة. كل شيء جيد".

"شكرًا أخي".

"وداعًا!".

"وداعًا!".

"باڤيلس!".

"نعم".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"كُـنْ صادِقًـا، هـل تعتقـد أننـي أتجنَّـب تَحمُّـل مسـؤولية حيـاتي؟ ولكننـي في يـوم مـن الأيـام سـوف أتعلَّـم كيـف؟ يومًـا مـا سـأعود إلى نفـسي؟ لكنَّـكَ تعلـم أنـه لا يمكننـي اسـتعجال الأمـر. يجـب أن يحـدث ذلـك مـن تلقـاء نفسـه".

"نعم".

"هل هذا ما تظنُّه؟".

"نعم".

"أنـت تجعـل كل شيء يبـدو صافيًـا. كل مـا هـو سرِّيٌّ وجميـل، كل مـا هـو منطقـيٌّ".

"يمكنـك فعـل الكثـير بالكلـمات. أن تُفْرِطـي في الكـذب، أن تُجَمِّـلي الأشـياء، أن تقـترفي الأخطـاء، انهيـار جليـدي ضخـم يصطـدم بـك إذا قُلـتِ كلمـة واحـدة. يتدحـرج تدريجيًّـا ويلتقـط كلـمات أخـرى عـلى طـول الطريـق، ثـم هـا هـو ذا! لا يمكنـك حتـى الكـذب بالكلـمات- لكـن في هـذا تحميـلٌ للأمـر فـوق مـا يَحتَمِـل. مَحـضُ تمريـرٍ للوقـت بـلا هـدفٍ بـدلًا مـن القيـام بـشيء مـا".

"على سبيل المثال، الذهاب إلى الانتخابات للتصويت".

"نعم، على سبيل المثال".

"اكنسي الباحة. امسَحِي طلاء أظافرك. أنت ساذجة".

"قولي ما شِئتِ. لديَّ قناعاتي".

"وهذا هو سَببُ احترامي لكَ. شكرًا لك على ذلك".

"هل عُدتِ داخل نفسك عندما قُلتُ ذلك؟ من أين أتت هذه الـ شكرًا؟".

"الكون".

"آه يا كذَّابة... لورا!".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"إنها تفقد صَبرَها".

"اذهبي. في رعاية الله!".

"يا لها من طريقة قديمة في الوداع! ولكنني أَقبَلُها".

"هل تعتقدين أن الله في مكانٍ واحد؟".

"الكلُّ يعلم أن الله ثالوث. إله المسيحية على الأقل. لا أعرف. إنه تلاعُبٌ غَبيٌّ بالكلمات. ترى، في بعض الأحيان يكون الإطار الخارجي كافيًا. لنَحيَا معًا. يعيش الناس معًا، ولا بُدَّ إذًا أن هناك منطق ما في كل هذا. تربية الأطفال، كتابة الأطروحات والروايات، وكتب الطبخ والسيناريو، وحتى عمل الفطائر! كسب المال وإنفاقه، التعبير عن الرأي. والقتال من أجل شيء ما... شيء من هذا القبيل، أليس كذلك؟".

"بالضبط. حسنًا، أنا ذاهب".

"اذهَبْ".

"انتظري! كيف تَشكرينني على هدوئي أثناء الغداء؟ هل كنت تراقبينني؟".

"لا. لم أكن أفعل أيَّ شيء خاص. كُنَّا جالسين. نتحدَّث. يَمرُّ الوقت. لعلَّ هذا هو الأمر الوحيد الذي يجلب لي السرور الآن. حقيقة أن الوقت يمرُّ. السيارات تملأ الشوارع، والسماء على وشك أن تمطر، البَطُّ يقضم العشب. لا منطق في كل هذا، ولكن المياه مستمرَّة في سَرَيانها. هذا جميل".

"جميل".

"قُل لي يا باڤيلس، هل تشعر أنك قطعة واحدة؟".

"أنا لا أفكِّر في ذلك. ولن أفكر في ذلك. قد يكون هذا المرض مُعدِيًا".

"آسفة".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"لا تقلقـي عـليَّ، ليـس لـديَّ الكثـير مـن وقـت الفـراغ، ليسـت لـديَّ الرَّفاهيـة".

"ماذا؟".

"تمامًا كما في السابق. لا تنظري إليَّ بتلك الطريقة المُخيفَة".

"يُمكِنُك أن تقول للورا ألَّا تفعل ذلك... أمَّا أنا فلا...".

"لا تُدَخِّني!".

"هممم. اعتَنِ بنفسك، واكتُبْ رسالتَكَ".

"شكرًا، اعتني بنَفسِكِ أنتِ أيضًا".

"باڤيلس!".

"نعم؟".

"أحبُّك".

"أعلم ذلك".

"تعلم ذلك؟".

"نعـم. أنـتِ تُحبِّينني، وتُحبِّـين الأرض، والنـور، والحلزونـات، وهـذه الأوراق الخـضراء الصغـيرة هنـا، تُحبِّـين الماضي والحـاضر، الأطفـال، والعجائز اللئيـمات، والمصائـر المريعـة، وارتجـاف النجـوم، والمبـاني الجديـدة، والبحـر، والسُّـحُب، واللـه، والرَّبَّـات. فـوضى عارمـة. مـن المسـتحيل أن يُحِبَّـك أي شـخص، لأنَّـكِ تُحبِّـين الكثـير مـن الأشـياء. تُحبِّـين وفي الوقـت نفسـه لا تعرفـين كيـف تُحبِّين، لا تعرفـين مـا هـو الحـب. أنـتِ خائفـة مـن الحيـاة والمـوت، وراغِبَـةٌ في كُلٍّ منهـما. تحتفـين بالحـزن دون أن تعـرفي حقًّـا مـا هـو الحـزن. تُصَدِّريـن البهجـة دون أن تشـعري بهـا. تُصَدِّريـن حيـاةً فارغـة دون أن تعـرفي كيـف تبـدو الحيـاة دون الفـراغ. أخفِـضي حواجِـزَكِ يـا أختـاه. يصبـح الكلـب كلبًـا فقـط حـين نحبسـه".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"ليست لديَّ حواجز. كان أكسليز حاجزًا. وقد أُخذ مني".

"ربما تستعيدينه".

"لقد مات، أتذكَّر؟ يا إلهي!".

"هل هناك حياةٌ بعد الموت و/ أو الحب؟".

"هناك أناس يُقسَم لهم أن يَحظَوْا بحُبٍّ واحد كبير فقط في حياتهم. كيف تحافظ على نفسك للشخص التالي؟".

"هل تعرفين مَن هو حُبُّكِ الكبير؟".

"لا أعرف".

"هل تعرفين ما سيكون عليه الغد؟".

"أنا لا أعرف أي شيء".

"إذن كُفِّي عن ذلك. ولا تنظري إليَّ بتلك الطريقة".

نهايةٌ مفتوحَةٌ

في استطلاع رأيٍ في مقهى أكاديمية برلين للفنون، لم تستطع أن تمنع نفسها، وسألت بصوت عالٍ:

"إذًا هذه هي النهاية؟".

غرق صوتها في بحر الأصوات، ولكنْ قَليلٌ من الجالسين بالقرب منها سمعوا ما قالته. قَرَّب إلياس من قبرص خُصلاتِ شَعْرِه السوداء المُجعَّدة منها وسألها:

"ماذا قُلتِ؟".

"إذًا هذه هي النهاية".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"نعم، إنها النهاية".

ابتسم من تحت نظارته، ابتسامته الرائعة. أوشَكَت ندوة برلين على الانتهاء. غدًا تحزم حقيبتها وتطير عائدة للديار.

نظَرَت إيڤا حولها: على طاولة واحدة، جلس كل من روبرتا ونيل وجويل وإدواردو. جلست هي وبيتر وإلياس وباربرا وماريكا على طاولة أخرى. كانت اليوم مُعايَنَة معرض سيبيل بيرجمان للتصوير الفوتوغرافي في قاعة المعارض، وامتلأ المقهى بالحضور. شربوا القهوة، وتجاذَبوا أطراف الحديث ودخَّنوا. كان من المُفتَرَض أن تظهر سيبيل شخصيًّا!- أو هكذا بدا من الحماسة على وجوه الحضور. سيكون بوسعهم أن يوجِّهوا لها الأسئلة. سيكونون قريبين جدًّا منها، حتى يصير بوسعهم لمسها. توقيع، وابتسامة. طريقة سيبيل في استخدام عدساتها لالتقاط ابتسامة، عناق، ظلال وأضواء تختفي في ضوء النهار المتراقص. كل هذا سيكون متاحًا لهم اليوم، بوفرة، وجهًا لوجه، وساعة الوداع، قد يتاح لهم تقبيل يدها حتى.

الجمهور يد واحدة، لها مئات الأصابع.

كان بيتر يناقش شيئًا ما مع جويل والمهندس المعماري الشاب في القميص الأحمر -ماذا كان اسمه؟ مارسيل؟ ماريو؟- من برلين. وبجانب بيتر، كان المعماري -الذي عادَةً ما تبدو عليه الجدِّيَّة- يبدو كالرضيع. لاحَظَ بيتر تحديقَةَ إيڤا الثابتة الانطوائية، فالتفت إليها ولوَّح بكأسٍ من النبيذ الأبيض تحت أنفها. تحرَّرَت من أفكارها وعادت إلى العالم الصاخب من حولها.

"أليست الثانية ظهرًا ساعةً مبكِّرة جدًّا للنَّبيذ؟".

ابتسم بيتر وقال:

"أنا أعلم الساعة المُتأخِّرة جدًّا، أمَّا المبكِّرَة جدًّا فلا عِلمَ لي بها".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

ضَحِكَت إيڤا وقالت:

"لكنني لا أعلم ما الساعة المتأخِّرة جدًّا".

حدَّق فيها بيتر للحظة بلا مبالاة، أزاح شعره الداكن عن كتفه، ثم قال:

"حسنًا، ربما من المُبَكِّر جدًّا بالنسبة لك أن تَعلَمي معنى الساعة المتأخِّرَة جدًّا".

امتلأت القاعة المظلمة الصغيرة بالطَّلَبة ببطء. كم بقي من الأفلام للمشاهدة؟ اثنان؟

"بيتر من فضلك!".

ابتسامة إلياس! والملامح الجانبية من وجوه جويل وماريو وباربارا. كانوا جميعًا لطفاء جدًّا.

ما عدا بيتر. عندما قام للإلقاء في قراءات أمس، شعرت إيڤا برغبة طفولية منسيَّةٍ منذ زمن طويل في حماية نفسها. لقد أزعج الجمهور على الفور. لكن تلك قواعد اللعبة. كان على بيتر أن يكون حادًّا بالتعريف. من الغريب أن الشخص الحادَّ حقًّا نادرًا ما يكون فظًّا أو صداميًّا.. هذا النَّوع يدعو دون وعي إلى الحُبِّ، أحيانًا بشيء من العُنف. كان بيتر هشًّا وساخرًا، هناك الكثير من الحب بداخله، كان يريد الحرية. "في هذه الصفحات المُرَّة الحلوة ستجد سقوط النظام، والعَقدَيْن الماضيين لشرق أوروبا"... هذا ما كتبه رولينج ستون عن مسرحيته. "مُجرَّد غجريٍّ موسوعيٍّ يبحث عن أوروبا الجديدة"- أضاف لورانس نورفولك باستخفاف. كيف أمكنهم جميعًا وضع العلامة الأوروبية على بيتر! كمجموعة من الأطفال الذين يقلقون بشأن قدرتهم على سماع نداء أُمَّهاتهم.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

على عكس ألمانيا، لم يؤمن الناس في المجر مطلقًا بالشيوعيَّة؛ لذلك كان النظام بالنسبة لهم حقيقةً صريحة، ألقى بيتر بالفكرة خلال عَرضِه... حرفيًّا... ألقاها. بوقفة شامخة، وكتفين ضعيفيتن مائلتين إلى الوراء. دائمًا ما يقلب شَعرَه الدَّاكن للوراء. بابتسامة بسيطة على وجهه. أحيانًا تريد أن تصفع مثل هؤلاء الأشخاص شديدي السخرية، فقط لترى ما إذا كان بإمكانهم الشعور بأي شيء.

عروض في أكبر مسارح ألمانيا. تُرجم عمله الأول إلى خمسة عشرة لغة. عروض متعدِّدة الوسائط بمشاركته في أكثر من عشرين دولة. عمودٌ شهريٌّ في صحيفة فرانكفورتر العامة. عرف كيف يلعب أوراقه بشكل صحيح. سجَّل الفتى عشرَ نقاطٍ في تسديدته الأولى. كما أن هيئته كانت مناسبًا للدور تمامًا. بل والأدهى أنه كان يبدو كشخص متوحِّد، لم يَعُد بإمكان أي شيء في العالم أن يُبهِرَه. يملؤه ازدراء طفيف في أغلب الأوقات. هذا ما يحدث لمُمتَهِني الترفيه الجماهيري. ككراهيةِ مُنظِّمي الحفلات لرُوَّادها.

لكن إيڤا تعرف أن ازدراء بيتر كان رمزيًّا تمامًا. لقد اعتاد أن ينظر إلى العالم بسخرية، ويبتعد عن أي شيء يُفرض عليه. مثل تلك المشاعر الإيجابية الإجبارية كانت فقط لرَبطِ الكاتب بجمهوره. مثل باولو كويلو الذي كان يظهر أمام مئات القُرَّاء في معارض الكُتُب، ويلتقي الطَّرفان في غمرةٍ مُتشنِّجَة من الحب. بالأمس فقط سمعت إيڤا بعض الطلبة يضحكون على كويلو، وعادته في شُربِ عصير الجَزَر الطازج الممزوج بالقشدة الدافئة الطازجة، وعلى الزوجات اللاتي يَتَحيَّنَّ الفرصة ليخبرنه بمشاكلهن مع أزواجهن، بينما يستمع المؤلف ويُسدِي إليهنَّ نصائحة المليئة بالحب، بأسلوبٍ أبويٍّ.

لكنَّ تَحديقَةَ بيتر كانت بمثابة تحذير.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

احـذَرْ- تقـول عينـاه وهـي تـدور في الحضـور. لكـن ليـس مـن أجـلي، لقـد نشَـأتُ في مخاطـر المَجَـر. إنَّمـا أُحَـذِّرُكَ لأجلِـكَ أنـتَ. احـذر. ويجلـس الحضـور في صمـت، محاولـين فَـكَّ رمـوز الرسـالة الغامضـة التـي تُدعـى بيـتر.

في الختـام قـرأ بيـتر جـزءًا مـن مسرحيتـه باللغـة الإنجليزيـة، لكـن الجمهـور جلـس في صمـتٍ جَليـديٍّ. ثـم طلـب مـن أحـد المُترجِمـين قـراءة القطعـة نفسـها باللغـة الألمانيـة، قائِـلًا: "عـادةً مـا أرى المزيـد مـن الوجـوه الباسِـمَة"، لكـن النـاس قَـرَّروا أنـه كان يحـاول خداعهـم. كان هنـاك القليـل مـن الرجـال الأكـبر سـنًّا في الحضـور، مِمَّـن وقعـوا مبـاشرة في فَـخِّ اسـتفزاز الشـاب المَجـريِّ العَلَنـيِّ. وقـف شـخص واحـد وهتـف سـاخطًا: "توقَّـفْ عـن الترجمـة، كل الألمـان يفهمـون الإنجليزيـة!"- أجـاب بيـتر أنَّ فَهـمَ النَّـصِّ، والاسـتماعَ إليـه ليسـا ذات الـشيء. أفـضى هـذا إلى مناقشـة مُطَوَّلـة. رأت إيڤـا أن بيـتر قـد صـار عاجـزًا في مواجهـة العـدوان.

سألت إيڤا:

"بيتر، من المُفترض بالسخرية أن تخلق مسافةً ما، أليس كذلك؟".

تحوَّل انتباه بيتر إليها وتأمَّلَها بحَذَرٍ.

"مـن أجـل التَّحـدُّث فيـما بينهـم، أُجـبِر المَجَريُّـون عـلى اسـتخدام النصـوص الفرعيـة، وقـراءة بـين السـطور ومـا وراء النِّـكات. بحلـول الثمانينـات أصبحـت السـخرية هـي اللغـة الرسـمية في المَجَـر. إذا تحـدَّث شـخصٌ مـا بجدِّيَّـة، فسـوف يعنـي هـذا أنـه منحـاز إلى النظـام، أي أنـه يكـذب... مـن الصعـب المـزاح. إذا أخـبرت روسي بمَزحَـةٍ ترانسـيلفانيَّة قَذِرَة، فسـوف يضحـك لمـدة سـاعة، المَجـريُّ سـيضحك لنصـف سـاعة، أمَّـا الألمـاني سـيضحك لخمـس دقائـق. الأمـر ومـا فيـه أن النكتـة تبـدو غريبـةً بالنسـبة لشـخص وُلِـدَ في غابـة الكاربـات، حيـث يفـوح كل شيء برائحـة الـدم والمـوت".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"والآن، عندما تجوب العالم، هل تحافظ على حِسِّكَ الساخر بالأشياء؟".

هزَّ بيتر كتفيه بلا مبالاة وقال:

"لا خيار لي، لقد نشأتُ مع السُّخرية. إنها جِلدي الثَّاني".

"والمسافة كذلك؟".

أومأ بيتر...

شَقَّت باربرا طريقها وسط الجمهور بأسطوانة مُدمَجَةٍ في يَدِها. نظَرَت إلى إيڤا، فابتَسَمَت إيڤا مُشجِّعَةً ولوَّحَت لها.

درَسَت باربرا في أكاديمية كونراد وولف للسينما والتليفزيون تحت إشراف المخرج هانز فويس، وعمليًّا، وضع هانز الفتاة في منزلَةٍ عالية. كلَّ مَرَّة تلتقي بإيڤا تحاول باربرا أن تتكلَّم الروسية. تتكلَّم عن روسيا وحُلمِها بالسَّفَر إلى موسكو، كانت إيڤا أكسل من أن تُذَكِّرها بأن البلطيق وروسيا مكانان مختلفان.

ذات مرة، تَحدَّثَتا عن لاتڤيا.

"وما ألمانيا"- هتَفَت باربرا "مُقارَنَةً بمساحة بلَدِكَ الشَّاسِعَة؟".

عندما رأت وجه إيڤا المتفاجئ، أوضحت: "أقصد السُّهوب!".

ضحَكَت إيڤا ولم تَقُل شيئًا. في نظر المجتمع الدولي، كانت روسيا غير عقلانية، ولكن الفكرة الرومانسية التي يحملها الألمان عن روسيا كانت في بعض الأحيان أكثر خبالًا من روسيا نفسها.

صغيرة ونحيلة وذات شَعرٍ قصير، ذكَّرَت باربرا إيڤا بالمُراهِقات. قال هانز إن لديها طابعًا خاصًّا. وكان فيلمها مُذهِلًا، كما سترى إيڤا بنفسها. هكذا ينبغي على المُخرِج أن يتصرَّف -فَكَّرَت إيڤا- كأرنبٍ: أبيض في ثلوج الشتاء الشاحبة، وبُنيٍّ بين أعواد القَصَب الصَّفراء

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

صيفًا؛ كي لا يُغلق العالَمُ أبوابَه دونه أبدًا... كي يستطيع التسلُّل إلى عالَمٍ غريب عنه، وملاحظته.

بينما كانت باربرا تقدِّم فيلمها:

"في الصيف الماضي، صوَّرنا أنا والمُصوِّر في رومانيا... في بوخارست. كان الأمر صعبًا حقًّا، ليس صعبًا من الناحية الجسدية، بل روحانيًّا. سترَونَ... بعض المشاهد تمَّ تَمثيلُها -المَشاهِدُ التي تَمَّ تصويرها في مركز الشباب- لكن الباقي وثائقي. كَوَّنَّا صداقاتٍ مع أطفال شوارع بوخارست. وهم يعيشون في أنابيب التدفئة. قَدَّمنا لهم كاميرا فيديو وجعلناهم يصوِّرون أنفسهم في عالمهم. بالنسبة لهم كانت لعبة، ترفيه. بالنسبة لنا، إنها لقطات قيِّمة. سترون... ماذا يمكنني أن أقول؟ ابدأ الفيلم!".

جلس بيتر بجانب إيڤا بكأس من النبيذ وهمس في أذنها: "شكرًا على الدَّعم!".

سَقَطَ شَعرُه الأشعث على كتفها، ودغدغ عنقها. تراجَعَت وضحكَت ثم قالت:

"بسيطة! هل زُرتَ رومانيا؟".

أومأ بيتر رأسه ببساطة وقال:

"اليابان؟".

"لا! اليابان استثناء، وأنا لا أكذب أبدًا!".

غلبهما الضحك حين خيَّم الصمت على القاعة، وغَدَت الأجواء فجأةً غاية في الجدِّيَّة.

بدأ الفيلم.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

كان قويًّا، حتى بالنسبة للطلاب الذين تعلَّموا الانفصال عاطفيًّا عن المواد المُستَخدَمَة وتقييم الجوانب المهنيَّة للفيلم. المَشاهِد المهزوزة التي تَمَّ تصويرها باستخدام كاميرا ڤيديو مُصَغَّرة تضطرب مع أنفاس المُصوِّر وضربات قلبه. كانت باربرا من أتباع "دوجما 95" المُخلِصين، أو ما سُمِّي البيان النهائي لأفلام القرن الواحد والعشرين، الذي عُرِض في باريس عام 1995 للمخرج الدنماركي لارس فون تريير وزملاؤه. يتوخَّى هذا البيان، أو "نذر العِفَّة" خَلْقَ أعمالٍ تُخالِفُ بريق هوليوود المُصنَّع من خلال:

- التصوير في مواقع طبيعيَّة فقط
- عدم تسجيل الصوت بشكل مُنفَصِل عن الڤيديو، أو العكس، وعدم استخدام الموسيقى ما لم تكن جُزءًا من المشهد نفسه الذي يتِمُّ تَصويرُه
- استخدام كاميرا الڤيديو
- صناعة أفلام مُلوَّنة دون استخدام مُؤثِّرات الإضاءة الخاصَّة
- منع استخدام الأدوات البصرية والمُرَشِّحات
- عدم تصوير أيَّة مشاهد يستحيل تنفيذها بشكل واقعي (مشاهد القَتلِ مثلًا)
- منع تغيير الوقت والإعداد الجغرافي، على الفيلم أن يَحدُثَ هنا والآن
- حظر الأفلام التي تخضع لتصنيفٍ مُعيَّن
- استخدام الأفلام الأكاديمية طراز 35 ملِّم فقط (وكانت تلك القاعدة هي أوَّل ما كَسَرَته المجموعةُ الجديدة باستخدام تقنيات التصوير الرقمي)

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

- وأخيرًا: الامتناع عن أخذ الفضل على العمل، بحيث لا يظهر اسم المُخرِج في التِّتر.

عرف الجميع أن سخرية فون تريير الذاتية كانت قويَّةً، وأن بيان "نذر العِفَّة" كان أشبه بمحاكاة هَزليَّة، لكن الفضيحة نجَحَت.

رغم أن قائمة المحظورات تلك كانت بمثابة العَلَم الأحمر أمام ثور، إلَّا أنها شجَّعَتهم على التأمُّل في مستوى الأكاذيب في المواد الفيلمية المُصوَّرة: كل ما يتمُّ تلوينه بالكمبيوتر، وقَصُّه، وإضاءته، وإعادته، وإطعامه للجماهير، كما لو كان الأمر كله محسوبًا لآخر دمعة، ودولار.

لم تَظنَّ إيڤا أن ثَمَّة حاجة لمناقشة الموضوع. بوسع الجميع أن يُميِّزوا بين الزجاج والبلاستيك، فإذا كان أحدهم يُفضِّل البلاستيك، فهي مسألة تفضيل شخصي، ومعرفة. كانت تستمتع بأفلام الإنترنت الاحترافية، لنقاء أسلوبها، لكن الأسلوب النقي لن يجذب انتباهك لأكثر من 10 دقائق. حتى الأخطاء إن وُجِدَت، كانت مُثيرَةً. وبكل الطُّرُق الأخرى، كانت تلك الأفلام مُمِلَّة ومُتوَقَّعة بشكلٍ لا يمكن احتماله، مثل العقل البشري. كانت تهدف للترفيه عن المشاهد.

ليس بإمكان أي بيان أن يصنع من المرء فنانًا، بالمقابل، ليس بإمكان أي فنَّان أن يُلزم نفسه ببيانٍ ما، لو كان فنَّانًا حقيقيًّا. ولو كان هو من كتبه.

باربارا موهوبة بشكل لا يمكن إنكاره. كما أن لديها مُصوِّر ماهِرٌ. وامتدَّ ضوءٌ رقيق من أعماق القاعة باتجاه الشاشة.

كشفت المشاهد ما يُحجب عادة عن كل من على وجه الأرض. ملجأ مصنوع من قطع من المواد العازِلَة، تكسوها خِرَقٌ بالية. وجوه تحَجَّرَت من الجوع والمُخدِّرات، وكلها يُخرجها الضوء من الظلام، كما لو ينحتها نحتًا من الفراغ بإزميلٍ خَشِن. تعليقات الأطفال الساذجة. كان جحيمًا حقيقيًّا تُمكِنُ رُؤيَتُه.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تكشَّفَت القصة ببطء، مُسلِّطة الضوء على الأبطال. كان أحدهم صبيًّا يقوم بتصوير العالم تحت الأرض، وحين ظهر بنفسه على الكاميرا، شهق الحضور. لم يكن يتجاوز الثامنة، لكنه كان لا يَكفُّ عن التدخين أثناء حديثه مع المرشد المسؤول عنه في مركز الشباب. كانت آراؤه عقلانيَّةً، كآراء رَجُلٍ في الثمانين. كان مشاهدته مُرَوِّعة، هذا الشخص الصغير، بداية الإنسانية كلها، والذي قُدِّر له أن يكبر في ظلامٍ حَرفيٍّ.

لكن باربرا لم تقترف الخطأ التقليدي الذي يرتكبه المخرجون المبتدئون: إبداء الشفقة، وإضفاء المزيد من المشاعر على ما تُمكِنُ رُؤيَتُه بالفعل. جمَعَت المراهقين وذهبت بهم إلى شاطئ البحر، وصوَّرَت انفعالاتهم بتلك الظاهرة التي لم تسبق لهم رؤيتها. ظلَّت الكاميرا تلعب دور المراقب، وسمحت للمشاهد بأن يفكِّر بنفسه.

كان للفيلم أيضًا ذروة دراميَّةٌ لائِقَة- انتهت بمشاهد وثائقية للأطفال تحت الأرض، وهم يصدرون حُكمًا بالإعدام على واحدٍ منهم؛ لجريمة غير واضحة، وإن كانت في اعتقادهم لا تُغتَفَر.

تُصوَّب الفُوَّهةُ المزدوجة إلى رأس المراهق الأسير الذي يتلوَّى كدودَةٍ خَشيَةَ الموت، ولكنه بعدها، يفرد قامته، ويضع يديه في جيبه، ويُحدِّق مُتحدِّيًا فيمن يُصوِّب عليه.

تشعر إيفا بالسخونة، ولثانِيَةٍ تشعر أنها ستغيب عن الوعي. لا تعرف على وجه الدِّقَّة أيَّة تفصيلة صغيرة مزَّقت مَخزَن ذكرياتها وفتحته: تحديقة الصبي المُتَّهم، سترته، النظرة في عينيه، أو الفُوَّهة المُوجَّهة إليه، لكن مشهدها مع أكسيلز يتبادر إلى ذهنها، واضحًا، واضحًا كضوء النهار.

أكسليز!

أي نوعٍ من الأسماء هذا؟

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

اسمٌ شائعٌ جدًّا!

أكسليز وإيڤا! وهي التي تصوِّب عليه. في ذلك اليوم المُشمِس، الخامس عشر من يناير.

أدرَكَت إيڤا أنها لم تفكر في أكسليز لسنوات. تذَكَّرَت وجهه، وعينيه الخاليتَيْن من أيِّ تعبير. السيلويت الصغير الذي يشبه العصفور في نهاية الفُوَّهة. بدا لها فجأة كما لو أن الخامس عشر من يناير لم يحدث لهما أبدًا. بل كانت قصَّةَ شَخصَيْن آخرَيْن في حياةٍ أخرى.

تصرخ صرخةً خفيضة وتَفرُكُ وَجهَها بيديها كما لو تحاول أن تُوقِظَ نفسها. يمسك بيتر بذراعها في قلق، تدفعه بعيدًا، وتتَّجِه لنهاية القاعة، إلى حيث تراصَّت الطاولات وعليها مُرَطِّبات الغَداء.

على دفعة واحدة، تبتلع إيڤا زجاجةَ مياهٍ معدنيَّة. ثم أخرى. سحب الفيلمُ طاقَتَها، تشعر كما لو لم يَبقَ منها سوى قشرة خاوية.

انتهى الفيلم قبل أن يضغط على الزِّناد، ونهاية مفتوحة.

بضع ثوانٍ من الصمت المُميت، ثم تُصفِّيق. تقوم باربرا بإخراج القرص المضغوط من المُشَغِّل وتذهب إلى مقعدها، وتبحث عن وجه إيڤا، لكن إيڤا لا تُلوِّح لها. إنها تقف وحيدة في الجزء الخلفي من القاعة بجانب طاولة بيضاء مُغطَّاة بالقماش، وهي تلتهم قطعةً من الكعك البُنِّيِّ مع الكريمة المخفوقة. قطَعَت جُزءًا كبيرًا ووضعته على طبقٍ، وها هي تلتهمه.

بيتر تَحدَّث معها في الحديقة. يقف في مَهَبِّ الريح، يتنفَّس بصعوبة ويتطاير شعره من حوله.

"ربما يمكننا تناول العشاء معًا الليلة؟".

الليلة، تُفكِّر. بوسعها لَملَمَة شتات نفسها بحلول المساء.

"بالتأكيد".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"سأتَّصِل بغُرفَتِك...".

"لا أعرف متى سأعود. كنت سأذهب للمشي".

يهزُّ بيتر كتفها ويقول:

"إذًا اتَّصِلي بي. غرفة 311، في الطابق الثالث. سوف تتَّصلين؟ حوالي سبعة، ثمانية؟ وعد؟ سأكون في انتظارك".

ورجع مُسرعًا. ربما عاد للمقهى لتناوُلِ كأسٍ آخر من النبيذ احتفالًا بفيلم باربرا.

لا يزال يومًا جميلًا من أيام يناير الجميلة.

نهر سبري، سِربٌ من الأسماك، مقاعد، الشمس، صياح الأطفال.

الرياح والأوراق. نقيض الخريف... هكذا يكون أبريل في لاتفيا.

أو الصيف الهندي.

يُمكِنني أن أكون سعيدةً للسعادة، تفكِّر إيفا. سعيدة بالنهر، أو ببرلين.

انظري، موبلينهاوس كيرن، يا لها من أرائِكَ جميلة، بألوان فاتحة ووسائد جلدية داكنة. لكنَّ شيئًا هَزّ قلبها بشعور من الانزعاج منعها من الاستمتاع بالوسائد.

يقود صَبيٌّ توزيع بريدٍ ألمانيٌّ درَّاجَته باتِّجاه مَحلِّ الأثاث، ومعه حقيبة البريد الصفراء.

"ما هو تاريخ اليوم؟"- تسأله.

"الخامس عشر من يناير"- يجيبها، وبنظرة واحدة، ترى إيفا نفسها كما لو في مرآة، تَقِفُ مُحتارةً أمام واجهة مَتجَرٍ ما، بعينين تائِهَتَيْن، ضائِعَتَيْن في الماضي، تتنحَّى جانبًا شبه مُعتَذِرَة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

جانبًا... جانبًا... جانبًا.

أكثر من أي شيء آخر، تريد أن تكون في هذه اللحظة، وفي جِلدِها.

تَقِفُ على جسر ألت- موابيت. من تحتها، تتدفَّق مياه نهر سبري، داكِنَة ومُسرِعَة، لكنها تظلُّ عاجِزَةً عن سَحْبِ حِفنَةٍ البَطِّ والإوَزِّ التي تُعانِدُ التَّيَّار، إلى البحر. على أحد ركائز الجسر، كتب أحدُهم بحروفٍ رشيقة: Alla heisst Gott.

يمنحها الهواء النقي القُوَّةَ لتَظَلَّ حاضِرةً. تعود إلى الفندق، مُنهَكَةً، ولكن هادئة. تفرد جسدها على السرير وترقد دون حراكٍ ساعَةً تلوَ ساعة، مُستَمتِعَة بخلوِّ الفندق من هويَّتها، بحقيقة أن هناك القليل جدًّا من أشيائها هنا. القليل جدًّا من حياتها.

أن تكون بمفردها. ألَّا تُفكِّر في أي شيء. أن تستخلص هذه الساعات من بدن كينونتها.

يتسلَّل المساء دون أن تلاحظ. كانت قد غَفَت أثناء التحديق في السَّقف. تأخذ حمَّامًا سريعًا، وترتدي ملابسها، وتُهاتِف بيتر. لا يردُّ. بعد خمس عشرة دقيقة تتَّصِلُ مُجدَّدًا، وتُقرِّر أن تذهب إلى غرفته. ماذا لو كان هاتفه مُعطَّلًا؟

يبتلع الرواق الأحمر الناعِمُ كلَّ الأصوات. تَدقُّ إيڤا باب الغرفة 311. بعد لحظة يفتح بيتر الباب، نصفَ عارٍ. فقط بمنشفة ملفوفة حول خَصرِه.

"كنتُ نائمًا"- قال "لم أسمع مكالمتك. تفضَّلي!".

تستشعر إيڤا مُناوَرَتَه الخفيَّة بوضوح، في ظهره الرشيق الأسمر، وفي انحناءة المنشفة حول خصره، وتلك النظرة المثيرة في عينيه. طبيعة المرأة أن تُلهم الرَّجُل. وماذا بعد ذلك؟ بَعدَ ألَّا يبقى ما يُمكِن إلهامُه... أن تُشبع رغباته؟

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يندفع الدم بسرعة لوجنتيها. تخفض عينيها.

"لا، شكرًا! سأنتظرك في المطعم"، قالتها مُسرِعَةً واتَّجهَت نحو السُّلَّم.

هكذا تسير الأمور دومًا. نظرة ثم شرارة آسِرَة، تَحدُث أو لا تَحدُث.

وفي بعض الأحيان، تندلع الشرارة في لحظة يقتسمها شخصان. لكنها لم تَعُد بحاجة إلى ذلك.

يقرع بيتر كأسه بكأسها. يمتدُّ الجدار الزجاجي لمطعم فندق أروس بطول حافة النهر. يُطِلُّ المطعم على الجسر ومياهه المتدفِّقة التي تعكس أعماقها المُظلِمَة أضواء بعدد النجوم في السماء.

يفتح علبة سجائر ويعرض على إيڤا. ترفض.

يشعل واحدةً ويقول بلا مبالاة:

"لستُ مُدمِنًا على السجائر! أنا فقط أُدخِّن من أجل المُتعَة".

"والمتعة؟ ألَستَ مُدمِنًا عليها؟".

ضحكا مرة أخرى. من السهل قضاء بعض الوقت مع بيتر لأن لديه ثِقةً لَعينةً بنفسه، ذكيٌّ جدًّا، وساخِرٌ جدًّا.

ثم يبتسم بخُبث.

"كُنتُ في لاتڤيا مرَّة".

تسأل إيڤا:

"ما رأيك؟".

"كان ذلك منذ خمس سنوات، كنتُ أبحث عن مُترجِمٍ لكتابي، لم أجد سوى مُتَرجِمٍ مَجريٍّ واحدٍ في جميع أنحاء البلاد، رجل عجوز، في الثلاثين بعد المائة من عمره تقريبًا. ميثوسيلي قُحٌّ. أخبَرتُه بوضوح ألَّا

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يُتَرجِمَ كتابي، وذهبت إلى ليتوانيا. أنتم كقبيلةٍ هِنديَّة، منغقلون على أنفسكم، عازمون على الانسحاب من العالم".

لم يكن هذا مديحًا. أرادت إيڤا أن تَردَّ الصَّاع.

تضحك قائِلَةً: "الكُتَّاب هم القبيلة... لكنَّكَ تبدو دقيقًا جدًّا. هل اهتَمَمتَ بترجمات كتابِكَ بنفسك؟ أنت مديرك الخاص، أليس كذلك؟ أتعلم يا بيتر، أَوَدُّ أن أعرف... ألا تعاني حياتَكَ ككاتِبٍ من حياتِكَ كمؤدٍّ؟". تضيقُ عَيْنَا بيتر الداكِنَتان ويقول:

"كيف؟".

"لقد شاهَدتُكَ وأنت تقرأ ذلك المقطع من مسرحيتك. تُحصي عدد الابتسامات التي ستثيرها كُلُّ نُكتَةٍ تُلقيها، وإذا لم يتفاعل الحَشدُ بالطريقة التي تعتاد عليها، تنهار، وتشعر بالاغتراب في جلدك. أَلَا تصبح أنت الاعتمادي بهذه الطريقة إذًا؟".

كِشّ.

مُبتسمًا، يسحب نَفَسًا من سيجارته ويتراجع في كرسيِّه.

"لا توجد حياةُ كاتِبٍ وحياة مُؤدٍّ. هناك حياة واحدة فقط، حياتي".

ثم يطرح سؤالًا غير مُتوقَّع:

"ماذا عنك؟ كنت أشاهدك طوال الأسبوع. هل أنتِ سعيدة بحياتِكِ؟".

ومات الشَّاه.

لا تستطيع إيڤا إيجادَ الكلمات.

"أنت امرأة رائعة في كل ما تفعلينه. كيف إذًا تختتمين كلَّ قِصَّة ترويها بقول إنَّكِ كُنتِ تتمنَّين لو سارت بشكل مختلف؟ هل يتَّخِذ شَخصٌ آخر قراراتك نيابة عنك؟ لو لا، فلماذا لا تفعلين ما تريدين

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

أن تفعليه؟ يبدو الأمر كما لو أنَّكِ وطوال الوقت الذي تعيشين فيه هذه الحياة، تفكرين في حياة مختلفة. أخبريني إذًا، هل أنتِ سعيدة بحياتك؟".

لحُسنِ الحَظِّ، يَرِنُّ هاتف إيڤا؛ ممَّا يمنحها بعض الوقت للتفكير في إجابة. إنها مونتا. افتقَدَت أُمَّها ولم تتفاجأ على الإطلاق لسماع أنها في برلين. تتحدَّثان لنصف ساعة جيِّدة، ولتذهب رسوم التجوال إلى الجحيم.

عندما نظرت إيڤا إلى بيتر، تلاشَت شكوكها. لن تحيك الأسود والأبيض معًا بعد الآن. فقط الأبيض مع الأبيض. والأسود مع الأسود.

كانت الإجابة مَرسومَةً على وجهها بالفعل حين سألَت:

"عَمَّ كُنتَ تسأل؟".

"هل أنتِ سعيدة بحياتِكِ؟".

"تعرف، قبيلة لاتڤيا لديها هذا الشاعر «زيدونيس» الذي قال ذات مرَّة: السعادة ليست سوى انتظامِ كُلِّ الأشياء. أَوَدُّ أن أقول إن السعادة نهاية مفتوحة".

"أحسَنتِ قولًا. في كلامِكِ بعض السخرية أيضًا. لكن لماذا تبدو عيناك حزينَتَيْن للغاية إذًا؟".

"لأن اليوم الخامس عشر من يناير، هذا كل شيء. دَعنا نتمَشَّ على نهر سبري".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

مونتا

غواية الضَّباب

الغروب غير معقول بتاتًا، تُفكِّر إيڤا.

وإلى أين سيذهبون جميعًا؟

غروب هذه الليلة جنونٌ خالِصٌ، هذا ما تَظنُّه.

وما تظنُّه لا معنى له. لم يَعُد لكلمة "غير معقول" أي معنى خاصٍّ منذ فترة. يصرخ الناس بها في الشوارع، حين يريدون إقناع الآخرين أنهم ما زالوا قادرين على أن يشعروا بشيء ما. وليست لديها أدنى فكرة عن المعنى الحقيقي للجنون أو لغير المعقول. مُجرَّد كلماتٍ.

لذلك نحن بحاجة للتخلُّص منهم.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

وتلـك العـين البرتقاليـة التـي تَسـتَعِرُ في سـتارٍ مـن الضبـاب المائـل إلى الزُّرقَـة، ومخالـب الليـل الهَشَّـة الممتـدَّة للسُّـحب البيضـاء المتناثـرة. شيء درامـي كان يحـدث هنـاك. شيء غريـب. فـوق الغابـة نفسـها.

كيف تقوله؟ بمَ تسمِّيه؟ وكيف لك أن تعثر على الكلمات؟

وبعـد دقائـق قليلـة تنظـر إلى هنـاك مـرَّةً أخـرى. لم يَعُـد هنـاك شيء. انطفـأ.

كلمة جيِّدة، انطفأ.

انطفأ.

تنظـر مـن نافـذة أخـرى، تركـض مجموعـة مـن الأطفـال في الفِنـاء في أجـواء نصـف الغَسَـق هـذه، وينـادون كلبًـا ليتبعهـم. هكـذا تسـير الأمـور دومًـا... دومًـا مـا يتبعهـم. ابنتهـا فعَلَتهـا أيضًـا، خطـوة بخطـوة، ذاهبـة إلى مـكان مـا، لكـن لَشـدَّ مـا أرادت حمايتهـم... الكلـب وابنتهـا وكل الآخريـن.

ومن المستحيل أن تفعل.

يهبط الضباب على الباحة.

ربمـا يجـب أن تنـادي هـؤلاء الأطفـال للداخـل؟ ليلطِّخـوا الجـدران والـدَّرَج بأصابعهـم الموحِلَـة، ويتناولـوا الكعـك في الظـلام، عنـد نهايـة السريـر. كي يصيحـوا ويرقصـوا بـين الوسـائد، ويلعبـوا سِرًّا بِطِـلاء الشِّـفاه، واحـدًا تلـو الآخـر، ثـم يكـبروا فجـأة.

كحبَّات ذُرَةٍ تقفز مُنفَجِرَةً في حرارة النهار.

حـين يكـبر الأطفـال، يبتعـدون عـلى الفـور، ويسـتمرُّون، مـع أنهـم، وبصراحـة شـديدة، منـذ خمـس ثـوان فقـط، لم يكونـوا أكـثر مـن مُجـرَّد رعشَـةٍ جِنسـيَّة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

هناك الكثير من الميتات الصغيرة في الحياة، رغم أنه على الأرجح، لا يوجد الكثيرون مِمَّن ينظرون لتلك التَّشَظِّيات العابرة بتلك الطريقة. بِمَ يُسمُّونها إذًا؟ لا تعلم.

ينزلق الأطفال عبر الطفولة، ويستمرُّون في استمرارهم.

هذا خطأ. مثل كلِّ البالغين الذين يحملون الحيوات العديدة التي عاشوها داخل أنفسهم، ويستمرُّون ويستمرُّون.

يمكنها أن تناديهم إلى الداخل -كما لو كانت تحشد جيشًا- تُمرِّر حِصصَ الشوكولاته لتُبقِيَهم على قيد الحياة، وتبتسم لهم بمرارة، وتكافئهم على جسارتهم في الدخول بأحذيتهم المُوحِلَة. لكن الكلب على الأرجح سيكون ممتلئًا بالقُراد، وسيَسَّاقَطُ منه مُمتَلِئًا كحَبَّات عنب ناضجة، وسيدهسه الأطفال ويُلطِّخون الأرض. لا وقت لديها الليلة لمسح الأرض. لا بُدَّ أن تحمي فكرتها. مَهمَّة أساسية، أنانية. عليها أن تنفرد بنفسها. يا للتفاهة! والأكثر: يا له من غروب! صياح الأطفال في الفناء. يعيشون في عالم مختلف كلِّيًا. عالَم لا تعلم هي عنه شيئًا. سيزهر هذا العالم حين يذوي عالمها. في كل ثانية، تزهر آلآف العوالم وتذوي في نفس الوقت. لحظة فوضى في رأسك. يا إلهي، متى سيكون لديَّ الوقت لغسل هذه الأطباق؟ متى غادر؟ يبدو كما لو مرَّ دَهرٌ على رحيله. لكن لا، بضع ساعات وحسب. ربما، لو كانت شخصًا آخر لاستطاعت أن تحظى بقيلولة في منتصف النهار...؟

إلى أين ينادون هذا الكلب؟ إلى أين سيهيمون؟ إلى أين سيذهبون بشعورهم المُتشابِكَة الشَّعثاء وأياديهم الحمراء المُتجمِّدة؟ حيثما ذهبوا، قطعًا سيكون هناك خطر من نوع ما: هور، رمالٌ متحرِّكة، مستنقع، ضفَّة شديدة الانحدار من شُجَيراتِ الدَّفنة بأزهارها الحلوة، وأغصانها السَّامَّة، أو شيء آخر لا يَقِلُّ إغراءً... ربما ينبغي عليها أن

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تحمي ابنتها، تناديها إلى الداخل وتُبقيها تحت جناحها؟ ذات مرة، كان هؤلاء الأطفال، ابنتها.

ذات مرة، سايَرَت أمَلَها في أن تستطيع حمايتهم جميعًا.

من كُلِّ شيء.

لكن لا، ليس هذا مُمكِنًا. عليها أن تكون مع ذات نفسها الليلة، بكل ما تحمله الجملة من أخطاء نحوية. مَهمَّة صغيرة؛ لأن الهدف صغير. قيمتها بالنسبة لتاريخ العالم لا تتعدَّى قيمة النَّملَة لمونت بلانك. ولهذا، من الأفضل أن تذهب فتبارك الكلب والأطفال، تجمعهم، وتُطعِمُهم، أو شيء من هذا القبيل، لكن هدفها ضئيل، وستكون معاناتها عظيمة؛ لأن هذا الذي يُبدِّي الآخرين على نفسه، سعيدُ، لكنها كثيرًا ما تُبدِّي نفسها على كل شيء، وهي لا تخجل من ذلك حتى. لقد أصبحت تستمتع بالانسحاب أبعَدَ وأعمَقَ بداخل نفسها. ويومًا ما، ستضطرُّ إلى دفع ثمن كل هذا.

هذا الضباب!

ذات مرَّة في السوق المركزي، قرأت لها إحدى الغجريَّات طالِعَها: "ستضطرِّين إلى البدء من الصِّفر مرَّاتٍ عديدة. إنها موهبة لديك. فقط إلى حدٍّ مُعيَّن".

ترسم حدود عالمها. تبني سورًا؟ لا فائدة- ليست لديها المهارة لذلك. لا يمكنك أن تبدأ أي شيء بالقوة. الأمر وما فيه: أنا أختار أن أؤمن. مرارًا وتكرارًا من البداية. تنظر إيڤا حولها، لو تَبَقَّى أيُّ شيء، ولو حَبَّة رمال، سيصبح بوسعها أن تصنع منها لؤلؤة.

ستستطيع الإبقاء على تماسُكها.

كل شيء مُبَعثَر. عِشْ نصفَ حياةٍ واكتَشِفْ أن كلَّ شيء مُبَعثَر.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

لكنها في الليل تشعر كما لو أن هناك نهرًا. ولا لحظة واحدة من حياتها، ولا منطقة يتدفَّق فيها النهر، إلَّا وكانت جزءًا من النهر نفسه. قلب النهر هناك، في مكان ما، في الأفق. هناك، من حيث يتدفَّق النهر، أو هناك، إلى حيث يتدفق.

وبينما هي تغسل الصحون، أخذت قلم رصاص فجأة وكتَبَت على منديل وَرَقيٍّ: يا لهذا الضباب! ويا للثمن الذي ستدفعه في تلك الجُملَة! نصف تعاستها في خيالها وفضولها. ستنسحب من الحياة مع كل حرف، وتُجدِّف بعيدًا عن الوجود حتى لا يعود بوسعها أن تُمهِّد طريقًا يحملها إلى مشهد بسيط خارج النافذة. أبعد وأبعد، كجدول يجري من جبل، كبُعدِ الأرض عن الشمس. ستسَمَرُّ، ستصير بعيدةً، في البراح. لن تخبر ابنتها كم تفتقدها؛ لأنها لن تستطيع العثور على الكلمات المناسبة. ستنكَبُّ لأيَّامٍ على الفقرات ذاتها، تكافح لتصيغ الحب في عبارات قصيرة على الورق، حتى يقبله الآخرون ببساطة. ستمضي حياتها تدرس، لكنها لن تتعلَّم أبدًا كيف تكتب كلمة "غروب".

غير معقول... أين ذهب كل شيء؟ كان هنا للتَّوِّ- تُفكِّر، ناظِرَةً إلى السماء الرمادية. الفِناءُ خاوٍ. لقد اختفوا جميعًا.

مونتا

تصل متأخِّرةً. لا أحد يذهب للزيارة في مثل هذا الوقت المتأخِّر- متأخِّر بشكل غير مقبول. متأخِّر للغاية. إنه ذلك الوقت الذي يُرشِدُ فيه اللَّيلُ بداياتِ المساء إلى طريق الخروج. يُغرق الغسَقُ أفكارَكَ، وبمجرَّد أن يخيِّم على كل شيء، تفقد القدرة على فعل أي شيء. تتسلَّل

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

محاليـق الظـلام إلى ذهنـك كالأفعـى. فـات أوان الـكلام. يبـدو كل شيء مسـتقرًّا في نفسـه بالفعـل، فعـلامَ إهـدارُ الكلـمات؟

إنـه وقـت مناسـب لـشرب الشـاي والجلـوس في هـدوء. ربمـا لهـذا اختـارت تلـك السـاعة المتأخِّـرة لتـأتي. كي لا تضطـرَّ للـكلام. كي تتمكَّـن مـن قضـاء ليلتهـا والمغـادرة في الصبـاح. زيـارة ماما- مجـرَّد تاريـخ مُحـاطٍ بدائـرة في النتيجـة. تفتـح إيڤـا البـاب.

"مرحبًا!".

"أهلًا".

قُبلَـة سريعـة عـلى الخَـدِّ، ثـم خطـوة للـوراء، للحفـاظ عـلى بعـض المسـافة. يحمـل الهـواء حـول مونتـا سـحابة ثقيلـة. ربمـا توقَّفَـت لسـيجارة سريعـة قبـل أن تنطلـق.

تُجهِّز إيڤا الشاي. تتجوَّل مونتا في أنحاء الشَّقَّة.

"هل يمكنني استخدام الإنترنت؟".

"بالطبع".

تجلـس عـلى الكمبيوتـر. شـعرها مجـدولٌ في ضفائـر ضيِّقـة، سـميكة وشـائكة كفرشـاة خَشِـنَة بلـون الظـلام. كتفاهـا الدقيقتـان مُتحَدِّبتـان، عنقهـا النحيـل مُتوتِّـر. كـما لـو كانـت ابنتهـا مُحاطَـةً بالرمـاح وأشـواك الصَّبَّـار التـي لا تُمكِـن رؤيتهـا. مراهقـة، لا ينبغـي أن تُمَـسَّ.

"أتريدين الشاي؟".

"أحضريه إلى هنا".

تتنهَّـد إيڤـا. هـا هـو الأمـل في أن يتمكَّنـوا عـلى الأقـل مـن تنـاوُل الشـاي عـلى الطاولـة بمواجهـة إحداهـما الأخـرى، ولـو في صمـت، يَنفَثِـئُ كفُقَّاعـة. تضـع إيڤـا فنجـان الشـاي عـلى المنضـدة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"شكرًا".

تومض الشاشة بنصف ضوء، حياة الآخرين، رسائل ابنتها -المخاوف والخسائر والمكاسب- ليست لدى إيڤا أدنى فكرة عن أي منها. حلقة فضِّيَّة في حاجب مونتا. أطواق صغيرة وبعض الحُلقان بطول أذنيها. الأساور الجلدية مُدبَّبَة تتدلَّى حول معصميها الرقيقين، وعيناها المُحدَّدَتان بالأسود. تتفقَّد تحديثات صفحات أصدقائها على Draugiem.lv. وهي غير متاحة لأُمِّها. كما لو كانت ببساطة غير مُتَّصِلَة بالإنترنت.

"كيف حالك؟".

"بخير".

ترمقها مونتا بنظرة تقول بوضوح "دعيني وشأني". تعود إيڤا إلى المطبخ. بعد فترة من الوقت تنادي:

"هل تريدين الذهاب إلى المسرح الأسبوع المقبل؟ لديَّ تذاكر".

"لا".

بعد دقائق قليلة: "هل تريدين المجيء لرؤيتي في العمل في وقتٍ ما؟ نعمل على فيلم جديد، إنه مثيرٌ للاهتمام حقًّا".

"لا وقت".

"كيف الدِّراسة".

"بخير".

"أين تعملين؟".

"في سكاي سيتي".

"ماذا تفعلين هناك؟".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"أعمل في الزَّلَّاجات".

"هل تتزلَّجين على الجليد؟".

"هل ترين أيَّ جليد هنا؟".

"يمكننا أن نذهب إلى سويسرا".

"شكرًا، ولكن لديَّ أشياء لأفعلها".

"ما كان اسم صديقك؟ توماس؟".

"نعم".

"كيف حالُه؟".

"بخير. ماما، بحقِّكِ ليس الآن".

تتنهَّد إيڤا وتقول:

"جوعانة؟".

"لا شكرًا".

تشغِّل إيڤا التلفاز، وهو ما لم تفعله منذ سنوات، لكن عليها أن تَجِدَ طريقة ما لتمرير الوقت، بينما مونتا على الإنترنت، أثناء الزيارة.

ولوقت طويل، تجلس إحداهما أمام الكمبيوتر وتجلس الأخرى أمام التلفاز. تستحمُّ إيڤا وتَستَعدُّ للنوم. فجأة تخطر لها فكرة:

"سأُعِدُّ لَكِ حمَّامًا!".

"ماذا تقصدين بحمَّام؟ لَديَّ دُشٌّ في المنزل".

لكن إيڤا تتابع:

"الدُّشُّ دُشٌّ، والحَمَّام حَمَّام. سأُحَضِّر لك واحدًا حالًا. ولديَّ زَيتُ الاستحمام الجديد هذا، سيكون أفضل حمَّامٍ أخَذتِه في حياتِكِ".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

وفتحت الصنبور بقوَّة، ليتدفَّق الماء بغزارة؛ لِئَلَّا تسمع اعتراضات مونتا.

سرعان ما يَجهَزُ الحَمَّام. تَرشُّ إيڤا بعض أزهار الياسمين على الفقاقيع وتضيء الشموع عند نهاية الحوض. تضع قميصًا قطنيًّا أبيضَ على الكرسي.

"الحمام جاهز، تفضَّلي!".

مونتا لا تجيب. ترتدي إيڤا بيچامتها وتدخل في السرير وتراقب المدخل باهتمام من خلال الباب المفتوح.

تجلس المراهقة على الكمبيوتر لعِدَّة دقائق، ثم تنهض مُتنَهِدَّة وتذهب إلى المطبخ لغسل فنجانها. خرير الماء، اصطدام الأطباق. تقف على عتبة الباب، وتنظر إلى أُمِّها كما لو أنها على وشك أن تقول شيئًا، ثم تنعطف وتذهب إلى الغرفة المجاورة، حيث أُعِدَّ لها سرير. تذهب إيڤا للاعتقاد بأن مونتا ذهبت إلى النوم بكامل ملابسها.

لكنها لا تفعل، تتَّجِه إلى الحمام، ثم تعود إلى الرواق. تنظر إلى الكمبيوتر، ثم إلى أمها. ثم تعود إلى الحمام وتصفع الباب خلفها.

ومن وراء الباب المُغلَق، يمكن سماع صوت الأحزمة والحُلِيِّ وهي ترتطم بالبلاط الحجري؛ رنين المعدن وصوت الجلد، ثم صمت.

يبدو أن مونتا قد أمضت ساعةً على الأقل في حوض الاستحمام. أخيرًا، يُفتح باب الحمام، ويتسلَّل جَسَدٌ في قميص من القطن الأبيض على أطراف أنامله إلى حجرة إيڤا.

"أنتِ نائمة؟ شكرًا على الحمام. تصبحين على خير".

"رُبَّما يمكنك النوم هنا الليلة!"- تقول إيڤا بِحدَّة، بسرعة.

استدارت مونتا لتغادر.

"لا يمكن!".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"إذًا بإمكانك على الأقل أن تأتي للجلوس معي قليلًا!"- تتوسَّل إيڤا.

"لا!".

تذهب مونتا إلى الرواق، ولكن لا تفتح النور مباشرة. تتحرَّك في الشَّقَّة كقِطٍّ، تفحص الصور واللوحات، وتُقلِّب في المجلات. تَجاوَزَ الوَقتُ مُنتَصَفَ اللَّيل بكثير.

"أرجوكِ، تعالي هنا يا حبيبتي! أَلَا يمكنك الجلوس معي لمدة دقيقة وحسب؟"- تتوسَّل إيڤا مرَّةً أخرى.

"لا!".

ولكن بعد بضع دقائق، تدخل مونتا. تأخذ كتابًا من الرَّفِّ ثم تعيده، تنظر إلى الزهور على إطار النافذة، وأخيرًا، تجرُّ نفسها وتغرق في السرير.

في البداية تخاف إيڤا أن تتحرَّك، كما لو حَطَّ طائِرٌ نادر في الغرفة. ثم تُحرِّر يَدَها من البطانية وتمدُّها نحو مونتا. يمكنها بسهولة أن تشعر بدفء ابنتها في الظلام، وجهها الشاحب والظلال الطويلة تحت رموشها، بَشَرَتها الناعمة الشابة. تضع إيڤا يدها على كتف مونتا. نحيلة جدًّا، هشَّةٌ جدًّا.تَضمُّ كتفها مرَّةً. ثم مرة ثانية، ومونتا لا تقول شيئًا، لكن أنفاسها قَلِقَة، وقلبها يُدوِّي في صدرها، يسهل سماع صوت نبضها من خلال البطانية. تستمر إيڤا في ضَمِّ كَتِفِ ابنتها، تستمرُّ في إخبار نفسها بأن ضَمَّتها فيها ما يكفي من القُوَّة والهدوء معًا. كتلك اللمسة اللازمة لترويض الخيول الخجلى، أمَّا الخيول الجامحة، فتحتاج لَمَسَةٍ من نوع مختلف. مونتا خجولٌ بشكلٍ لا يُصدَّق، ليست جامِحةً على الإطلاق. بقيت ساكنة. تضع إيڤا في لمساتها كل ما لا تستطيع قوله بالكلمات. إنهما معًا مرَّةً أخرى، تتشاركان نفس الدفء. كما لو كانت مونتا بَعدُ مُجرَّدَ فكرةٍ عن شخص داخل إيڤا، كما لو كانت بعد في تلك النسخة السابقة، ابنة السنوات الثلاث التي تستطيع إيڤا

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

أن تحملها في حِجرها. سقطت القساوة، كما سقطت الحُليُّ والأحزمة في الحمَّام. اختفت الحُلقان وقِطَع الجِلد الأسود. أُزيل المكياج، وغُسلت كل الروائح النفاذة الغريبة. تنبعث من مونتا رائحة طفلة. طفلة إيڤا. حتى رائحة السجائر القوية اختفت. صارت غضَّةً ودافئة.

طفلتها.

تبدأ اللحظة، وتبقى قليلًا، وتمرُّ. تعرف مونتا متى يجب أن ينتهي الأمر. تتحرَّك بعيدًا.

"تصبحين على خير يا ماما".

"تصبحين على خير، حبيبتي"- تردُّ إيڤا بامتنانٍ.

في الصباح التالي، ترتديان ملابسهما مُسرِعَتَيْن وتشربان الشاي على عجل. تختلسان النظر إحداهما للأخرى.

يختلف كل يوم تمامًا عن سابقه، كل يوم عُمْر. المساء مختلف تمامًا عن الصباح وما بعد الظهيرة. يمثِّل كلٌّ منهما أفكارًا متنوِّعَة لا حصر لها.

اليوم أمرٌ واقِعٌ جدًّا، والصباح مليء بالوعود. تضع إيڤا بعض المال على الطاولة.

"للشقة وللمدرسة".

"شكرًا، ماما... ماما؟".

تصغي إيڤا- شيءٌ مُهمٌّ سيُقال الآن. لقد تغيَّر صوتها.

"قد أترك المدرسة. يقول توماس إنه سيكون من الجيد أن أعمل في الخارج في مكانٍ ما".

ترتدي سترتها الداكنة على عجل، وتسحب الغطاء على رأسها، ربما كي لا تسمع الجواب، رغم أن صوتها لا يبدو واثقًا.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"المكان ليس مُهِمًّا. إذا كنت تريدين فِعلَ الصواب، فيمكنك فعل ذلك في أي مكان. إذا كنت تريدين تخريب حياتك، فيمكنك فِعلُ ذلك في أي مكان أيضًا".

تصبح مونتا دفاعيَّةً.

"مَن قال إنني أريد تخريب حياتي؟".

"إذن أَنهي دراسَتَكِ ثم افعلي ما شِئتِ. لم يَبقَ سوى عامٍ واحد".

بينما هي تندفع خلف مونتا، تشعر إيڤا وكأنها تحاصر حيوانًا هاربًا.

تختفي دقَّات حذاء ابنتها السميك عند منعطف الدرج، ومجدَّدًا عند المنعطف التالي. تشعر إيڤا أنها لن تلحق بها. لن تحلق بها أبدًا.

ومع ذلك فهناك المُنعَطَف التالي، ثم الباب، ثم قُبلَة الوداع. تمنحك الحياة وقتًا للَّحاق.

"أنتِ تعرفين أنني أحِبُّكِ"- تقول إيڤا لمونتا.

إجابة مونتا غير مُتوَقَّعة:

"لَستُ متأكِّدةً مِمَّا إذا كُنتُ أصدِّقكِ؛ لأنك لم يكن لديك وقت لي أبدًا".

"أهذا ما تعتقدينه؟ كانت الأمور مختلفة قديمًا. ليس هذا ما أنا عليه حقًّا. خُذي هذا واقرئيه في وقتٍ لاحِقٍ، وجدته الليلة الماضية".

أعطت إيڤا ابنتها صفحة من كراسة تدريبات اللغة اللاتڤية للصَّفِّ السادس خاصَّتِها. مُصحَّح، وعليه الدرجة. بالكاد تُمكِن قراءته. مُسَوَّدَة أوَّليَّة كما هو واضح.

"الامتحان رقم 96:

أيَّتها السعادة! أيَّتها السعادة الحلوة، العزيزة! أين أنتِ؟ لماذا تَندُرُ زياراتُكِ إلى هذا الحد؟ أريدُكِ أن تزوريني أكثر. زوريني حين

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

أكـون حزينـة، زوريـنـي حـين أُواجِـهُ يومًـا شـاقًّا. تعـالي عـلى الفـور، أيَّتهـا السـعادة العزيـزة! أيَّتهـا السـعادة! أريـدك أن تـزوري الأيتـام والأطفـال الذيـن ليـس لديهـم مـا يأكلونـه! هـم أيضًـا بحاجـة إلى السـعادة. لـو أنَّـكِ، يـا سـعادة، ذهَبـتِ لزيـارة هـؤلاء الأطفـال، لامتـلَأَت وجوهُهـم بالـسرور والابتسـام. اذهبـي، يـا صديقتـي العزيـزة، اذهبـي إلى أولئـك الذيـن ليـس لديهـم مـال؛ كي لا يحزنـوا. ضَعِـي البسـمات فـوق وجوههـم والحُـبَّ في قلوبهـم. أتعلمـين، أيَّتهـا السـعادة العزيـزة، أنَّ كل شـخص وكل كائـن حـيٍّ، يحتـاج إلى السـعادة، ولـو بقـدر ضئيـل؟".

قهوة وسجائر

تجلـس مونتـا مـع صديـق في مقهـى. تغسـل أشِـعَّةُ الشَّـمس النَّوافِـذَ الموحِلـةَ دون جـدوى. مـكان رخيـص في نهايـة الشـارع، وكلَّـما مـرَّ الـتِّرام بـدا وكأن جسـمه المعـدني العريـض يحـكُّ بـاب المقهـى.

مونتا تبكي وتُدخِّن وتتحدَّث:

"يـا إلهـي! أنـا مُشـفِقَة عليـه. لا يمكنـك حتـى أن تتخيَّـل. كنـتُ في الرابعـة مـن عمـري عندمـا حـضر إلى الشـقة، لا بُـدَّ أن أكسـليز وجـده في الشـارع، بعـدُ جـرو. أتذكَّـر أنهـم وضعـوه في صنـدوقٍ مـا أسـفل طاولـة المطبـخ، لكننـي كنـتُ دائمًـا أتسـلَّل وأُخرِجـه، ثـم نتسـابق جريًـا عـبر كل الغـرف، كان شـديد اللطـف والـذكاء. لم أَرَ كلبًـا مثلـه أبـدًا... ثـم أطلـق أبي النـار عـلى أكسـليز. كان أكسـيلز عشـيقَ ماما، وقـد أطلـق بابـا النـار عليـه بسـبب الغـيرة أو شيء مـن هـذا القبيـل، لا أعـرف، إنهـا قصـة طويلـة. وبعـد ذلـك مبـاشرةً انتقلنـا للعيـش مـع هـذه السـيدة العجـوز، فانيًـا، في شـارع جيرتروديـس. لا أدري لِـمَ كانـت ماما تأخذنـا للتمشـية طـوال الوقـت. لـن تُصـدِّق كـم مشـينا، وكنـت أنـا والكلـب نتضـوَّر جوعًـا دومًـا،

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

وأتذكَّر كيف كانت ماما تواجه صعوبة في البقاء في أية وظيفة، لم يكن بمقدورها حتى أن تُرسِلَني إلى الحضانة. كنت في الخامسة أو السادسة من عمري، ولم نفعل سوى المشي، نحن الثلاثة. وكنت جائعةً جدًّا. بطول خطوط السكك الحديدية والجسور. كان الوضع جنونيًّا- في جميع أنحاء ريجا. كُنَّا نأخذ الترام إلى إحدى الضواحي أو نتجوَّل في المدينة سَيرًا على الأقدام. يُصيبكَ مثل هذا المَشيُ الطويل بالجوع. كانت ماما تتوقَّف لشراء قطعة صغيرة من الجبن للكلب ورغيفَ خُبزٍ لي، ثم نتابع في طريقنا مرَّةً أخرى. وبعد خمس دقائق، يبدو الخبز كأن لم يكن... كانت مضطربة أو ما شابه آنذاك. أذكر كيف كانت تحملني على ظهرها حين أشعر بالتعب، كنتُ أغفو، وأحصل على قسط من الراحة، وتظلُّ هي تحملني. ثم غادَرَت للدراسة في موسكو وقالت إنها لم تأخذنا معها لأن المدينة كانت مُوتِّرة تمامًا. لكنني ما كنت لأذهب معها بأي حال. كانت لديَّ مُربيَّة، وجدَّتي لوتسيا- يا إلهي، أعلم كم هو فظيع أن أقول ذلك، لكن إذا ماتت ماما فلن أبكيها كما سأفعل لو ماتت جدَّتي. أقسم بالله. كنتُ في العاشرة من عمري حين فهمت للمرة الأولى أن الناس يموتون، وأوَّل ما أدركته هو أن جدَّتي سوف تموت يومًا ما أيضًا، وانفجرت في البكاء. من المُمكِن أن أبكي مرة أخرى الآن بمجرَّد التفكير في ذلك. كانت جَدَّتي مُذهِلة، فعَلَت كُلَّ ما بوسعها من أجلي. زارتنا ماما كثيرًا، لكنني لم أستطع أن أحمل نفسي على التحدُّث إليها. لم أستطع أبدًا وأعلم على وجه اليقين أنني لن أفعل أبدًا. ذات مرة صرَخَت في وجهي، لا أذكر لماذا، على الأرجح بسبب شيء غَبيٍّ، لكنني بعد ذلك ذهبت إلى غرفتها وسألتها: «هل أنتِ غاضبة مني؟ هل تعتقدين أنني بلا قيمة؟»؛ لأن هذا هو ما شعرت به تجاه نفسي وقتها. وكنت آمل أن تنهض، وتعانقني، وتقول: «لا، لستُ غاضبةً منك، يا حبيبتي، وهذه هي الحقيقة والله على ما أقول شهيد». ولم أتخيَّل مطلقًا أنها ستصُدُّني.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

لكـن كل مـا قالتـه هـو: «لا، كـم مـرَّة عـليَّ أن أقـول ذلـك؟»، وتملَّكَنـي عِنـادٌ مفاجـئ، وبقيـت في مـكاني، واقفـة عـلى البـاب، وظَلَلـتُ أكـرِّر «لمـاذا أنـتِ غاضبـةٌ منـي؟»، وأخـيرًا قالـت: «اتركينـي وشـأني لنصـف سـاعة». لا يمكنـك أن تتخيَّـل شـعوري. لم يَكُـن لنـا في العـالم سـوى بعضنـا، وهـذا هـو رَدُّ فِعلِهـا! لا أعـرف، ربمـا كنـتُ قـد أغضبتهـا. لم تكـن تلـك أوَّلَ مـرَّة، ولكـن بعدهـا، كان هنـاك شـعور قاطـع بالنهايـة. فكَّـرتُ، «اللعنـة، يمكننـي أن أمـضي إلى الأبـد دون أن أتحـدَّث إليـك، إن اقتـضى الأمـر». لم أَعُـد أريـد أن أثـق بهـا، لم أَعُـد أضحـك معهـا أو أي شيء آخـر. شـعرت أننـي في أيـة لحظة سـيُقال لي أن أخـرس. بعدهـا، ذهبـت للنـوم عـلى المرتبـة بجـوار الكلـب. جـاءت فيـما بعـد وقبَّلَتنـي عـلى رأسي، لكنهـا تركتنـي وحـدي. ربمـا كانـت مُتعَبـةً مـن الشـجار معـي. ربمـا لأنهـا كانـت تقـول لي منـذ كنـت صغـيرةً "عيـشي حياتـك الخاصـة، لـن أُجـبِرَكِ عـلى أي شيء. إذا كنـت ترغبـين في النـوم بجـوار الكلـب، فهـذا اختيـارك". ولكنهـا لم تفكِّـر في أننـي ربمـا كنـت أسـتلقي هنـاك باكية. حسـنًا. لا بـأس. إذا كانت سـتتركني بمفـردي فلتتركني بمفـردي. لا بـأس. بعـد أن عـادت مـن موسـكو، تصرَّفَـت كـما لـو كانـت في موسـم التَّـزاوُج. تخـرج دومًـا ليـلًا. تقـول: "اخلُـدي للنـوم! سـأعود في الصبـاح". لكننـي لم أكُـن أسـتطع النـوم، كنـتُ أغفـو بشـكل متقطِّـع إلى أن تعـود في الرابعـة صباحًـا تقريبًـا، سـعيدة ورائحتهـا حلـوة. بـدا الأمـر كـما لـو أنهـا تُقلِّـب في الرجـال كـما تقلِّـب صفحـات مَجلَّـة. والـشُّرب بكميـات مهولـة مـع أصدقائهـا المُخرِجـين والمُمثِّلـين. آنـذاك ظنَنـتُ أنهـا فقـدت السـيطرة، لكننـي أظـنُّ أن الأمـر كان منطقيًّـا أيضًـا. عـلى الأقـل كان هنـاك دائمًـا شـخص مـا. وكانـت هادئـة بطبيعتهـا. يمكنهـا أن تمـضي أيامًـا دون أن تقـول كلمـة، فقـط تفكِّـر في شيء مـا. ثـم في اليـوم التـالي، سـتضحك كالمجانـين وتتـصرَّف بجمـوح، فتركـض حافيـةً عـبر البِرَك في وسـط المدينـة. وأكـثر مـا أغضبنـي دائمًـا هـو أنهـا لم تكـن تتحـدَّث سـوى عـن الأشـياء الجـادَّة في الأماكـن العامـة، بوجـود أكـبر عـدد ممكـن مـن النـاس. نكـون

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

في المركز التجاري أو المسرح، وستفكر فجأة في شيء ما، وتبدأ في إلقاء المحاضرات. تُشرِّح جوانبَ من حياتي. وبعلو صوتها، كما لو لم يوجد سوانا في المكان. أبعدت نفسي عنها. في وقت لاحق تركت المدرسة الثانوية. وتحرَّكَت الأمور من تلك النقطة. ذهبت إلى مدرسة ليلية حتى أتمكَّن من الحصول على وظيفة. وقابَلتُ أوَّلَ حبيبٍ واستأجرنا شقَّةً معًا. بالطبع أخذتُ الكلب معي. ثم في العام الماضي هجَرَني حبيبي. استقبَلتُ الأمر بشكل سيِّئ للغاية، لقد دمَّرني. كان ذلك خلال أسبوع امتحانات الربيع النهائية- أرَدتُ أن أقتل نفسي. وبالطبع لا أستطيع أن آكل أي شيء عندما أكون مكتئبة. في شهر واحد فقدت ستة عشر كيلوجراما. تخيَّل؟ ستة عشر! القهوة والسجائر في الصباح والكحول والحبوب المُنوِّمة في المساء. اثنانا فحسب: أنا والكلب. لم تكن ماما تعلم أن حبيبي قد هجرني. أخبَرتُها أنها لا تستطيع زيارتي وحسب. لم يكن هناك أي سبب. سأذهب أنا لزيارتها إن لَزِمَ الأمر. ليس لديها أي وقت على أي حال. ثم ظهر توماس الصيف الماضي. هكذا تسير الأمور، أليس كذلك؟. توماس عظيم، لا يمكن أن أشكو. لكن حُبَّك الأول هو حُبُّك الأول، أليس كذلك؟ أشعر أن المشكلة تبدأ دائمًا مع الرجل الثاني، بعد ذلك تبدأ الأمور في الخروج عن السيطرة. هناك الرجل الثالث، ثم الرابع. قالت جدَّتي ذات مرَّة: «الحياة يمكن أن تمنحك واحدًا، أو كثيرين». لكنني لن أسامح ماما أبدًا على ما حدث مع بابا. إنه في السجن، وهي لا تحاول الاقتراب منه. أعتقد أنهما لا يزالان مُتزوِّجَيْن قانونًا. تقول ماما إنها حياتها. لم تَعُد تتحدَّث في الأمر مع أي شخص. نعم، إنها حياتها، لكنه أبي. لا تسمح لي بزيارته. يومًا ما سأفعل. الآن لا زالت الفكرة تُخيفني نوعًا ما. ليست فكرة السجن، بل بابا. هل يمكنك أن تتخيَّل؟ إنه مبدئيًّا غريبٌ عني. وما الذي يمكننا أن نتحدَّث عنه؟ لم يَرَ سوى القليل في حياته، إذا فَكَّرت في الأمر، كبر، تزوَّج، أطلق النار على أكسليز. وهذا كل شيء. حُبِسَ في

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

السجن لسنوات وسنوات. هذه ليست حياة. إذًا عمَّ سنتحدَّث؟ أمَّا الكلب، فكبر ومات. جاء الطبيب البيطري هذا الصباح واضطرَّ إلى قتله قتلًا رحيمًا. ثم دَفَنتُه أنا وتوماس بجانب البحيرة. عاش الكلب لمدة أربعة عشر عامًا، على الأقل. وهذه إجمالًا، حياتي كلها".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

الهجوم

هجومٌ على الأماكِن/ الأشياءِ، أو المَوارِد المُقدَّسة

تفعل إيڤا كلَّ شيء بعزيمة، حتى الحياة.

لأن الأماكن والأشياء خالية من الأحاسيس."صُنِعَت فقط لأجلنا- لا، ليس حتى لأجلنا، ولكن لحاجة ما لا يمكن تفسيرها" كما يقول الكاتب ماتيس كاودزيته. ويستغرق الأمرُ بَعضَ الوقت كي تفهم ما تعنيه تلك الأشياء لك. صباحٌ تَقِفُ فيه ووَجهُكَ إلى الشمس، في ركن صغير متلألئ من حواري ريجا، هبوب الرياح، ورائحة العشب المُنسَحِق في ملعب كرة قدم. أنت حيٌّ وشابٌّ. سهرة مع الأصدقاء على درجات الجرانيت بجوار النهر. تتأرجح السُّفُن والنوارس في التيار. أنتَ سعيد. لحظة مع والدتك وهي تمدُّ يَدًا باردة إلى جبينك عندما تجلس متكوِّرًا على الأريكة بجانبها وتبكي عاجزًا كقِطٍّ صغير، تبلغ من العمر ثلاثين عامًا أو يزيد، لكنه مؤلِمٌ جدًّا يا ماما! يَدُها الباردة

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

عـلى جبينـك تُذيـب وجـع القلـب فـورًا. وفي المـاضي، يظـل انعطـاف الطريـق، قضبـان الـترام، سـحابة مـن الغبـار، ووقتـك.

حـين تسـافر إيڤـا للمـرة الأولى لميلانـو لحضـور مؤتمـر أوروبي، تقـضي وقـت فراغهـا تجـوب الشـوارع الواسـعة المترامية، مُسـتَمِعَةً إلى مونولـوج الصحفـي النمسـاوي ميكاييـل شـولتر:

"والـشيء الرئيـسي الـذي أعجَـزَ المُجتَمـعَ الغـربيَّ عـن الـكلام حين سـقط السـتار الحديـدي، هـو أنـه لم يكـن وراءه شيء! لم يكـن لديـك شيء! اعتقـد الجميـع أنـك ستسـحب إحـدى روائعـك مـن الأدراج الخَفيَّـة، كتلـك الروائع التـي أُديـن بهـا المُنشـقُّون فنُفـوا أو هاجـروا باختيارهـم. كانـت لديـك تلـك النوعيـة مـن الأعـمال العظيمـة، صحيـح، لكـن اتَّضَـح أنهـا كانـت اسـتثناءاتٍ يمكـن عدُّهـا عـلى أصابـع اليـد الواحـدة، في غالبيـة عظمـى مـن الجمـود والبـلادة. كيـف يمكـن الحكـم عـلى ذلـك؟ أيـن مـوارد أوروبـا الشرقيـة المُقدَّسـة؟ ربمـا لا وجـود لهـا عـلى الإطـلاق؟".

تنظـر إيڤـا إلى وجهـه النحيـل وعينيـه الحادَّتَـيْن، التـي تـكاد نظارتـه الدائريـة تحجبهـما -في ضـوء النهـار السـاطع، تلمـع العدسـات كبلَّـورَةٍ سـحريَّة- وتشـعر بـألَّا رأيَ لهـا. هـي نفسـها واحـدة مـن الحشـود العاجـزة التـي يتحـدَّث عنهـا ميكاييـل.

وفجـأة، دون سـابق إنـذار، يغمرهـا مشـهدٌ مـن ذاكرتهـا، آثـار أقـدام نانـا عـلى الرمـال عـلى جانـب الطريـق، وزُبْـد فاقـع الصَّفـار، كـما لـو لم تـأكل الأبقـار سـوى أزهـار المخمليَّـة.

لماذا هذه الذكرى؟ تهزُّ كتفيها بلا مبالاة، ولا يحصل ميكاييل على إجابة.

لكـن، حـين تخـترق الطائـرة القادمـة مـن كوبنهاجـن طبقـةَ السُّـحُب فـوق بحـر البلطيـق، وتُحلِّـق فـوق السـاحل الشرقـي، تلصـق إيڤـا وجههـا في النافـذة المسـتديرة. بيلتـين -نقطـة داكنـة عـلى الخريطـة. موردانجـا- رقطـة. ونَهـرَا فنتـا وليلـوبي شـعرتان ذهبيَّتـان. أشـجار التَّنـوب متناهيـة

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

الصغـر أسـنان مُشـطٍ، تتخلَّلهـا الغـزلان أحيانًـا. مـاذا سـيكونون جميعًـا دون الحـرارة المتدفِّقـة عـبر عـروق إيڤـا؟ أكـوام الخشـب التـي يدعوهـا النـاس بيوتًـا؟ الميـاه؟ غابـات الصنوبـر؟ كلهـا تـشرح نفسـها. الـبرودة، الغُربَـة.

لسـببٍ مـا، صبـاح اليـوم، لـدى إيڤـا شـعورٌ قـويٌّ بـأن نانـا لم تَمُـت. إنهـا تعيـش مـع روبرتـس في كوخهـما عـلى البحـر. تقـترض إيڤـا سـيارة مـن الأصدقـاء وتذهـب لزيارتهـما. أكـثر مـن أي وقـت مـضى، أكـثر مـما يسـتطيعه طفـل، تؤمـن إيڤـا أن بإمكانهـا أن تقـود سـيارتها مبـاشرةً نحـو المـاضي. أن هنـاك جزيـرة في مـكانٍ مـا، حيـث يعيـش كل مـا كان يومًـا، سـليمًا، مُعـافى. حيـث يمكنـك مشـاهدة نسـختك الماضيـة، وهـي تصفِّـي كوبًـا مـن الحليـب عـلى الطاولـة المُغطَّـاة بالمشـمَّع. لِـمَ لا؟ إذا كان طعـم الحليـب مـن طفولتـك لا يـزال عـلى لسـانك. كانـت الأبقـار تُحلـب باكـرًا فـور شروق الشـمس، ثـم يُصَـبُّ الحليب في علبـة معدنية ذات طـلاء خَزفيٍّ، مُغطَّـاة بصحـن أبيـض بإطـار ذهبـي مـشروخ، ثـم يُـترَك في البهـو الأمامـي عـلى كتلـة حجريـة. في الخـارج، يُـشرِق نهـارٌ صيفـيٌّ حـارٌّ، ببريـق نـديٍّ قبَّلَتـه الشَّـمسُ. مـا مـن ثلاجـة بالمنـزل. صُـبَّ كـوبٌ واحـد مـن الحليـب ووُضِـع عـلى الطاولـة مـن أجلـك أنـت، الصغـير، حليـب طـازج بدرجـة حـرارة الغرفـة، بطبقـة رقيقـة حلـوة مـن الدَّسَـم الأصفـر تتجمَّـع عـلى سـطحه. تبـدأ في تناولـه، فتوضـع ثـلاث فطائـر بُنِّيَّـة صغـيرة أمامـك، ثـم تـدسُّ البقـرةُ رأسـها عـبر نافـذة المطبـخ المفتوحـة. تضـع نانـا قطعـة مـن بسـكويت "سـيلجا" عـلى لسـان البقـرة الضيِّـق الطويـل، فتختفـي كالغبـار الناعـم عـلى حجـر رطـبٍ. أوه، تعـرف إيڤـا هـذه الأعجوبـة، لسـان البقـرة لَـدِنٌ وخَشِـن، كمجـسٍّ ذي قـوَّةٍ لا تُصـدَّق، دائمًـا مـا يحـاول سـحب يـد إيڤـا الصغـيرة، أو تمزيـق شريـط شـعرها، أو يسـيل منـه اللعـاب فيغمـر مئزرهـا. بينـما تشـاهد البقـرة، يطيـح مرفـق إيڤـا بكـوب الحليـب. "هـذا يكفـي!" تنهـر نانـا البقـرة لا إيڤـا، وتدفـع رأسـها الأزرق الدَّاكِـنَ خـارج

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

النافـذة، وتغلـق السـتار. تتَّجِـه البقـرة نحـو البحـر وتلحـق بهـا إيفـا في منتصـف الطريـق. لقـد بـدأ الصبـاح.

ربمـا لم يحـدث شيء بعـدُ- مـا زلنـا في الخريـف. الموقـد مشـتعلٌ، غـلَّاي المـاء الكبـير يفـحُّ. تُخـرِجُ نانـا مقـلاةً حديديَّـة سـميكة مـن المشـويَّات المُتبَّلـة بالمسـتَرْدَة، وتتَّجـه لغرفـة الخزيـن لتحـضر نبيـذ التفـاح. تهـبُّ ريـحٌ ثلجيـة أمـام البهـو الأمامـي. يغفـو كلـب أبيـض بـرأس سـوداء عـلى حافـة كـرسي متهالـك، إلى أن يـزلَّ فيقـع فـوق كومـة البصـل التـي تكسـو الأرضيـة كلهـا، مُصـدِرًا خشخشـة عاليـة، سـجادة سـميكة مـن البصـل تمتـدُّ حتـى النافـذة. هنـاك وعـاء سُـكَّرٍ مـن البورسـلين عـلى الطاولـة، بِيَـدٍ واحـدة، وعنقـود مـن عنـب الثـور مرسـوم عـلى أحـد جوانبـه، وملعقـة فضيـة مغموسـة في سُـكَّر القصـب الخـام.

لاحقًـا، سـيُعَدُّ لـكَ الفـراش في الغرفـة الأخـرى. مـلاءة خَشِـنة وفوقهـا لحـاف قديـم، بـوَزنِ إنسـان. سـترتجف لأكـثر مـن عـشر دقائـق في الفـراش المُتجمِّـد بانتظـار الـدفء. سـيُطفأ النـور، وتتحدَّثـان عـن هـذا وذاك. ربمـا تحظـى بحكايـة مـا قبـل النـوم، أو حكايـة مـن طفولـة نانـا. ستشـعر بالـدفء وأنـت تحـدِّق في عـوارض السـقف الخفيضـة المطليَّـة بالأبيـض. أمَّـا النـوم الـذي سـتنزلق فيـه أخـيرًا، فسـيكون عـودةً هادئـة مُرحِّبَـة لعالَـمٍ لا ينتهـي.

ستسـتيقظ في منتصـف الليـل، وقـد هـدأت حـرارة فـم المدفـأة عـلى خَـدِّكَ فصـارت كنَفَـسٍ دافـئ. خمـش الفـئران خلـف ورق الحائـط المتقشِّر، ضـوء القمـر الثقيـل... لا أفـكار. غـوص تـام في قلـب الليـل.

هـذه يـا ميكاييـل هـي مـواردي المُقدَّسـة. هـاك؛ وعـاء سـكر، ملعقـة فضِّيَّـة، لحـاف بـوزن إنسـان. ربمـا يُعَمَّـرون هـم ونفنـى نحـن، لكنهـم لـن يحظـوا ثانيـة أبـدًا بالحيـاة التـي أراهـا حـين أغمـض عينـيَّ. تعـال يـا ميكاييـل وألْـقِ نظـرة في أدراج أوروبـا الشرقيـة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

هطَلَـت الأمطـارُ بقـوَّة طـوال الليـل. تتكـوَّن الـبِرَكُ عـلى الجليـد. تدفـع الريـاحُ الضبـابَ تجـاه ريجـا. تسـتمرُّ إيڤـا في القيـادة. بعـد سـنوات وسـنوات، اسـتجمعت الشـجاعة لتقـود سـيارتها لبيـت الـزاري.

روائـح كورزيميـه. أتـأتي هـذه الرَّهافَـةُ مـع التقـدُّم في العمـر؟ آنـذاك، لم تكـن تعـرف بمـا يُخبِّئـه القَـدَرُ لهـا، في التاسـعة عـشرة، في انتظـار الحافلـة.

بيـت الـزاري. يعيـش أَبَـوَا أندريـس هنـاك الآن. غـرف. روائـح مألوفـة. بعـد الوقـت الطويـل الـذي أمضتـه في مكاتـب لا حيـاة فيهـا، ومُكيِّفـات هـواء تعمـل في أجـواء ميِّتـة- هنـا تنبعـث الروائـح.

سـتائر، البـاب، خطـوات. التاريـخ في كل شيء، حتـى الطـلاء عـلى الجـدران. الروائـح وحدهـا تحشـد الدمـوع في مُقلَتَيْهـا. تسـبح الذكريـات أمـام عينيهـا. أشـباح. إيڤـا واقفـة في غرفـة كبـيرة بمكـواة في يدهـا، بعـد مولـد مونتـا مبـاشرة، تكـوي ثيابًـا صغـيرة.

أخبرتهـا مونتـا مـرَّةً عـن ذكـرى احتفظـت بهـا مـن فصـول الصيـف في بيـت الـزاري:

"الطريـق هنـاك، الشـمس سـاطعة، الريـاح تهـبُّ عـليَّ وعـلى الكلـب"- قالتهـا وسـعادة كبـيرة في صوتهـا. مـا الـذي يمكـن لابنـة العامـين أن تتذكَّره؟ لكـن، تـرى، إنهـا تتذكَّـر. يـا للرهافـة! لكـن كورزيميـه فيهـا شيء مـا. الأرض الوعـرة. ريـاح البحـر. مـن حُسـن حَظِّهـا أن أنعـم القـدر عليهـا بتلـك الأشـياء.

أبـو أندريـس يحظـى بقيلولـة في غرفتـه بالأعـلى، ويبـكي لرؤيتهـا. يـزداد خِفَّـةً كلَّ عـام، كفَراشَـة. ويـزداد رِقَّـةً. كان قاسـيًا كالحجـر فيـما مـضى. يحكـم كل شيء: الحيوانـات والنـاس. لـه الكلمـة الأخـيرة عـلى النسـاء والماشـية والرجـال. لا تسـتطيع إيڤـا احتـمال الأمـر. يجعلهـا ترغـب في

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

البـكاء. في الـصراخ. لكـن لا جـدوى. لا تراچيديـا في كورزيميـه. كل شيء شـارِحٌ نَفسَـه. تسـيل الدمـوع كنسـغ أشـجار البتـولا في الربيـع. لا داعـي للـصراخ. هـذه المعانـاة متخَيَّلـة. عليهـا أن تودِّعَهـم وتمـضي في حياتهـا.

تسـتلقي امـرأة شـابة بثديـين عاريـين كبيريـن عـلى سريـر واسـع في الغرفـة الكبـيرة، تُرضِـع طفـلًا. تتسـارع مائـة فكـرة في عقـل إيڤـا لرؤيـة الطفـل. عـن أبي أندريـس الجالـس في الغرفـة المجـاورة، منتظـرًا أن تـذروه الريـاح. عـن جَـدَّة أندريـس، التـي مـا زالـت ضخمَـةً وثقيلـة في غيـاب حفيدهـا، لكـنَّ عينيهـا دامعتـان كالباقـين، والتـي تعتـصر يـد إيڤـا حـين تنظـر إليهـا وتسـأل: أيُّ سَـبَبٍ لـديَّ لأبقـى هنـا؟ وهـي تعـرف الإجابـة بالفعـل. تبقـى لأجـل البقـاء. تحيـا لأجـل الحيـاة. تسـعد لأجـل السـعادة. مـع أنهـا ترغـب ولـو لمـرة واحـدة أن تسـمع: لأننـا بحاجـة إليـكِ. جميعنـا بحاجـة إليـكِ. تَمسَّـكي حتـى النهايـة بهـذه الشـبكة مـن الأيـدي والقلـوب. مـن اللمسـات والنظـرات.

الروائـح وشـمسٌ مُذهِلَـةٌ. ترافقهـا أم أندريـس للخـارج- تركبـان السـيارة وتقـودان فـوق التـلال والطُّـرُق الموحلـة. تبكيان. تخفيـان عيونهـما وتعرفان جيِّـدًا أن ليـس بوسـعيهما مداراتهـم. تخونهـم الشـمس. جلـد، ومسـامٌ، وتجاعيـد، ورمـوش مبتلَّـةٌ، وعيـون مُشرِقَـةٌ بأحـداق حالكـة السـواد، كمرايـا متحرِّكـة. يمسـح البَلَـلُ وجهيهـما وفي الخـارج، يلتمـع فـوق الحقـول. لا بُـدَّ أن تفترقـا. إيڤـا عـلى اسـتعداد بـأن تقبـل ولـو بكلمـة واحـدة يلفُّهـا العتـاب، لكنهـا لا تُقـال. الأمهـات ذكيَّـات. عليهـن الافـتراق بالمعـروف. تظـل أم أندريـس عـلى التـل، تمسـح عينيهـا بمنديلهـا، وتسـتدير عائِـدةً. تذهـب لحـال سـبيلها. تُطلِـقُ إيڤـا بـوق السـيارة عـدَّةَ مَـرَّاتٍ مُودِّعَـة.

مـن الأعـماق يهمـس أحدهـم: كل شيء عـلى مـا يـرام. تغـرق قـرى السـاحل في حُمـرَةِ شـمس مـارس الغاربـة. تحـب إيڤـا كورزيميـه. يمكنهـا شـمُّها. تُغذِّيهـا.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

مُفتَرَقُ الطُّرُق

أكسيلز

يدعوني لمقابلته.

نشرب شاي الصباح في التِّراس بجوار مصبِّ النهر. بجوارنا لقاءٌ آخر لا ينتهي أبدًا- تدفُّق النهر إلى مياه البحر الهادئة. نشرب شايًا أصفر قويًّا، يجعل الدماء في وجوهنا تغنِّي كالكمان. وحدنا، باستثناء بعض العصافير التي تتقافز حول أقدامنا.

ارتفعت الشمس في السماء بالفعل، وإن بقيت برودة الليلة الماضية الرطبة عالِقةً في الهواء. يلتمع الندى على بعض الطاولات الحجرية، ويرقد الذباب بلا حراك على الدرابزينات، والأرضية الرخامية ما زالت مُغطَّاة بطبقاتٍ من الرمال التي حملتها رياح الليلة الماضية. يرتاح الخادم في كرسي قابِلٍ للطَّيِّ، وضعه خارجًا في الشمس، ويُدخِّن سيجارة اليوم الأولى وهو يقرأ الجريدة. من آنٍ لآخر، يُمرِّر يده للوراء

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

في شَعرِه. سحابة رقيقة من الدخان تعلو سيجارته، وتطير، حرَّة وغير عابئة نحو الزُّرقة العظيمة. أشعر بتصميم هذه المدينة يجتاحني، ويغمر كلَّ خليَّة في جسدي بضوئه.

أبدأ تمييز الروائح الخجلى المختبئة في الحدائق من تلك المندفعة بقوة من السَّدِّ. أتصوَّر الظِّلَّ الذي يرميه بُرجُ الكنيسة الأسود على الميدان الكبير، وكيف يتسبَّب دومًا في تعثُّر صَبيٍّ توزيع الجرائد كلَّما عَبَرَه بحزمةٍ من الصُّحف في ذراعه. أدرك أنني لو عِشتُ في هذه المدينة بشكل دائم، فسيتعيَّن عليَّ الاختباء تحت بطانية بقَدحٍ من الشاي في منتصف اليوم، فقط للتغلُّب على القشعريرة التي تُسبِّبها تلك الزُّرقَة الدائمة الباردة الحادَّة الآتية من البحر.

"المزيد من الشاي، من فضلك"، أقول لأكسيلز، وعلى الفور يتدفَّق الشايُ ببُطءٍ من البرَّاد إلى فنجاني، زوبعة من الصفو تقوم بداخلي، قوية، حتى إنني أشعر بالخَدَر في صدري، أشبه بما قد تشعر به وأنت على حافَّة هاوية. فجأة، أعرف أن الموتى يعودون إلى الحياة، وأعرف كيف يفعلونها. أعرف كيف يعود الأحياء موتى. أعرف شعور أن تكون طائرًا، كلبًا، عنكبوتًا، أرى كل شيء في هذه اللحظة من الزمن، بضع ثوان تدوم لأبديَّة. تُبَعثِرُ الرِّياحُ شَعري على كتفيَّ العاريتَيْن، فيصير حضنًا جميلًا. تبصر المدينة بعينيها. من الآن فصاعدًا، لم يعد عليَّ الاعتماد على إحسانات الأصدقاء النادرة. من الآن فصاعدًا، في كل صباح جديد، سيصبح كل غريب صديقًا، وحضن- مُبهِج ودرامي. كُلُنا عالِقون في الحياة.

يلفُّ الضباب خَطَّ البحر. أستطيع الطيران. ولا أستطيع الطيران، لا فَرقَ هناك بعد الآن. لا داعي لفصل هذين المبدَأيْن.

"يا له من صباحٍ رائِقٍ!"- أقول لأكسيلز.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

أحدهم يُطعِم النَّوارس من سطح باخرة، المياه تبدو كقشعريرة. يحيطنا النسيم. تتراقص الانعكاسات على سطح الشاي.

"كذلك الذي سبق موتك"- أقول.

"نعم".

"أتعتقد أن بوسعي أن أُحسِنَ وَصفَه بما يكفي؟".

أرى أنه لا يريد الكلام، ينظر إلى الأفق وحسب. لا يرى أية فائدة من التحدُّث في الأمر. لكن حماسة ما تأكلني، كتلك التي تسبق إجازة طال انتظارها. أسأل وأسأل. وأخيراً، يبدأ في الكلام. يخبرني بما لم أكتبه.

تَحدَّث هو وإيڤا ذات مرَّةٍ عن بدء حياةٍ معًا، عن الانتقال إلى منزل، عن كيف بإمكانها ذات يوم أن يعيشا -بكُلِّ ما يحمله العَيشُ من معانٍ- بشاي الصباح، ووجبات العشاء، والزهور على أُطُرِ النوافذ، والأطفال. تحدَّثا بطول الطريق الترابي وطيور الصيف تُغرِّد من حولهم. دخل بعض الحصى في حذاء إيڤا.

"السقف يُسرِّب المياه، وأحد أركان الموقد مكسور"- قالت إيڤا. "من أين سنبدأ؟".

التعقيدات اليومية على طريق بسيط.

"لنعقد اتِّفاقًا- سنعيش بمجرد أن نُتِمَّ الثلاثين، لكن ليس قبل ذلك"- أجاب أكسيلز.

"الحياة أطول كثيراً من عمر سعيد واحد"- يقول الآن. "الحياة تتكوَّن دومًا من عِدَّة حيواتٍ".

آنذاك، أومَأَت إيڤا وطوَّحَت بحذائها بعيدًا نحو الحقول الخضراء. وداعًا، أيُّها الحصى! ما زال أمامهما عشر سنوات على الثلاثين المنشودة- عشر سنوات كانت عُمرًا. بَدَت كحلقة أبدية من أيَّامٍ وليالٍ من اليوفوريا، بلا نهاية في الأفق، سعادة لا يكسرها شيء.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

سـنعيش بعـد ذلـك. هـذا الشَّـبَح المُرعِـب في نهايـة كل شيء. بعـد ذلـك.

"ظَنَنَّا أن «بعد ذلك» لن يأتي أبدًا"- يقول أكسيلز.

ولم يأتِ أبدًا.

مـات أكسـيلز. أمَّـا إيڤـا، فلـم تُحِـبَّ الحيـاة أبـدًا بمـا يكفـي لترغـب في العيـش- في العيـش فعليًّـا. هـذا خطؤهـا هـي. عليـك أن تغـرق نفسـك في الحيـاة كـما تغـرق يديـك في الأرض، عليـك أن تركِّـز. تَمَـدَّ جـذورًا. تَتعَـبَ لتسـتحِقَّ الإجـازة. لا شيء يـأتي بسـهولة أبـدًا، كانـت جـدَّة إيڤـا تقـول. نعـم. لا شيء يـأتي بسـهولة أبـدًا.

"لِـمَ يقبـل النـاس بـكُلِّ تلـك القواعـد السـخيفة كـما لـو أنها مُسَـلَّمات- فقـط لأنهـم خاضعـون لها؟"- يسـأل أكسـيلز.

"لا أعلـم. أنـا أَكسَـلُ مـن البحـث في الأمـر"- أُجيـب. "ولا يثـير اهتمامي. إنـه مُمِلٌّ".

كانـت إيڤـا هـي إيڤـا. تعيـش دون أن تعيـش، وهـذه نقطـة ضعفهـا. كانـت طائـرًا يتلقـط الفُتـات بجهـلٍ حكيـمٍ. فُتـات الشـمس.

"لكـن لـو فكَّـرت في الأمـر حقًّـا"- أقـول، "السـبب الوحيـد في جلوسـنا هنـا الآن، هـو أنهـا تتذكُّـركَ في هـذه اللحظـة بالـذات".

لعـين المُشـاهِد العابـر، قـد يبـدو هـذا كاحتفـالٍ مـن نـوع غريـب: البحـر، الصبـاح، والنـوارس. وشـخصان يجلسـان بجـوار بعضهـما في صمـت. لقرابـة العـشر دقائـق أثنـاء احتسـاء الشـاي. بالنسـبة لنـا، كانـت تلـك الدقائـق هـي حيـاة أكسـيلز بأكملهـا.

يريـح أكسـيلز ذقنـه عـلى يـده ويُطالِعُنـي مُتأمِّـلًا. لقـد ظَـلَّ شـابًّا. جميـلًا، ودودًا، وبـاردًا كالثلـج. ظهـرت علامـات التقـدُّم في العمـر عـلى وجهـي بالفعـل. لثانيـة، فكَّـرتُ كـم نحـن مختلفـان، لكـن لثانيـة واحـدة

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

فقـط. كل مـا أَودُّ فِعلَـه هـو رفـع راحتـيَّ للشـمس، وامتصـاص هـذه اللحظـة بالكامـل.

أن أفتـح الزهـور، وأهزَّهـا لتَسـقُطَ حبـوب اللقـاح، وتخـرج البراعـم. أن أكـون إسـفنجة تمتـصُّ المسـتحيل- غيـاب الزمـن. مـع رائحـة الأعشـاب البحريـة، والشـعور بنظـرة شـخص آخـر.

أسأل بطريقة مباشرة:

"ماذا تعتقد؟ أيُمنَحُ الإنسان حُبًّا واحدًا فقط في حياته؟ أم عِدَّة؟".

"ما هو الحُبُّ؟" يسأل.

مـا هـو الحُـبُّ؟ يـد الشـمس السـاخنة تنزلـق بقـوَّةٍ عـلى مؤخِّـرَة عُنُقـي. تجْلِـد الرِّيـحُ الشُّـعَيراتِ الصَّغـيرةَ عـلى جانـب وجهـي. هـذا العـالم هـو بيتـي. هنـا، أختـار شـخصًا ليراقبنـي لأيـام وليـالٍ عديـدة- أهـذا هـو الحُـبُّ؟ أنـا مُرهَقَـة. سـعيدة. ثـم... حزينـة. بملامِـحَ شَـعثاء، قَبيحَـة، وراضِيَـة. شـابَّة. في منتصـف العمـر. وعجـوز. وأحدهـم يريـد مراقبتـي. حتَّـى عـلى حالتـي هـذه. ككل شيء. للأبـد. الحـب. ربمـا هـو المراقبـة؟

"حسـنًا، رغـم كل شيء، دائمًـا مـا نجـد طريقـة في الحيـاة لنكـون معًـا لبضـع لحظـات"- أقـول.

"القِسمَة"- يمزح أكسيلز.

"موسوعة الحياة".

"النسخة المختصرة".

"بالصُوَّر".

"للأطفال".

"ما الجدوى من كلِّ هذا؟".

"لا شيء"- أضحك. "أَرَقٌ وفُقدانُ شَهيَّة. أفلامٌ وكُتُب".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"وتمثيلٌ غذائيٌّ جيِّد".

"التَّمثيل الغذائي، طبعًا. وهو أمرٌ كبير. لا أعرف بشأن العوالم الأخرى، لكن هذا الكوكب له مَزيَّة واحدة: الحياة".

بعدها، أسأل:

"أكسيلز، هل يمكن للفَنِّ أن يكون كِتابًا عن الطَّهي؟ أن يُعلِّم الأحياءُ الأحياءَ كأن يقود العميانُ العميانَ".

"إحم... هذا ليس صحيحًا. لو لم يستطع الأحياء أن يُسدُوا أيَّةَ نصيحة للأحياء، لكان هناك الكثير من الموتى".

يهذِّب أكسيلز شَعرَه الأشقر بيديه، ثم يتمطَّى. ذراعاه الجميلان يَشُقَّان السَّماء كالبرق.

"شكرًا على الشاي"- يقول مُعابِثًا، مُتحسِّسًا جيوبه. يضع نظارته الشمسية؛ أنعكس في العدسات السوداء بوضوح صارخ. "عليَّ الذهاب. لديَّ بعض الأشياء".

"بالطَّبع".

يتركني. وفي ذات اللحظة، تُعتِمُ الشَّمسُ فوق البحر قليلًا. تغيم السماء كما لو تَنفَّس أحدهم أمام مرآةٍ زرقاء.

غيابك. نحن قويَّان؛ علينا أن نَحلَّ اللُّغزَ كُلَّه، قطعة قطعة.

اعتَنِ بنفسِكَ.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

ثَمَنُ اللِّقاء

شَجَرةُ إيڤا

هـذه الأيـام، تمـضي إيڤـا الكثـير مـن الوقـت في التجـوُّل عـلى قُضبـان القطـار.

تتلـوَّى القضبـان عـبر ريجـا كلهـا. تحـب إيڤـا تلـك المناطـق التـي تلتقي فيهـا في تقاطُعـاتٍ ضخمـة: قـرب سـتاد داوجافـا، قـرب سـجن ماتيـس، أسـفل جـسر جايسـا. وتحـب تلـك الأماكـن حيـث لا تفـضي القضبـان الضيقـة الصَّدِئـة إلى أيِّ مـكان. حيـث تتهـاوى المبـاني، وتُغلَـق المصانـع، وتَقطَـعُ الحقـولُ وصـلاتِ القضبـان. كثـير مـن الأماكـن في ريجـا تبـدو كـما لـو انتهـت الحـرب العالميـة الثانيـة للتـوّ بهـا.

تحبهم إيڤا بلا خوف.

تتجوَّل.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

إنها عادة تُميِّز الحياةَ الخطرة.

لديها كلب، وطفلة، وعادة ما تُسبِّب لها القُضبانُ بعض المتاعب. لكنها تأخذ الكلب، وتأخذ ابنتها معها حين تذهب للتمشية. يقول أخوها إن المرأة الذكية لا تفعل ذلك. لكن إيڤا ليست امرأةً ذكيَّةً. تلك هي المسألة. ليست حتى امرأةً بَعدُ. إنها كطفلة كفيفة، يقودها كلب وفتاة صغيرة.

طفلة كفيفة تتحسَّس طريقها للخروج.

تحبُّ أن تهيم على وجهها في الخراب. حيث تتهاوى المدينة- الخنادق، المستنقعات، المصارف، ومواقع البناء. الحدود الخارجية. حيث البحيرات كالعيون، والأنهار كالأوردة. حيث لحم الأرض سميكٌ كمِعطَفٍ من فِراء الثعالب. غابٌ بلون الصدأ، وشظايا خشب بيضاء. تكسر ابنتها أعواد الغاب. يتشمَّم الكلب شيئًا. تشاهد إيڤا التيَّار. يذكرها ثلاثتهم بمراقبي الطيور، أو الچيولوچيين في الصحراء. لا أحد في عجلة من أمره. يتحركون ببُطءِ السُّحُب التي ترى هذا العالم للمرة الأولى فلا تفهم تراتُبِيَّته. لا تفهم ما هي الأشياء الأكثر أهميَّةً هنا، ما الذي يجب الانتباه له.

تتجوَّل إيڤا ولا تُفكِّر. تأمل أنه -أثناء تجوُّلها- ستجلس أفكارها في غرفةٍ في مكان ما من رأسها، وتُرقِّع خِرَقَ حياتها، غرزة تلو غرزة. بينما أفكارها مُنهَمِكَة في تلك المَهمَّة، تتجوَّل هي.

وذات يوم، أفكارها، هاته الخيَّاطات، ستوقظنها ويُقَدِّمن لها ثوبًا جديدًا- حياتها بعد الإصلاح. حينها، ستستقرُّ أخيرًا، وتكفُّ عن التَّجوُّل.

في طريق عودتهم للمدينة، تقطع إيڤا وابنتها والكلب الجسرَ الحديدي فوق القناة. كي لا يأخذوا الطريق المُمِلَّ إلى طريق فيدزيميه السريع. يختلج الماء أسفل قضبان الحديد، وترمي ابنتها بالحصى فيه.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

في ذات اللحظة، يزحف القطار خارجًا من الغابات المحيطة بالمدينة. كانوا في منتصف الجسر حين أطلق السائقُ صافِرةَ القطار. تنظر إيڤا للخلف. لا مجال للهروب. ابنتها صغيرة جدًّا، والكلب ساذج- لن يعرفوا كيف يلصقون أجسامهم بالقضبان تمامًا ليمرَّ القطار.

لا تتذكَّر إيڤا الكثير ممَّا حدث بعد ذلك. تجذب ابنتها تحت ذراع، وبالآخر تقبض على سوار الكلب، وتركض لاهِثةً باتجاه نهاية الجسر. تقفز فوق القضبان. ينجون.

بعدها، يغطس ثلاثتهم في العشب على سُدَّة الجسر. تمدُّ ابنتها يدها لتكسر طرف أحد أعواد الغاب. يلعق الكلب الفراء على ظهره، شاعرًا بالإهانة.

ينطلق القطار بجانبهم، فتبعثر الرياح شعرها وملابسها. لا يسكت دويُّ قلبها إلى أن يغيب القطار عن الأنظار.

غَبيَّة! مَن أنتِ لتقطعي تلك الحفرة التي لا قرار لها، وتجُرِّين معك آخرين؟ أين مَنارَتُكِ؟ أين ضوؤها؟

انطفأ.

تستأجر إيڤا غرفة في شارع جيرترودیس، في شقة امرأة عجوز. بإطلالة على اللا شيء.

ما اللا شيء؟ العمود المُصمَت الذي يتوسَّط الفناء، ونوافذ المبنى المقابل المُتهدِّلة. بعض أحبال الغسيل المتقاطعة في السماء. يمكنك أن تدير ذراعًا آليًّا لترفع غسيلك إلى هناك. إلى الشمس. وفي الليل، تديره مرَّةً أخرى، لتهبط به إلى الغبار- جافًّا، مكسوًّا بطبقة رقيقة من الهباب، ورائحة عوادم السيارات.

بين الحين والآخر، تخرج مؤخِّرةُ رَجُلٍ عارية إلى المشهد، في إطارٍ بُنِّيٍّ للنافذة إلى يسار بئر السُّلَّم.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

إذًا، أيحسب هذا؟

لا يُذَكِّرها هذا بشيء.

وغرفة إيڤا ليس فيها أي نوع من الكماليات، مثل حبل الغسيل ذي الذِّراع الآلي. دورة المياه في الرَّدهَة. تتبوَّل طفلتها في الحوض. في بعض الليالي، تُواتيها رغبةٌ في فعل ذات الشيء، لكنها تتغلَّب عليها.

يقف الكلب بقدميه الأماميتين على إطار النافذة، بين أصص الزهور، ويتجمَّد تمامًا، كالحزن في الصقيع. يشاهد الطيور.

الطيور غِربان، فهل الغِربانُ طيورٌ؟

لا يُذكِّرها هذا بشيء.

تتحدَّث إيڤا في هاتفها المحمول. قُصَّ شَعرُها قصيراً. وجهٌ غَضٌّ، يميل للصِّبيانيَّة. تُطِلُّ من النافذة على شرفات المبنى المقابل التي كانت مُزَخرَفَةً يومًا، وتهدَّمَت.

وبينما هي تستمع إلى الصوت على الجانب الآخر، تلتقط قميصًا رجاليًّا باللون الأرجواني الدَّاكِن من على ظهر الكرسي. مُزَيَّنًا بخطوطٍ عريضة بلون أحمر باهت. تضع الهاتف على السرير للحظة، وتضمُّ القميص لصدرها، وتنظر إلى المرآة على الجدار.

تهزُّ رأسها كما لو كانت تشكُّ في انعكاسها. تلتقط الهاتف وتعيده لأذنها. لا شيء سوى صمتٍ رافِضٍ.

ثم يقول صوتٌ حاسِمٌ:

"لكنَّكِ لا تُصغين حتى!".

تقول إيڤا:

"كفى يا ماما. أنا مُصغِيَة. أعرف كل شيء. سأكون بخير".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

صوتها مرتاحٌ، لكنَّ وجهها يرسم تعبيرًا مؤلمًا بينما تغادر الكلمات الأخيرة شفتيها. كما لو أنها تصرخ في يأس. تعوي بلا صوت.

"كفى،" تقول إيڤا في الهاتف. أرجوكَ، يا ربُّ، تدعو ألَّا تلتقط أُمُّها شيئًا. ألا تعلم شيئًا عن هذا التعبير المؤلِم على وجهها. تعبير لا وجود له من كائن لا وجود له. وجه حيٌّ لشيء حيٍّ. ليس هذا ما هي عليه. هذا السقوط اليائس في تلك الغرفة المضادَّة للجاذبيَّة.

الهواتف أشياء رائعة- تواصُل بلا وَجهٍ. كل ما عليك فعله أن تقول الكلمات "سأكون بخير يا ماما"، وستصدِّقها أنتَ نفسك. يختفي التَّوتُّر في فمك، وحدها الأوردة على صدغيك ستنبض لفترة طويلة بعدها، كتدفُّق الأدرينالين بعد ارتكاب جريمة. يفترض أن المشاعر مرتبطة بالمحاكاة. أَرخِ عضلات وجهك وسوف تسترخي بقية عضلاتك أيضًا. العيب الوحيد للمحاكاة، بالتبعية، يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمحاكاة نفسها.

التظاهُر. لكن، بأية طريقة أخرى يمكنها التأقلم على سباق الجرذان هذا، خلف النافذة؟

الطبيعة مفتونة بنوع إيڤا- البشر. فليستمرَّ إنجابُ الأولاد والبنات، توازن- نصفٌ ونصف، فليتناسَلوا، فليموتوا حين يأتي وقتهم. لكن الطبيعة ليست مُهتمَّة بالبشر كأفراد. المسألة راجعة لكل شخص على حِدَة، كيف سيُمضي وقتَه هنا.

إرخاء عضلات الوجه كافٍ بالنسبة لإيڤا.

لكن ماذا عن العينين؟ حين ترخي عينيها تخونانها في عُشر الثانية وتمتلئان بالدموع. تُميل رأسها للخلف، كما لو كانت عيناها وعاءين زجاجيَّين داكِنَيْن، مملوءَيْن للحافَّة، وعليها أن تأخذهما إلى مكان ما.

أن تأخذهما إلى الأمان.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

وتنجح في مَهمَّتها. لا تسكب نقطة واحدة. يتشرَّب رُكنا عينَيْها البَلَلَ ببطء. أمر مُروِّع، أخبِراني، عزيزتيَّ، أين أنا؟ على نَصلِ سكِّين؟ فوق جبل، في أرض غريبة؟ شيء ما قد يحدث في أية لحظة. تُخيفها فِكرَةُ أنها ذات يوم، قد تصرخ بصوتٍ مَسموعٍ. وفي مكان حيث لا يليق فِعلُ هذا بالمرَّة.

تعود إيڤا للمحادثة. تطفو مرة أخرى من صمتها الداخلي والهاتف على أذنها.

تقول أمُّها:

"يريد ما يريده الآخرون. بلا مواربة، وتلك هي المشكلة. تعلمين؟ يمكن لبعض الناس أن يسيروا على هذا الخط الرفيع دون أن يقطعوه. لكنه عنصر إجرامي. لقد درست خريطته الفلكية. قَمَرُه في بُرج الأسد. ما الذي يمكن فِعلُه".

صمت.

تجلس إيڤا على السرير وتُركِّز على طلاء الأرضية المُتَقشِّر. يأتي الكلب ويريح رأسه على ركبتيها. تُربِّت رأسه بطريقة آلية.

"أنتِ لا تصغين مرة أخرى"- تقول أمُّها بعد صمت.

"أنا أفعل يا ماما، ولكن...".

"إنه من ذاك الطراز. يجلس في السجن فقط لأن السجن يشبه الموت".

تسأل إيڤا:

"متى سيتحرَّر مني؟".

"سيتحرَّر منك متى تَعلَّم أن يُحِبَّ الحياة. قد يحدث هذا يومًا. أحيانًا، يكون من المُهمِّ أن يعيش المرء من أجل هذا اليوم".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"ومتى سأتحرَّر منه؟".

"حين يُحرِّر عَقلُكِ نفسه منه. هل فعلت ما علَّمتُكِ إيَّاه في المرة السابقة؟".

"لا"- تكذب إيڤا.

"إذًا كيف لي أن أساعدك إن كنتِ لا تريدين مساعدة نفسك؟ لا يمكنني أن أفعلها نيابةً عنك. عند اكتمال القمر، حَضِّري الطاولة، أشعلي شمعة، اربطي خيطًا أحمرَ حولها، أمسكي طرفيه بإحدى يديك، وبالأخرى قُصِّي الخيط بمقصٍّ، وتَمَنَّيْ له كُلَّ الخير. تَمَنَّيْ له الصِّحَّة والحُرِّيَّة والسعادة- لكن بدونك. ولنفسك، تَمَنَّيْ أن يحرِّر عقلك نفسه منه. سترين. ستشعرين بتحسُّن. يمكن للقمر أن يفعل أشياء مُذهِلَة".

تتذكَّر إيڤا ليلةَ طَفَا البَدرُ، كبيرًا وشاحبًا كسفينة أشباح، خارج نافذة مطبخ فانيا، مُذيبًا الستائر في وهجه الجليدي. الْتَمَعَ إطارُ النافذة الأبيض وستائر الدانتيل في العَتَمَة. كل ما مَسَّه ضوءُ القمر تحوَّل إلى الأبيض والأسود، حتى الشمعة التي أشعَلَتها، والخيط الأحمر، وإيڤا نفسها. تمتَمَت بالدعاء، وقطعت الخيط. ظَلَّ طرفاه في يدها.

يا لضآلة النتائج! فكَّرت آنذاك.

كل تلك السنوات مع أندريس.

وطرفا خيطٍ في يدها.

لم تشعر بتحسُّن.

"حسنًا، يا ماما، سأفعل ما تقولينه. علَيَّ الانتظار إلى اكتمال القمر التالي. لكن اليوم، أريد أن أترك مونتا ودارسيس لديك".

"هل سترينه؟".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"نعم".

"غبيَّة! إنه يستغلُّكِ. متى ستفهمين ذلك؟".

"شكرًا لكلماتك الرقيقة، سلام!".

تُنهي إيڤا المحادثة، وتلقي بالهاتف على السرير.

تخلع التي شيرت الذي ترتديه، وتتأمَّل نهديها في المرآة. لا مُشكِلَةَ فيهما.

وجهها، أيضًا، ما زال جميلًا. ونحن صغار، تشبه وجوهُنا خرائِطَ بلا علامات- ناعمة وملساء. وبينما تكبر، تضاف إليها مثلَّثات برمودا، ومناطق ما تحت البحر، والمنحدرات، والتياهِر. لا يُبدي وجه أمُّها أيَّ علامة إنهاك أو توتر؛ لأنها لا تلوم نفسها أبدًا على الأشياء. لكن إيڤا ستُصاب بالتجاعيد، 100%. إيڤا هي لطخة سوداء وحيدة. وقد ضاقت بذلك، لكن ما الذي يمكنها فعله؟ شخصيتها من ذاك النوع. كل ما تفعله هو نتيجة الإلهام، ولا شيء آخر. تعمل في مكتب توريد أدوات مكتبية، وتتعجَّب بقيَّةُ نساء المبيعات من كَمِّ الأشياء التي تفعلها إيڤا بناء على الإلهام وحده. "في بعض الأيام، تكونين مبدعةً حَقًّا، لكن في أيام أخرى، تفقدين مهارتك تمامًا"- تقول جونتا. جونتا شابة، جميلة و -الأهم- مبتهجة دائمًا. المبتهجون لا يفقدون مهاراتهم أبدًا، ومن الجيِّد أن تقابل واحدًا منهم في حياتك. الآخرون جميعًا تمتلئ قلوبهم بالأسف والشكوى.

ترتدي إيڤا القميص الأرجواني. هي أيضًا، شابَّة وجميلة، وما الفائدة.

أحيانًا، يقتلها ذلك.

تَخرُجُ رأس شعثاء من أسفل كومة البطاطين على السرير.

"صباح الخير"- تقول مونتا. "إلى أين أنتِ ذاهبة؟".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"سنذهب إلى جَدَّتِكِ لأن ماما ستذهب لرؤية بابا. حان وقت النهوض وغسيل أسنانك".

تركض مونتا إلى النافذة وتعانق الكلب الذي تجمَّد مرة أخرى في حَذَر.

"دارسيس سيأتي معنا إلى بيت جدَّتي؟".

"بالطَّبع! أَلْبِسيه سوارَه".

الناحية الجنوبية. يتقافز الحَمَام على الإطار الخارجي لنافذة غرفة صغيرة مُشمِسَة.

تجلس صاحبة البيت، فانيا، على حافَّة السرير بين وسائِدَ بأغطية من الكروشية. تبدو كمومياء كهرمانيَّة في بلوزتها البيضاء، وشعرها الرمادي المُموَّج المُصفَّف على طريقة الفنَّانة زارة ليندر في عِزِّها. تنظر فانيا إلى طلاء الأرضية المُتقشِّر باهتمام بالغ، ومن آنٍ لآخر، تلكزه بطرف عُكَّازها.

تقول لإيڤا:

"تعالي وألقي نظرة على بيتي الريفي يا إيڤا. هنا، وهنا، وهناك أيضًا. وفي هذه هنا، انظري، رجل عجوز بأنف معقوفة وكلبان أبيضان... وهذه خريطة لاتڤيا. إلى أين أنت ذاهبة يا إيڤا؟ هذا القميص يبدو جميلًا عليك، قميص رجالي جميل، أليس كذلك؟ لا نرى هذا كثيرًا هذه الأيام، خروج النساء بهذه الأزياء المُبَهرَجَة. لكنه مُبهَرَجٌ حقًّا. أليس كذلك يا إيڤا؟ الغريب أن الغاية تُبرِّر الوسيلة. هل لي أن أدعوك إيڤا؟ تعلمين، لحُسنِ حظِّي، وَقَعتُ مرَّةً في حُبِّ صَبيٍّ يشبِهُكِ كثيرًا. نعم... كان هذا في باريس، عام 37؛ كانت أمي ممثِّلة في مسرح باتي. تياتر مونابرناس. لن يعني لكِ هذا أيَّ شيء، لكن لو رأيتِ واجهة مسرح المونبارناس، صدِّقيني ستتغيَّر حياتك.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

كانـت بـاتي تعـرض «مـادام بوڤـاري» لـ «فلوبـير». كان عرضًـا جيـدًا. عزفوا مقاطـعَ مـن لوتشـيا دي لاميرمـور. دونيتسـيتِّي، أمـي، كانـت إحـدى أربـع جميـلات نطقـن بأفـكار إيمـا بوڤـاري المسـكينة، ككـورال إغريقـي. لعـب الصَّبـيُّ دور ليـون- كان رجـلًا شـديد الجـمال، وغنـاؤه! كنـتُ في السـابعة عـشرة، كان حُبِّـي الأوَّل. كِـدتُ أُجَـنُّ ولكننـي لم أسـتَطِع أن أُبـدي شـيئًا. حـين كانـت إيمـا تهتـف «الحـب ليـس أفضـل مـن الـزواج» عـلى خشـبة المـسرح دائمًـا مـا كنـتُ أبـكي. وقفـت في حجـرة رخيصـة قـذرة في أحـد الفنـادق وصرخـت: الحـب ليـس أفضـل مـن الـزواج! تخيَّـلي كـم كان هـذا مُريعًـا يـا إيڤـا!... أظـنُّ اسـمه كان تشـارلز، الصبـي. جـاء إلى بيتنـا لتنـاول الغـداء".

تغـرق فانيـا في أفكارهـا. تنتظـر إيڤـا. حتـى تتململ فانيـا أخـيرًا، كـما لـو كانـت تتملَّـص مـن ضبـاب الذكريـات.

"لا تشـبهينه في أي شيء، لكـن هنـاك شيء مـا... التفاتـة... نظـرة، حـين تدخلـين".

تنظر إيڤا إلى الأوردة على يد فانيا. إيڤا ليس لديها وقت للانتظار.

تقول:

"أريد أن أدفع مقدَّمًا".

تنظـر إليهـا فانيـا بوجـهٍ خـالٍ مـن التعابـير. أحيانًـا، يمكـن لكبـار السِّـنِّ أن يسرحـوا بعيـدًا فجـأة في منتصـف الجملـة- كشـمعةٍ أُطفِئَـت. تضـع إيڤـا مالهـا عـلى الطاولـة.

"للغرفة".

تهزُّ فانيا رأسها ولا تعلم إيڤا السبب. تتراجع نحو الباب.

"سأغادر الآن. سأعود غدًا. سأذهب لزيارة زوجي".

وبينما تمدُّ يدها للباب، تفاجئها فانيا بالحديث.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"لا تأخـذي كلامـي بطريقـة خاطئـة يـا إيڤـا. أنـا أَجِـدُكِ شـديدةَ اللُّطـف. فقـط تذكَّـري وضـع مفتـاح الحـمَّام في مكانـه. ليـس لـديَّ نسـخة أخـرى".

تقـف إيڤـا ومونتـا ودارسـيس في الـرواق الأمامـي للشَّـقَّة. تتكـئ مونتـا عـلى الحائـط وتمسـك دارسـيس مـن سـواره. تضـع إيڤـا قـلادة أعطاهـا لهـا أندريـس- العـذراء مريـم تتـدلَّى مـن حبـلٍ مَجـدولٍ. عـلى كلٍّ مِنَّـا أن يرتـدي سـواره، تفكِّـر إيڤـا.

"لنذهب!".

ويذهبون.

تـترك ابنتهـا والكلـب في شـارع بارنافـاس، حيـث تُخـرِج مونتـا عـلى الفـور خنزيـرَ أُمِّهـا الأليـف الأبيـض مـن حوضـه المملـوء بالرمـال، وتضعـه عـلى الأرض، ينبـح دارسـيس مبتهجًـا، بينـما الخنزيـر يـكاد يمـوت رعبًـا. تسـتمع إيڤـا لشـكاوى أمهـا واقتراحاتهـا، ثـم تعـود للشـارع بعـد أن تُغرِقَهـا مونتـا بقبـلات الـوداع. تضـع السـماعات في أذنيهـا، وتُديـر مُشـغِّل الأقـراص خاصَّتهـا للاسـتماع لألبـوم لـوري أندرسـون: "برايـت ريـد".

تَذَكَّرْني، هذا كل ما أطلبه.

ولو صارت الذكرى عبئًا، فانسَنِي...

هذا الخيط الرفيع الطويل، هذا الخيط الرفيع الطويل.

هذا الخيط الرفيع الطويل، هذا الحبل المصنوع من الأصوات.

تشـبه هـذه الموسـيقى طبقـةً جليديَّـةً ملسـاءَ تتكـوَّن فـوق حـرارة خانقـة. فـوق وجـوه الحيـاة المُشـوَّهة، المُحطَّمـة بفعـل جليـد الهـوى الأسـود فـوق الأجسـاد الممتلئـة بالنـيران، والأسـواق، وحفـلات الزفـاف، والـولادات، والجنـازات. تزحـف الموسـيقى فـوق الشـوارع المُغـبَّرة، وتجمُّـد

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تلـك الأشـياء في لحظـات وأصـداء وانعكاسـات. تتـماشى تمامًـا مـع عـصر إيڤـا الجليـدي.

ترفـع الصـوت لأقـصى مـا يمكـن وتنكمـش في ركـن مـن عالمهـا. قالـت لهـا أمهـا للتـوِّ، "اقـرئي حياتـك ككتـاب، باسـتمتاع! إنهـا امتيـازك أنـت، أنـت فقـط". تتجـاوز إيڤـا بعـض الأغـاني وتشـاهد المدينـة وهـي تتبـدَّل إلى أفدنـة مـن الكريسـتال.

كل تلـك الوجـوه، مـن فصيلتهـا. تسـتطيع إيڤـا المشـاركة حـين تشـتغل الموسـيقى. تسـتطيع أن تتنفَّـس مـرَّةً أخـرى، ذات الهـواء الـذي تَنَفَّسـه الكثـيرون جـدًّا غيرهـا لملايـين السـنوات.

تشاهد الحياة كفيلم- وتَئِنُّ.

كانت لديك تلك السيارة الحمراء الصَّدِئَة

وأنا لم لكن لديَّ شيء أفضل لأفعله

التَقَطتَني، وانطلقنا على الطريق

أنا وأنت يا صغيري

انطلقنا من المدينة

قُدنا بسرعةٍ وبقوَّة

تاركين علامات انزلاقنا الدُّهنيَّة

في باحات الناس الخلفيَّة

لن نذهب لأيِّ مكان

فقط سنقود في الجوار

ندور في دوائر

وأنا، كنت أنتظر وحسب

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

في السوق المركزي، تشقُّ إيڤا كتلة الزحام ذات الرؤوس المائة، وتفكِّر في مونتا. بشرتها الناعمة الحريرية، عيناها الصافيتان، والدفء الذي اشتعل حديثًا جدًّا في قلبها! الطريقة التي تنظر بها إلى الطريق أمامها.

ابقَيْ مع جَدَّتِك، كوني فتاةً طيِّبةً، لا تُسبِّبي المتاعب لجدَّتِكِ! ستذهب ماما لرؤية بابا. لزيارته.

حتى الآن، لم تطرح مونتا أيَّةَ أسئلة. هذا ما يجب فعله، واضح أن العالم كله يعمل بتلك الطريقة. على ماما أن تذهب لرؤية بابا، الذي لم تَعُد مونتا تتذكَّره. لا تعرف أين يعيش؛ كل ما تعرفه أن عليها أن تنتظر حتى يعود هو للبيت. حُبٌّ بديهي. عليها أن تنتظر بابا مثلما عليها أن تنتظر سانتا كلوز. لكن حتى سانتا كلوز يزورهم أكثر- مرَّة في السَّنة.

من حينٍ لآخر تطرح مونتا سؤالًا، كصفعة على وجه إيڤا- تسألها عن أكسيلز. ما زالت تتذكَّر أكسيلز.

أين أوسيلا؟

أوسيلا في الجنة.

لا فائدة من انتظار أوسيلا.

تملأ إيڤا حقيبة الزيارة بأغراض من السوق المركزي. الشاي الأسود، أبسط الأنواع، سائب، خشن لو أمكن. اللحم المُقدَّد. تمضي الكثير من الوقت في النظر إلى قطع لحم الخنزير المُعلَّقة على الرف. ستفوِّت القطار إن لم تُسرِع. لكنها تتمنَّى لو كان اللحم المُقدَّد من النوع الجيد، مُدخَّن على خشب النغت، لم يُطلَ كيميائيًّا باللون البني. كيلو كامل من البصل. أعشاب، جبن، ومياه معدنية. حلوى- رقائق ويڤر بحشو الشوكولاتة مُغطَّاة بطبقة مُسكَّرة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

والـشيء الأهـم عـلى الإطـلاق- عُلَـبُ السـجائر. لـن تشـتريها مـن المتجـر، بـل مـن سرادق السـوق في الميـدان، حيـث تُبـاع أرخـص. حيـث يصيـح تُجَّـار السـوق السـوداء بوجوههـم الباليـة الفَجَّـة في الحشـد: كحول، ڤـودكا، سـجائر! تعطـي إيڤـا أحدهـم عشريـن لاتًـا وتأخـذ السـجائر، وتنتظـر الباقـي. يوليهـا الرجـل ظهـره كـما لـو لم تكـن موجـودة.

حين يبدأ في الابتعاد، تجذب إيڤا كُمَّه.

"ماذا تريدين يا ست؟".

"عشرة لات".

"أنتِ مجنونة؟".

يسـبُّ الرَّجُـل وينفـض إيڤـا عنـه، ولكنـه حـين يسـتدير ليَهُمَّ بالمغـادرة، تقفـز عينـاه لفتحـة قميصهـا، فـوق صدرها.

ترفع إيڤا أصابعها لصدرها تلقائيًّا.

حِليَّـة معدنيَّـة أعطاهـا لهـا أندريـس، العـذراء مريـم في خيـطٍ سـميكٍ مجـدول. دافئـة مـن حـرارة جسـمها. عـلى الأرجـح يملـك الرجـل واحـدةً مُشـابِهةً حـول عنقـه- ولـو لم يفعـل، فـلا بُـدَّ أنـه يعـرف ولـو شـخصًا واحـدًا عـلى الأقـل يملـك واحـدة. حليـة صُنعـت في السـجن. علامـة مُمَيِّـزة.

يُتَمتِـم الرَّجُـل شـيئًا ويعطـي إيڤـا عـشرة لات، وبعدهـا، يفرِّقهـما سـيلُ رُوَّاد السـوق عـن بعضهـما. أنـت لا تمـسُّ مَـن هُـم منـكَ. لا تتلاعـب بمَـن هـم مِنـكَ. مَـن كُنـتَ سـتغشُّ؟ واحـدة مـن نفـس نوعـك؟ هـل جُنِنـتَ تمامًـا؟

يعضُّ النَّسرُ ابنَ عِرسٍ

ويعضُّه ابنُ عِرسٍ

ويطيران فلا يَذهبان لأيِّ مكان

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يتشبَّث ابنُ عِرسٍ

معًا للأبد

وأنا؟ أدور في دوائر

ولو فتَحتُ فمي الآن

لسَقَطتُ أرضًا.

تَشقُّ إيڤا طريقها إلى خارج السرادق. رائحة العرق النَّتِنَة تصيبها بالدوار والغثيان. تغلق عينيها، وتتنفَّس بعُمقٍ من فمها. تتكوَّن حبَّات العَرَق على صُدغَيْها.

عليها أن تتخطَّى الأمر.

أرخى الصَّيفُ عَضلاتِ وجهه أخيراً.

إن أمطَرَت، فهي سيولٌ فُجائيَّة جامِحَة. ولو كان الجوُّ مُشمسًا، فهو الضوء المفتوح الخام. الحقول خالية، تملؤها الطيور الجائعة وسحب الغبار.

تستقرُّ إيڤا مع حقيبتها في قطار الديزل، كما لو كانت تخطِّط للبقاء هناك لبقية حياتها. لأربع ساعات تحدِّق خارج النافذة، كما لو بإمكانها أن تمتصَّ المستقبل بحدَقَتَيْها من بين شفاه المشاهد الخارجية الخرساء.

يمكن للقمر أن يفعل أشياء مُذهِلَة، قالت أُمُّها.

تتذكَّر إيڤا زيارتها الأخيرة لأندريس.

كان قد أعطاها قميصه.

تتذكَّر إيڤا نفسها في غرفة السجن الفندقية، أمام الحارسة.

تقفان متواجِهَتَيْن، كلتاهما صامِتَة، تُباعِد بين قدَمَيْها قليلًا.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تفكُّ إيڤا أزرار فستانها.

للحظة، تلتقي عيونهما. تخفض الحارسة نظراتها. تضع يدها الباردة على كتفي إيڤا، ثم تُمرِّر أصابعها على ترقوة إيڤا، حول صدريتها، وأسفل ضلوعها.

أفخاذها.

ركبَتَيْها.

كاحليها.

بينما تقف، تنظر إيڤا لينبوعٍ في مؤخِّرة عُنُق الحارسة، حيث يتجمَّع الشَّعرُ في دوَّامَةٍ صغيرة. محور الجمجمة، تفكِّر إيڤا ارتجالًا. يولد الأطفال بينابيع مفتوحة، ثم تنمو الجماجم وتغلق. ثم يبنون المدارس والكنائس والسجون. على أحدهم أن يفعل.

تقرفص الحارسة لتتفحَّص حذاءَيْ إيڤا؛ واحدًا ثم الآخر. ذات شتاء، حين كانت البرودة غير مُحتَمَلَة، بطَّنَت إيڤا حذاءها بأوراق الجرائد المطويَّة. تتذكَّر كيف فكَّت الحارِسةُ الجرائِدَ وفحَصَت كلَّ صفحة منها في ضيق.

على أحدهم أن يفعل.

تعيد إيڤا غَلقَ أزرار فستانها.

بينما هي تفعل، تغرس الحارسة إبرة طويلة في رغيف الخبز، ثم تُسحب الإبرة وتُغرس في قالب الزبد، ثم تُوضع جانبًا وتفتح الحارسة زجاجة المياه المعدنية، وترفعها إلى فمها المَطليِّ بالحُمرَة، وتتذوَّق محتوياتها.

تجلس الحارسة جوار الكومود. بطريقة مُمَنهَجَة، تفتح صندوق السجائر، وتخرج كل علبة من مكانها، ثم تعيدها. تُفرِغ محتويات حقيبة ظهر إيڤا على السرير.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تُقَلِّب الحارسة في مُذكِّرات أيفا، ثم تلقي بها على الطاولة.

تقول الحارسة:

"لا يُمكِنُكِ جَلبُ هذا".

تومئ إيڤا. الأفكار شيء خطير- قنابل يدوية، بنادق، مُخدِّرات.

"سيأتون لاصطحابك غدًا في العاشرة"- تقول الحارسة.

تَجمَع كُلَّ الأغراض التي ستُصادر مؤقَّتًا وتغادر. تجلس إيڤا كي لا تخونها ساقاها المرتجفتين، وتنتظر. هناك طَرقَة على الباب.

يُدخِل حارسٌ آخرُ السَّجينَ ويغادر. يرتدي السجينُ بَدلَةً. يظلُّ واقفًا خلف الباب، مبتسمًا في بلاهة.

يقترب منها بحرص، يتوقَّف للحظة، ثم يجذبها إلى حِجرِه. نعومة خَدِّها تلامس خشونة الشَّعر على خَدِّه.

ينحنيان بمرفقيهما على إطار النافذة؛ لأنه لا يوجد ما يمكنهم الحديث عنه فعلًا. النافذة مفتوحة، وضوء الشمس يسري عبر القضبان. يقترب أندريس من القضبان وينادي "بس... بس... بس". يسير قِطٌّ على شريط الرمل المرسوم بعناية بين فندق السجن وسور المنطقة. يتجمَّد القِطُّ، ينظر للنافذة، ثم يمضي في طريقه وذيله يرتعش.

يدير أندريس رأسه.

"أخبريني عن الحياة بالخارج".

ترتبك إيڤا.

"لا أستطيع".

"لماذا".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"يتغيَّر كُلُّ شيء كثيراً. عليك أن ترى بنفسِكَ".

في نقطةٍ ما، تمتلئ الغرفة أخيراً بظلال الغروب الرقيقة. يَطِنُّ الذُّبابُ حول آخر أشِعَّة الشمس على الشريط الرملي. هذه الأشعَّة مُثيرة، ممتلئة سحرًا وحرِّيَّة، حتى إن إيڤا لا تستطيع التفكير فيما هو أفضل ممَّا يفعله الذباب- الرقص للشمس الغاربة. لكن النافذة مُغلَقَة.

يُناوِلُ أندريس إيڤا أيقونةً مُطرَّزة على قصاصة بلاستيكية.

"أريد أن أعطي هذه".

تقرؤها إيڤا:

"«لا تخافوا، افتحوا قلوبكم للمسيح- الرب...» هل تؤمن بالله؟".

يجيب أندريس:

"لا أعلم".

تتابع إيڤا القراءة:

"«حمقى- خُلِقَت هذه الحياةُ لنتخلَّى عنها، لا أكثر...» لمن؟".

"ماذا تقصدين بـ «لمن؟»".

تسأل:

"لمن يُفترض بنا التَّخلِّي عن حياتنا؟".

يحكُّ أندريس مؤخِّرَة رأسه.

"وما أدراني... كانت مكتوبةً في كتاب. هنا نطلق على مثل تلك الأشياء أيقونات. أصنعها بنفسي. ليس لديَّ شيء آخر أفعله".

الليل. تتحرَّك أضواء كشَّافات بُرجِ الحراسة بالوَرْب على سقف غرفة فندق السجن. إيڤا وأندريس مستلقيان في السرير. أجساد

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

مُتخَشِّبة، عارية، دون تلامُس. الجو حار. من آنٍ لآخر، يُدَوِّي جرس إنذار الحراس بالخارج.

تسأل إيڤا:

"من أين حصَلتَ على البدلة؟".

يجيب أندريس:

"من ملابس تمَّ التبرُّع بها. نرويجيَّة".

"تبدو جيِّدة".

"شكرًا".

صمت.

تتحرَّك يدا أندريس وترتاح برفق على صدر إيڤا.

"صِرتِ هزيلة جدًّا، كهيكلٍ عظميٍّ".

تضحك إيڤا.

"كهيكلٍ عَظميٍّ!".

"لا تفعلي ذلك. كُلي أكثر. ستصبحين قبيحة".

صمت.

تقول إيڤا:

"عليَّ الادِّخار. لم أتناول شيئًا سوى الماء منذ فترة. فيه عناصر غذائية أيضًا. عليك فقط أن تعتاد عليه".

عينا إيڤا في الظلام. أندريس أيضًا يتظاهر بالنوم.

ثم فجأة، تجلس معتدلة في السرير.

"شيء ما كان هنا! في الظلام. شيء شرير. ما هذه الضَّجَّة؟".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

بعد صمت قصير يجيب أندريس:

"جرس الإنذار بالخارج".

تصيح إيڤا:

"لا، لا! هنا. شيء شرير كان يتحرَّك هنا".

يملأ قمر مايو العملاق النافذة- أحمر، مُحتَقِن، وميِّتٌ تمامًا. الهواء حيٌّ، ينبض بنقيق صراصير الحقل.

"إنه سجن يا إيڤا. وبالمناسبة، أنت نائمة بجوار قاتل. أم تراك نسيتِ ذلك؟".

تتَّكِئ إيڤا على ذراعها وتنظر إلى وجهه. يلمع القمر في عينيها، جبينها أبيض في وَهَجِه.

تقول:

"كُفَّ عن تذكيري طوال الوقت! أنا نائمة بجوار إنسان. هكذا أحب أن أرى الأمر".

لا يعرف أندريس ماذا يقول. يُلوِّح بذراعيه في غير اهتمام، كما لو يهشُّ ذبابةً.

تغرق إيڤا في الوسادة، وتتابع:

"لدينا ابنة. ابنة يا أندريس".

"أريدُكِ أن تُحضريها يومًا ما".

"لن تطأ قدماها هذا المكان أبدًا. أبدًا!".

الصباح. ترصُّ إيڤا الأطباق على الرَّفِّ. لم يَبقَ على الكومود سوى ساعة يد. في الخارج، رَعدٌ وأمطار غزيرة. يجلس أندريس على السرير، يُدخِّن في تَوتُّر.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تجلس في مواجهته وتلتقط حرف البطَّانيَّة. ينهض، ويقطع الغرفة جيئةً وذهابًا.

يقول:

"لقد نسوا. مرَّت خمس دقائق على الموعد المُحدَّد بالفعل".

تضحك إيڤا بافتعال:

"سيكون هذا مثاليًّا- أن ينسوا أمرنا في السجن".

يسأل أندريس:

"كيف ستصلين إلى موقف الباص؟ الأمطار غزيرة والجو باردٌ- خُذي قميصي".

ترتدي إيڤا قميصه فوق فستانها.

يقول:

"فكِّري في الأمر، سيكون قميصي حُرًّا خلال دقائق قليلة".

طَرقَةٌ على الباب.

ينظر أندريس لإيڤا.

"كل ما حدث، والسجن- لكنني لم أتحَوَّل لحيوانٍ من نوعٍ ما يا إيڤا. أتسمعينني؟".

يدخل حارس بوجهٍ عَريضٍ، رَسميٍّ.

يُؤخَذَا بعيدًا.

أروقة السِّجن.

متاهة من الأروقة، الباب الذي يُفتح ويُغلق بصوت عالٍ. لثانية، يستطيعان رؤية أحدهما الآخر عبر الباب الزجاجي.

بوابة السجن.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يعيدون جواز سفر إيڤا.

تخطو للخارج في المطر، مباشرةً إلى قلب تلك الفوضى من الحُرِّيَّة المُسكِرَة، والماء والرمال. لا تسمح لها حتى بأن تتنفَّس. تزفر فحسب.

تزفر إلى ما لا نهاية وهي تنظر خلفها إلى السور الأبيض، ثم أمامها إلى المدينة والمستقبل الذي يقترب ببطء، لكن بثباتٍ، مع سَيْل المياه المائل المنهمر من السماوات.

يمكن للقمر أن يفعل أشياء مذهلة، قالت أمها.

تفيق إيڤا من تحديقها في النافذة حين تسمع اسم المحطة في مُكبِّرات الصوت. مَحطَّتها. تُقلِّب حليةَ العذراء مريم هدية أندريس بين أصابعها، ثم ها هي على الرصيف.

تتناثر أكوام من ورق الشجر على الخرسانة أسفل المقاعد الخضراء، تتهادى قِطَطُ الشارع في كسل، وكلُّ شيء يلفُّه هدوء البلدات الصغيرة البطيء.

هكذا سأتوه، تفكِّر. أنا تائهة فعلًا، جرذ وسط جرذان. قطٌّ رمادي وسط قطط رمادية. أعطاني تاجر الكحول في السوق المركزي باقي نقودي لأنني أنتمي بالفعل إلى طبقة، أنا واحدة منهم، واحدة من المساجين، الذين سيشعرون إلى الأبد بندوبهم وألمهم أمام مَن سجنونا.

تركب إيڤا التاكسي الوحيد المُنتَظَر على الناحية الأخرى من المحطَّة.

"إلى السجن؟"- يسأل السائق مُتطلِّعًا إليها وإلى حقيبتها.

ليس عليها سوى أن تومئ.

تعدُّ فقرات ظهري حين أشعل الموقد. تستشعر الحب في لمسات أنامِلِكَ، فتشتعل واحدة تلو الأخرى وتتوهَّج في الظلام كالجَمر.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

لاحقًا، سأمشي معك إلى المحطَّة، وسيُمكِنُكَ أن تدفئ يديك في أحضاني. أن تحفر عميقًا في الرماد وصولًا إلى الجمر، إلى النيران في ظهري.

انظر إلى النجوم، هناك بالأعلى.

عالية جدًّا.

ستخرج تذكرةٌ مُشتَعِلَة.

سيأتي القطار، صاخبًا وباردًا.

هناك خواء مُريعُ البرودَةِ أسفل قلبي، يحصي خطواتك إلى سلالم القطار. انظر من النافذة قبل أن تحجب الجسور الرمادية الرؤية. يدفئ قِطٌّ نفسه قُرَب شُعلَةِ نار على الرصيف.

لوَّح مودعًا.

"ها هو سجنك، يا عسل!".

تدسُّ إيڤا خمسة لات في في يد السائق البدينة المُشعِرَة، وتصفق الباب. لم تكن قد رأت شيئًا. لا الطريق ولا الكنيسة ولا المَعبَر! ولا حتى السهل الرملي الجميل قبل السجن.

هناك سلالم جديدة، واسعة وقبيحة، تقود إلى غرفة انتظار حسابات السجن، بنافذة كبيرة على البسطة. يظهر سيلويت إيڤا في ضوء الشمس وهي تصعد إلى الطابق الثاني. يفوح كل شيء برائحة طلاء قوية.

بعد ذلك هناك رواق طويل بأبواب عديدة- كلها على الجانب الأيسر. يبدو الرواق مسروقًا ومنسيًّا. تحاول إيڤا مع كل باب، لكنها كلها مغلقة. ينفتح الباب قبل الأخير.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

الضوء يملأ الغرفة. الضواحي، السهول، الطابق الثاني. مبنى من الحقبة السوفييتية بنوافِذَ عملاقة. يجلس فنجان قهوة على إطار النافذة، من المشروب الأسود تتصاعد تموُّجاتُ البخار، تتحسَّس طريقها إلى أعلى، وتتكاثف على حافَّة الستار المعدني، ومن خلفه ضوء الشمس.

ترفع ثلاث نساء رؤوسهن من حيث يجلسن على مكاتبهن. إحداهن تأكل السَّلَطَة من علبة بلاستيكية.

تقول إيڤا:

"أريد أن أدفع. رسوم زيارة".

"لودميلا!"- تنادي المرأة.

تمسح التي تأكل أصابعها بعناية في منديل ورقي، وتفتح دفترًا.

بخار القهوة على إطار النافذة المشمس. رائحة المايونيز من السَّلَطَة.

تستدير الجالسة بجوار النافذة، تأخذ فنجان القهوة، تنفخ فيه، وتشرب.

تدير الجالسة بجوار الباب مفتاح الراديو، ضوضاء مع تغيُّر الإشارة من محطَّةٍ لأخرى.

تعد إيڤا نقودها للمرأة الجالسة على المكتب الأوسط، وتُوَقِّع في الدفتر.

نحو عشرة أشخاص ينتظرون الزيارات في باحة السجن. يخرج أحد الحراس إليهم وينادي اسمًا بصوت مرتفع، ويتَّجِه صاحِبُ الاسم إلى الداخل. تبقى إيڤا وامرأةٌ أكبرُ سِنًّا بحقيبتين بلاستيكيتين مملوءتين لآخرهما بالخارج. تُفتِّش المرأةُ جيوبها عن بعض الحلوى الصُّلبة إلى أن تعثر عليها، ثم تلقي بها في فمها، وتمضغها كحصان.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تمـرُّ مجموعـةٌ مـن الحُـرَّاس الشـباب بوجـوه مُحمـرَّة جريًـا أمامهـم. يغلقـون أزرار سـتراتهم، ويجرجـرن بنادقهـم عـلى الأرض وهـم يَجْـرُون. تُراقِبُهـم إيڤـا.

يخـرج الحـارس مـرَّةً أخـرى وينـادي اسـم إيڤـا. تتبعـه إلى شُـبَّاك الجـوازات، ترفـع جـواز سـفرها، لكنهـا تعيـده إلى جيبهـا بسرعـة.

تتمتم:

"أنا... لا... عليَّ أن أذهب إلى مكانٍ آخر!".

يُقرِّب حارِسٌ صارِمُ الهيئة وجهَه المُغطَّى بالنَّمَش من الزجاج.

"أنتِ هنا لزيارة؟".

"أنا... سأترك شيئًا وحسب".

"الشُّبَّاك التالي!".

تذهـب إلى الشـباك التـالي، تخلـع قميـص أندريـس وتطويـه بأقـصى مـا تسـمح بـه يداهـا المرتعشـتان مـن عنايـة، وتضعـه فـوق البقالـة. تحـدِّق الموظَّفـة متفاجِئـةً في المـرأة نصـف العاريـة أمامهـا. فلتفعـل! تشـمُّ إيڤـا لَفحَـةً مـن رائحـة اللحـم المُقـدَّد. تشـعر بالغَثَيـان.

ترتدي معطفها على جلدها العاري.

تقطع صفحةً من مُفكِّرتها وتكتب: "انتهى كل شيء حقًّا الآن. إيڤا".

تقطـع الطريـق الرمـلي باتجـاه المدينـة. مـن آنٍ لآخـر، تلتفـت وراءهـا كـما لـو كانـت لا تُصـدِّق- إلى السـجن، حيـث ترَكَـت أندريـس وحيـدًا. تَجِـدُّ إيڤـا السـير، مـع كل خطـوة تأخذهـا، تتخـلَّى عـن شيء قريـب إليهـا، بعنـف، تقطـع العُقَـد التـي كان حَلُّهـا دون ألمٍ لَيَسـتَغرِق أبديَّـةً. تصـل إلى قلـب الحريـة عديـم الرَّحمـة -الخائنـة!- فـوضى الهـواء والنـار والأرض. لا تَصِفيهـا بالجـمال، هـذا مـا كان أندريـس ليقولـه، لكـن بأيَّـة طريقـة أخـرى

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يمكنها وصفها؟ تلك الثانية التي تخطو فيها، رغمًا عن كل شيء وعن كل الناس، الخطوات الأولى في طريقك، في لحظة كينونتك الخاصة؟ لأن إيڤا لم يَعُد بوسعها الكذب بعد الآن.

وداعًا أيها الزَّواج! اعتني بنفسك أيَّتُها الكنيسة، وكلمات القسِّ: في الصِّحة وفي المرض، في الفقر وفي الغِنى، إلى أن يفرِّقَكما الموت! وداعًا أيها الحُبُّ: أين ذَهَبتَ؟ أيُّها الزمن، تعال وحاكِمْني! لكنَّ أحدًا آخر لن يفعل. سأُحاكِم نفسي بنفسي.

وليس عليكِ أن تكذبي على نفسك، ولا أن تكذبي على أي أحد- الحُرِّيَّة دومًا هنا مَعَكِ. فقط انهضي كل صباح واذهبي.

الحرية دومًا في متناول يدك.

تستغرق رحلة العودة ضعف وقتها لأنها تحاول ألَّا تُفكِّر في أي شيء. وحين تفكِّر في اللا شيء؛ يطول الوقت. تصرُّ عجلات القطار، يخبط هواء أغسطس الثقيل المُحمَّل بالغُبار النَّوافِذَ المفتوحةَ، لا شيء يحدث.

تبدو إيڤا غيرَ واعية بنفسها ولا بالآخرين- تحدِّق في النافذة. يَحلُّ الظلام.

الآن هي وحدها. عليها أن تتعلَّم كيف لها أن تستمرَّ في الحياة عارية- دون قميص أندريس. تريد أن تُوقِفَ قطارَ الأفكار.

ينظر الناس إليها. يطالعون وجهها. يعرف النَّاسُ كُلَّ شيء. هذه طبيعة النوع الإنساني.

تضع السماعات، "برايت ريد"، وتدثِّر نفسها بعباءة الموسيقى الباردة. واحدًا تلو الآخر، ينفصل الرُّكَّاب ويذوبون، متجمِّدين في أهِلَّة لامِعَة. لا يبقى سوى الظلام. الظلام. الظلام. وعينا إشارة السكة الحديد الحمراوان الدافئتان -جديرتين بالثِّقَة- حاضرتان طوال طريق الحياة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

حسنًا، ها هي الأسئلة: هل الوقت طويل أم عريض؟

والإجابات؟ أحيانًا تأتي الإجابات

بالبريد. وذات يوم، يَصِلُكَ هذا الخطاب

الذي انتظرته منذ الأزل،

وكل ما يقوله صحيح،

ثم في السطر الأخير يقول:

أَحرِقْه. لقد تفوَّقنا على أنفسنا.

تنزل إيڤا في المحطَّة المَركزيَّة في ريجا، وتتابع السير على جسر السكة الحديد، لتعبر النهر. تتحسَّس أصابعها مريم العذراء حول رقبتها. لا يوقفها أحد. لا تفكِّر إن كان مسموحًا لها بالعبور من هنا أو لا. تريد أن ترمي العذراء مريم في أعمق نقطة من نهر داوجافا. علَّ التَّيَّار يَدفِنُها في الرمال والرواسب. العذراء في صَفِّ أندريس دون شَكٍّ، والمسيح في صَفِّه، وكلاهما -الأم والابن- ينظران إلى إيڤا من السماوات في غير رِضا.

جسر السكة الحديد.

تلمع ريجا بالتَّساوي على الجانبين.

ونهر أسود في المنتصف. لا وجود لداوجافا الصغير الجميل هنا يا رفاق. إنَّه تَيَّارٌ مَهولٌ، عريضٌ ومُخيفٌ.

إنها تُمطِر.

تتحرَّك القطارات في كلا الاتجاهين على الجسر. تضغط إيڤا جسدَها لصقَ القُضبان كُلَّما مرُّوا. ينظر لها السائقون متفاجئين.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

فـوق منتصـف الداوجافـا، تـرى إيڤـا جسـمًا أسـودَ يتحـرَّك باتجاهـا. تبطـئ وتعـبر إلى الناحيـة الأخـرى مـن الجـسر. يعـبر الجسـم أيضًـا. يتَّضِـح أنـه أحـدُ حُـرَّاس جسر السـكة الجديـد، في زِيِّـه الرَّسـميِّ، بهـرواةٍ في حزامه.

"تصريحُكِ، لو سَمَحتِ!".

تجيب إيڤا:

"تصريحٌ؟ ليس معي واحدٌ".

يأمر الشرطي:

"إذًا عَليكِ العودة. لا يُمكِنُكِ السَّير على هذا الجسر".

تنظـر إيڤـا فـوق كتفـه، مـرة أخـرى، يعيـد النهـر صـوتَ تَسـارُعِ دمائهـا إلى أذنيها.

"ممنوع السَّيْر؟".

يضيق الحارس:

"بـلى. كـما لـو كُنـتِ مـن كوكـب آخـر... لا يمكـن لأحـدٍ أن يسـير عـلى جـسر السـكة الحديـد. اسـتديري، وبسرعـة، وإلا سـتتدخَّل الشُّرطـة".

تسـتدير إيڤـا عائـدة، وفي طريقهـا، تنـزع العـذاراء مريـم مـن حـول عنقهـا، وترميهـا مـن فـوق القضبـان إلى الميـاه. تسـقط إيڤـا عـلى العشـب المُبتَـلِّ بجـوار دعائـم الجـسر، وتـضرب الأرض بقبضتيهـا. لِـمَ لا يمكنهـا أن تعيـش لتقـدِّر هـذا العُشـبَ الجميـل الكثيـف؟

تُفاجِئُها فكرةٌ تجعلها تقفز على قدميها واقِفةً.

ماذا لو كانت...

حامل؟

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تتعثَّر وهي تتحرَّك، وتدرك -الآن فقط- أنَّها تتجمَّد بردًا، تقطع الجسر، بسُترَتِها فقط دون قميص، وفي هذه الأمطار الغزيرة كذلك!

تشتري اختبار حَمل من إحدى الصيدليات التي تعمل 24 ساعة، وتعدو على رصيف شقَّةِ فانيا المُبتَلِّ. تفوح المدينة برائحةٍ لم تَحمِلها من قبل أبدًا.

حمدًا لله أن بإمكانها على الأقل أن تكون بمفردها الليلة.

تدخل إيڤا غرفتها بهدوء، تغلق الباب، وتفتح النافذة. ترتفع برودة الوَحلِ في فِناء الدار من بين البنايات لتُلقي بسماء الليل. نادرًا ما يُتاح لها أن تكون بمفردها. تذوب في تَمَوُّجات الستار ذات اللَّمعَة الخافتة.

الصباح. عليها الانتظار حتى الصباح.

تتنهَّد بعُمقٍ، وتخلع ملابسها، وترتدي تي شيرت من القطن الناعم، وتروح في النوم، مُحتَضِنَةً دبدوب مونتا الكبير.

تسطع شمسٌ مشرِقةٌ، صفراء، مائِلةٌ للخُضرَة من بين أشجار القَيْقَب، ترسم تصميمًا متغيِّرًا مرتجفًا على السلالم. تفتح فانيا باب الحمام على البَسطَة. تقف إيڤا لتُطالِعَ اختبار الحمل الذي يكشف ببطء عن خطٍّ واحد.

تتكلَّم فانيا:

"إيڤا، قُلتُ لكِ بالفعل أن تتأكَّدي من إعادة المفتاح إلى مكانه. لم أتمكَّن من الذهاب إلى الحمام طوال اليوم البارحة".

تردُّ إيڤا:

"أنا آسفة".

تسأل فانيا:

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"ما هذا؟".

إيڤا:

"اختبار. لست حامِلًا".

تحاول فانيا فَهْمَ الموقف، ثم تُعرض عنه، وتشيح بيدها قائلة:

"لا مُعجِزَة إذًا".

تسأل إيڤا:

"معجزة؟".

تجيب فانيا:

"طبعًا. ملاكٌ صَغيرٌ كان لَيُرسَل للإنقاذ. لكن لا".

تتابع:

"تعرفين، مرَّ عامان على اختفاء ولدي -أخبرتك مرَّةً بالفعل- ذهب ذات صباح ليحضر الحليب، ولم يَعُد أبدًا... نعم، إيڤا، لنذهب... وتعرفين يا إيڤا؟ بعدها، حَطَّ عصفورٌ صغير على إطار نافذتي، ونقرها عدَّةَ مَرَّات، بوضوح، ببطء، مع وقفة بين النقرة والأخرى! وعندها فهمت! فهمت كل شيء!".

تمدُّ إيڤا ذراعها لفانيا، وتصعدان معًا السلالم البالية.

تتابع فانيا:

"أشكرك، أشكرك! هذا العصفور، تعلمين، نَقَرَ النَّافِذةَ ربَّما ثلاث مرَّات. وبصراحة، فهمت. انتظرت لعامين بالفعل. عليَّ أن أنتظر لعامٍ آخر يا إيڤا. سيعود ابني خلال عام. معجزة، صح؟ لكنني فهِمتُ".

تسأل إيڤا:

"كم عمرُكِ الآن يا فانيا؟".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تجيب فانيا وهي تلهث قليلًا:

"أربعة وثمانون يا إيڤا. مَلَلتُ الانتظار، وهذا المبلغ الذي أدفعه في تلك الشقة، لكن ما الذي يمكنني فعله؟ فكِّري فيها! لكنني أُبلي بلاءً حسنًا. وجدتُ خمسين سنتيمًا على السُّلَّم اليوم. ما رأيك في هذا؟".

بينما تصعدان، تصغي إيڤا لكلمات فانيا، تفهم ما تقوله، وتطرح الأسئلة. لكن في الوقت نفسه، تشعر بكل خليَّةٍ في جسدها أنها تفتقد رائحة مونتا ووجهها، وحماسة الكلب، ونصيحة أمِّها غير المرغوب فيها، والفِناء والمتجر، والتسوُّق، والقطارات، والسماء- مفتوحة على وسعها ذات صباح، ومُغلَقة في التالي.

وتستطيع رؤية أندريس- في عُشر ثانية، مشهد من ذكرى ربيع ما في بيت الزاري، ربما أجَّجها مَنظَر كلف الشمس على قدميها؟ تتذكَّر إيڤا صباحًا مشابهًا مع الشمس، ترى أندريس، كيف بدا وهو واقف في بستان التفاح، جوار أنقاض الحظيرة الحجرية، حيث أزهرت كل الأشجار. هناك منشار جوار قدميه، ينظر إلى شجرة الكرز الحلوة الملتوية أمامه، ويقول لها:

"دَورُكِ".

يلتقط المنشار، ويتفقَّد مستوى البنزين.

ينظر إلى الشجرة المجاورة، شتلة قَيْقَب.

"لا تَغتَرِّي بنفسك. أنتِ التالية".

في تلك اللحظة، تناديه إيڤا:

"اترك لي القَيْقَب".

ينظر أندريس باهتمامٍ إلى إيڤا التي تجلس على ركبتيها في ظلِّ شَجرة طقسوس فضِّيَّة، تُذكِّره بعصفور كبير مُتكلِّم.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"فيم تحتاجينها؟ ليست شجرةَ فاكِهَةٍ حتَّى".

"اتركها. أرجوك".

يبدو صوتها غريبًا للغاية.

وما زالت تلك الشجرة في الفناء إلى اليوم. يمكنك لمسها إن شِئتَ.

ترى إيڤا هذا المشهد، وتنساه فورًا لأن هاتفها يرنُّ؛ رئيسها في العمل يخبرها أنهم اضطرُّوا للعثور على مُتدَرِّب ليحلَّ مَحلَّها، تُسبِّب الكثيرَ من المشاكل- طفلتها مريضة، عليها أن تذهب -مَن يعلم لأين- لترى زوجها. فَهِمتُ، شكرًا. تُفكِّر إيڤا أنها يَدُ القَدَر. عليها أن تجد مدرسة. عليها أن تَدرُسَ شيئًا. قبل أن تضيع تمامًا في الأزمة. عليها أن تذهب لترى طبيبًا أخيرًا. حتَّامَ يمكنها أن تستمرَّ في خسارة الوزن، والشعور بهذا الألم في معدتها إن لم تكن حامِلًا؟ وعلى الأقل، فقد دفعت إيجار هذا الشهر مُقدَّمًا؛ أمامها شهرٌ كامل- إنها غنية بالوقت!

ثم تخترق فكرةٌ عَقلَها كرصاصةٍ: أن الأمر لم يُوثَّق بَعدُ رسميًّا في أيَّة كنيسة، أن أي شيء يمكن أن يحدث، وأن هذا الكتاب المدعو حياتها ما زال بلا نهاية- ليس جيِّدًا ولا سيئًا، ومع ذلك: إنها حياتها. تلك البعثة غير المُؤمَّن عليها المحكومة بالموت، هذا الصباح الذي لن يتكرَّر، الممتلئ بالحَمَام وظلال الأشجار والشمس وحكايات فانيا. الممتلئ باللقاءات المستقبلية والضحك. هذا الكتاب- امتيازُ قراءَتِه لها، ولها وحدها.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

الخامس عشر من يناير

لا شيء جيِّد في رَجُلٍ أسود يَزِنُ أكثر من 200 رطلًا يخرج من الظِّلال فجأةً ويقفز عليك. إيڤا سعيدة لكلِّ مَن لم يمرُّوا بتلك التجربة.

في البداية، لا تفهم إيڤا ما يريده، يأتي إليهم وحسب. في اللحظة التي تحطُّ يده الثقيلة على كتفِ إيڤا، حين تشمُّ أنفاسه الحارَّة الكريهة من تناوُل الخبز اللاتڤيِّ بالثُّوم، حين تفهم العواقب الحقيقية للموقف، في تلك اللحظة بالذات، يرى الرجل أكسيلز للمرَّة الأولى. يَقِفُ أكسيلز بجوارها في رياح ديسمبر العاصِفَة، ويتأرجح الضَّوءُ الأبيض من حانة بولاص، ليجذب وجهه من كادر الليل. يدفع الرّجُل الأسوَدُ إيڤا جانبًا على الفور، ويقفز نحو أكسيلز.

تتركهما إيڤا يتعاركان. تحسُّ أن شيئًا بَشِعًا قد يحدث الآن، لكن اللعنة، لا يمكنه فعل أي شيء حيال ذلك. تصرخ إيڤا بشيء ما، لكنَّ صوتَها يغرقُ في زحام أصوات الشارع الموحِل.

يرمي الرجل الأسود أكسلز على الجليد. بِرَكُ الرَّصيف متجمِّدة، سوداء كالعقيق. يا للخراء!- تقول إيڤا لنينجيلا، الغجريَّة أو الهندية التي تتسوَّل على باب البولاص. يا للخراء!- تقول إيڤا، انظروا كيف أصبح حيُّ آجينسكالنز! سود وهنود! لكن نينجيلا لا تفهم. تتحدَّث إيڤا اللاتڤية، لكن نينجيلا لا تعرف سوى كلمات قليلة منها.

تدفع نينجيلا بعض الفضوليِّين الذين تزاحموا كالظِّلال على مدخل الحانة إلى الداخل، وتَصفِق الباب. كفى، تصيح نانجيلا فيهم بالروسية، كفى!- لكن الرجل الأسود لا يسمعها. أخبريه أن يتوقَّف، أخبريه أن هذا يكفي، تصرخ نانجيلا آمِلَةً في أن تضع إيڤا نهايةً لكل هذا. يلتمع حذاء الرجل الأسود في ضوء المصباح الضعيف. أكسيلز هناك، في الظلام، على الأرض، على الجليد، أو مَن يعلم أين. تجذب إيڤا لوحًا مُسنَدًا إلى الجدار وتضرب الرجل الأسود على ظهره. يوقفه هذا

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

لثانيـة، ويتمكَّـن أكسـيلز مـن الهـرب. هـذا مـا كانـت إيڤـا تتمنَّـاه طـوال هـذا الوقـت، أن يجـري أكسـيلز لـو حـدث أي شيء. لا تعلـم إيڤـا لِـمَ لَـم يجـرِ حـين واتتـه الفرصـة ليلَتَهـا. ربمـا كان كبريـاؤه عَيبَـه. أسـاءت إيڤـا تقديـرَه؛ أكسـيلز -كـما اتَّضـح لهـا- ليـس مِمَّـن يجـرون.

فقـط حـين تـضرب إيڤـا ظهـر الرَّجُـل الأسـود ينزلـق أكسـيلز بطريقـة غريبـة عـلى الثَّـلج وإلى العتمـة. حينهـا كان قَـدَرُه قـد كُتِـبَ فعـلًا، لم يكـن هـو يعلـم ذلـك فحسـب. تهـرب إيڤـا وراءه.

بعدهـا، تصيـح إيڤـا في نينجيـلا لفـترة، مـن مسـافَةٍ آمِنَـةٍ في الظـلام، بينـما تقـف نينجيـلا عـلى سـلالم الحانـة، يعكـس شبشـبها الأبيـض بريقًـا خافتًـا في سـتار الثَّـلج الـلا نهـائي. تفهـم إيڤـا مـا يكفـي مـن كلام نينجيـلا لتعـرف أن النـاس يظنُّـون أن إيڤـا وأكسـيلز وشـوا بهـم للشرطـة. أن رجـال الشرطـة ألقـوا القبـض عليهـم مـن أجـل 30 جرامًـا مـن الماريجوانـا. أن ابنة نينجيـلا قُبِـضَ عليهـا وأنهـم يلومـون إيڤـا وأكسـيلز عـلى ذلـك. لا تـدري إيڤـا مَـن قـال لهـم هـذا الهـراء. بينـما تصيـح إيڤـا ونينجيـلا في بعضهـما، يقـف أكسـيلز خلـف إيڤـا. تشـعر بـه في ظهرهـا- حضـوره الصامـت، دعمـه. يميـل الرجـل الأسـود عـلى واجهـة الحانـة، مقطـوع الأنفـاس وهـو يغـلي غضبًـا، ويبصـق قطـرات داكنـة مـن الدمـاء مـن شـفته المفتوحـة عـلى الثلـج الأبيـض. يسـحب سـيجارة ماريجوانـا مـن جيبـه. شُرب ثُلُثُهـا بالفعـل، وبهـدوء وببـطء، يشـعلها مـن جديـد. يـزداد سـوادًا أمـام الثلـج المُنهَمِـر، والوهـج البـارد المنبعـث مـن الحانـة. تشـمُّ إيڤـا الرائحـة الثقيلـة رغـم الثلـج والمطـر. ابـن القحبـة! مـن أيـن أتى؟ اللعنـة. تغـادر إيڤـا وأكسـيلز، خاليـي الوفـاض.

لا يتغـيَّر الكثـير بعـد الليلـة التـي ضرب فيهـا الرجـل الأسـود أكسـيلز. تذهـب إيڤـا إلى العمـل، ويبقـى أكسـيلز في المنـزل. يُسـدِّد أحـدُ الأصدقـاء دَينًـا- ماريجوانـا مزروعـة في المنـزل مـن الريـف، وبعـض المـال. يمـزح

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

أكسيلز أنه لا يمكن أن تأخذ السيِّئ دون الجَيِّد. رُبَّ ضارَّةٍ نافعة. لكلِّ سحابة بطانَةٌ من فضَّة. يقول إن حب إيڤا الرمادي بلون الحَمَّام له بطانة فضية، تلمع في كل ما حوله، شَعْرِه، جِلدِه، أنامله. وريد لامع حول أقواس قُزَحِه الدَّاكِنة.

هكذا يمضيان الليلة الأخيرة في السنة ملتَصِقَيْن ببعضهما على المرتبة. يَصِلُ الصباح الأول من العام، وتنظر إيڤا باهتمامٍ إلى عينيه حين تفتحان. وكيف تتحرَّكان، عيناه، وكيف تبدوان. رائعة جدًّا، الحياة. الحيوية. الحياة والحيوية المختبئتان في أكسيلز.

أكسيلز لا يتأمَّل في الحياة.

تستيقظ إيڤا أولًا، وتراقب أكسيلز عن كثبٍ، نائم على مرفَقِها الأيمن، نصف مستيقظ. يفرُكُ جبهته، ثم يتقلَّص وجهه، كما لو أنه يُحرِّر نفسه من خيوط أحلامه، ثم تنفتح عيناه. تبحث عيناه، حاضرتان في اللحظة، تجدان إيڤا، وتصفوان. تتجمَّد إيڤا، تخاف أن تتنفَّس. ينظر إليها بصمتٍ للَحظَة، ثم يبتسم، ويبحث عن سيجارة. لا شيء خارج المألوف. هكذا تبدأ صباحاتهما. على مدار عامين، لم يكن لإيڤا سرٌّ أكبَرُ من هذا الرَّجُل بجانبها.

وبعد أسبوع، لا يستطيع حتى أن يقف إن كان جالسًا، أو يجلس إن كان واقفًا. يقول إن إيڤا تتصرَّف بحماقة، ويجعلها تذهب لشراء الماريجوانا. تُدخِّن إيڤا أقلَّ؛ ليستطيع هو أن يُدخِّن الضِّعف. اللُّطف المُعتاد تِجاهَ كُلِّ الناس وكل شيء الذي يأتي مع شرب الماريجوانا. الكرم المثير. لا تقول إيڤا شيئًا سلبيًّا واحدًا لأكسيلز. يوشكان على التوقُّف عن الحديث تمامًا.

حين يتناولان العشاء، تعرف إيڤا أن عليها أن تحضر شوكة، أو كوبًا، أو سكِّينًا، حتى لو اكتفى هو بالنظر إليها. إلى أن يقول لها

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"كفى". لقد ضاق برؤية هذه المُمرِّضة الحَنون في كل مكان. كُفِّي عن هذا يا إيڤا! وتكفُّ. وتنظر إليه وحسب، بعينين واسعتين مرتعبتين.

تُرعِبُها القشعريرة في عظامها كلَّما نظَرَت إلى أكسيلز. لا يمكنها تحاشيها. مرَّاتٍ لا حصر لها، تذهب لتُقَبِّلَه، تمسُّ شَفَتيْه بشفتيها، بخفَّةٍ وبساطة؛ تفعل إيڤا هذا كلَّما هَمَّ بقَولِ شيء، أو بينما هو يشاهد التليفزيون، أو عندما يبتسم لنفسه بهدوء. ويزيحها هو بنفاد صبر، لكن دون أن يوبِّخها. أكسيلز يعرف- لو وَبَّخَها في لحظةٍ كتلك؛ سيُمَزِّق أعماقَ قلبها. لكنه يعرف أيضًا أن إيڤا حين تُقَبِّله، تحاول التَّشبُّث بجزء منه، ويشقُّه هذا مائة مرَّة أعمق. لم أذهب إلى أي مكان بعد، يفكِّر، الأمل يموت آخرًا، أَلَا تعرفين ذلك، عزيزتي إيڤا؟ لا يستطيع حَمْلَ نفسه على قول ذلك بصوت عالٍ.

تنظر إيڤا إليه، ومن آنٍ لآخر، تُمرِّر أصابعها في شَعرِه. تمسُّ بشفتيها حاجبيه ورموشه وأذنيه. إيڤا تحب أكسيلز. في هذه اللحظة تحديدًا. في هذه اللحظة بالتحديد.

هشَّم الرجل الأسود فخذ أكسيلز في مشاجرتهما على الثلج. ذات ليلة، تستقيظ إيڤا بصرخة متكوِّمة في غرفة حالكة السواد. مرتعبة، تتحسَّس طريقها للمصباح. حين ينفجر الضوء في الغرفة، قاسيًا، وعاريًا، ترى وجه أكسيلز مُغَطًّى بالعَرَق، بالكاد يستطيع التقاط أنفاسه من الألم. في المطبخ، تطلق الثلاجة أزيزًا عاليًا، ثم تصمت. تفتِّش إيڤا الرفوفَ عن كل ما يمكنها العثور عليه من ماريجوانا. يسألها أكسيلز أن تطفئ النور. إنه يؤذيه. تفتح إيڤا الستائر وتطفئ النور. يستلقيان في وَهَجِ المدينة الأحمر. يمسكان بِيَدِ بعضهما في انتظار عمل المُخدِّر. لكنه لا يعمل. بحرص، تُحرِّر إيڤا أصابعها من أصابعه، وتتَحسَّس طريقها نزولًا على جنبه، رغم محاولاته لإيقافها، ودفعه بيديها بعيدًا. لكن إيڤا تستمرُّ، بالقوة حتى، محدِّقَةً دون أن ترمش في النافذة،

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

حيث تحمل رياح المساء الضوء والسحب المشرقة. فخذ أكسيلز ساخِنةٌ ومتورِّمةٌ، كحَبَّة كستناء على وشك الانفجار.

لثانيَةٍ، تسحب إيڤا يَدَها، وترى حجم المصيبة الحقيقي.

في الصباح التالي، يذهبان إلى العيادة. ترسل إيڤا رسالة نَصِّيَّة إلى آلص، تخبره ألَّا يتوقَّع مجيئها إلى العمل. يردُّ آلص بأن عليها ألَّا تتوقَّع أن يكون لديها عمل غدًا. ولو لم يكن هذا كافيًا، يحترق البيض في المقلاة، ويشرع أكسيلز في اختلاق الذَّرائع. لا يريد الذهاب للعيادة، من الأفضل أن تشتري إيڤا المزيدَ من الماريجوانا وحسب. كسِكِّيرٍ يسأل زوجته أن تعطيه جُرعَتَه الصباحيَّة من الڤودكا. ثم تنفجر إيڤا. تتهشَّم بضعة أطباق على ورق حائط المطبخ المُتقشِّر. تنهمر الشظايا البيضاء كالمطر على بقايا الأنابيب الصَّدِئَة الصَّامِتَة التي تفترش أرضيَّةَ المطبخ كغيلان نائمة، تلك الأشياء التي تشبه بالكاد موقِدَ غازٍ قديم، وخزَّانات البروبان الصغيرة، ومُبرِّدات الهواء الحديدية. صباح ينايري جديد في الخارج- فقَّاعة زجاجية باردة تموج سماؤها بخُضرَةٍ وحُمرَةٍ وزُرقَة جليديَّة.

أن أشتري الماريجوانا؟ تصرخ إيڤا، أشتري الماريجوانا! تخطف السيجارة المشتعلة من أصابع أكسيلز وتطفئها في الحوض. هذا الدخان المُقزِّز دومًا، لا يُمكِنُني التنفُّس! لا يمكنني التنفُّس، تصرخ إيڤا، لكن أكسيلز يبتسم ساخرًا في ارتباك. تتسكَّع هنا يومًا بعد يوم، أو تذهب لتسكر في وسط المدينة، أمَّا أنا فعليَّ أن أعمل في السوق، وأتجمَّد وأنا أشاهد العجائز الانتقائيات يعصرن اليوسفي بأصابعهن الممتلئة ويسألن- من أين هذا؟ من لاتڤيا، أخبرهن، من عند النهر في ماروبيه، فينتفخن كالحَمَام ويسبُّونني ويبتعدن. وآلص يُسجِّل كلَّ ما أقوله في مُفكِّرَةٍ سوداء. يكره أن أُغضب الزبائن. ثم يقصُّ أجري بابتسامةٍ ساخرة على وجهه الشيشانيِّ، أو أيًّا يَكُون. ناقص عشرة لات،

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يقـول، أو ناقـص خمسـة. حسـب اليـوم. وفي تلـك الأثنـاء، يجلـس أكسـيلز أمـام التليفزيـون يدخِّـن ماريجوانـا اشـتُرِيَت بعَـرَق جبـين إيڤـا. هـل تظـنُّ أن إيڤـا يعجبهـا ذلـك!

لكـن كل مـا تريـد قولـه فعـلًا هـو أن عليـه أن يذهـب إلى العيـادة. يرتـدي سُـترَتَه ويُغلِقهـا. ومـن أجـل هـذا تحبُّـه إيڤـا. لأنـه يحـترم جدِّيَّتهـا في أغلـب الأوقـات. لِلَّفتَـة البسـيطة -المؤلِمـة في الوقـت ذاتـه- في نهوضـه واقفًـا عـلى قدميـه ليرتـدي سـترته الجلديـة القديمـة.

تفتِّـش إيڤـا عـن جَـواز سـفرها في كل مـكان مُمكِـن، أخـيرًا تجـده في الـرواق، أسـفل قطـع غيـار درَّاجـة صَدِئَـة. أكسـيلز -كـما يتَّضِـح- يحمـل اسـمًا مختلفًـا في جـواز سـفره. تُقـرِّر إيڤـا أن اسـم أكسـيلز يناسـبه أكـثر بكثـير. ينظـر إلى جـواز سـفره بمـا يشـبه العجـب. يتصبَّـب عَرَقًـا مـن مجـرَّد الانتظـار. يفـوح بـئر السُّـلَّم برائحـة البـول. كلاهـما في الحاديـة والعشريـن مـن عمـره.

تتذكَّـر إيڤـا- سـيأخذان الـترام. لا تتذكَّـر أيَّ خَـطٍّ. يقـف أكسـيلز في مواجهتهـا وينظـر مـن النافـذة. يتعامـل مـع الألم. وجهـه زجاجـيٌّ وعينـاه فولاذيَّتـان.

يجلسـان متجاوِرَيْـن في العيـادة. يضـع كلٌّ منهـما يـده عـلى رُكبَـة الآخـر في هـذا العـالم العجيـب. في الخلفيـة ينـوح مثقـابُ طبيـب أسـنان، وتضـجُّ الغرفـة بأصـوات مـرضى يحاولـون العثـور عـلى مقعـد عـلى الـدِّكَك الطويلـة التـي تصطـفُّ في الأروقـة.

يُنـادى أكسـيلز وتذهـب إيڤـا معـه. ليسـت لديـه بطاقـة تشـخيص، بياناتـه غـير مسـجَّلَة، ولم تسـبق لـه زيـارة هـذه العيـادة.

يُرسَـلان مـن هـذه الحجـرة لتلـك إلى أن يَعـثُرَا عـلى الحجـرة الصحيحـة. يُدفـع مبلـغٌ مُحـتَرَمٌ لتسـجيله في أي مـكان. يَـئِنُّ الدَّمـارُ خافتًـا في كل رُكـنٍ:

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

متقاعـدون يسـبُّون ويلعنـون، أمهـات مُتَعرِّقـات يتنهَّـدن بعُمـقٍ بينـما يحملـن أطفالهـن.

يحتاجـون لإجـراء أشِـعَّة سـينيَّة عـلى جانـب أكسـيلز. يخلـع ملابسـه ويسـتلقي عـلى طاولـة الكشـف. تتراجـع إيڤـا قليـلًا، كـما لـو كانـت ظِلَّـه الهـارب، وتشـاهد في صمـت. تحـاول الممرِّضـاتُ وضـعَ فَخِـذِ أكسـيلز بالزاويـة الصحيحـة. يَدفِـنُ فَمَـه في كـفِّ إيڤـا ويـصرخ بـلا صـوتٍ في تلـك الهاويـة المُظلِمَـة الدافئـة. تنظـر إيڤـا بحُـبٍّ لفَخِذَيْـه. جميلتَـيْن كعهدهـما دومًـا، رشـيقَتَيْن للغايـة. جِلـدُ عانَتِـه كالقَطيفـة الفاتحـة. قضيبـه أغمـق، مَلَـكيٌّ، مُكَلَّـلٌ بشـعرات ذهبيَّـة. يُسـعِدُها أن المُمرِّضـات أيضًـا يسـتطعن رؤيتـه. تبـكي مـن الفخـر. يحـدث كل شيء فجـأة ولا يريـد أن يتوقَّـف. لا يسـتطيعون تثبيـت فَخـذِه للأشـعَّة. يـصرخ في كفِّهـا، يعـضُّ أصابعهـا حتـى تَدمَـى. يقـرِّر الطبيـب أن يعطيـه مُخـدِّرًا. تنغـرس إبـرةٌ في وريـد أكسـيلز فيسـترخي جسـده في الحـال، مطيعًـا كالراجـدول[1]. يُثبِّـت فَخِذَيْـه عـلى الزاويـة الصحيحـة. تتحـرَّك العدسـة إلى المـكان الوحيـد الخـالي مـن الجَـمال في جسـده، المـكان الـذي فتـح البـاب للفـوضى.

يظـلُّ مُشَوَّشًـا لوقـت طويـل، مسـتلقيًا عـلى أريكـة بُنِّيَّـة مـن الجلـد الصناعـي. جسـده تجتاحـه الرجفـة، يـكاد يتجمَّـد. تُغطِّيـه إيڤـا. تَلفُّـه ببطَّانيَّـة. تجلـس بجـواره عـلى كـرسيٍّ أبيـضَ بـلا حـراكٍ، بينـما تُزَلـزِلُ هـلاوِسُ المُخـدِّر كيانَـه. إنـه الجحيـم لكليهـما، تشـنُّجات أكسـيلز، وهمـود إيڤـا، عزلتهـما المشـتركة. أخـيرًا، يصـلان لنفـس العـالم. يفتـح أكسـيلز عينيه، لكنهـما ليسـتا عينَيْـه. لقـد بدَّلَتـاه عـن الشـخص الـذي كانـه.

تسـاعده إيڤـا عـلى ارتـداء ملابسـه. تـأتي المُمرِّضـة بأشـعه فَخِـذِه، وتحويـل للمستشـفى، ثـم تسـألهما بقَلَـقٍ عَـمَّا إذا كان أكسـيلز لا يريـد

(1) نوع من القطط معروفٌ بطاعته واستسلامه.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

الانتظار هنا أكثر من ذلك، حتى يزول المخدِّر. يهزُّ كلاهما رأسه "لا" كما لو كانا شخصًا واحدًا.

في الخارج، يغطي الثَّلجُ المدينةَ، تتهشَّم بلَّوراتُ الجليد تحت الأقدام. يركض الأطفال بخدودٍ حمراءَ وشفاهٍ لامِعةٍ من مصِّ رقاقات الثلج. تصرُّ إطارات السيارات، تغني قضبان الترام، يزيح كنَّاسو الشوارع الثَّلجَ بجواريف فضِّيَّة. تحرق الشمسُ أكوامَ الثلج على جانِبَيْ الشارع كالنار. ما بدا طريق أبدًا، ولا سيبدو، أطول من تلك المترات البضع مائة إلى محطَّة الترام. من آنٍ لآخر، تدفع الرياح كُتَلَ ثَلجٍ كالطُّوب من على أغصان الزَّيزفون السميكة. يسند أكسيلز نفسه على كتف إيڤا- بالأحرى ينهار عليها. يشعر بثِقَلٍ رهيب، كما لو كان مُشبعًا بالمياه. بضع مرَّات يسقط على كومة ثلج، ويريد أن يرتاح فوقها. لا تسمح له إيڤا. هَلُمَّ، لنذهب، تقول. هلُمَّ، هَلُمَّ! لا تُفكِّر إيڤا في أيِّ شيء، ولا فكرة واحدة ضئيلة. هلُمَّ، هلمَّ، هلمَّ.

في الحقيقة، ليس لدى إيڤا ما تقوله أكثر من هذا. تسأل أندريس أن يأخذهما إلى المستشفى، غدًا. تتوهَّج الشمس بينما تُدخِّن إيڤا على بوابة ورشة أندريس، وينظر هو إليها بعينٍ كسول نصف مُغلَقَة. بالطبع سأساعد- يقول، ومتى في حياتي لم أُساعِدْكِ؟

تنفخ الرياح الجليدية الدُّخانَ في وجهها مرَّةً أخرى. شفتاها حمراوان وطازجتان. لقد هَزُلَت تمامًا، يقول أندريس. بالطبع، تقول إيڤا وتشيح بنظرها، من التوتُّر.

يسأل أندريس:

"لِمَ تُدخِّنين؟".

تجيب إيڤا:

"لتهدئة أعصابي".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يبتسم أندريس ساخرًا.

يـأتي أندريـس في ميعـاده. كانـا منتظرَيْـن في الفِنـاء بالفعـل. يركـب أكسـيلز في الخلـف، فـاردًا سـاقَه عـلى المقعـد. تجلـس إيڤـا في الأمـام جـوار أندريـس. تُريـه الأشـعَّة: زوج مـن الصُّـوَر العريضـة المُظلِمَـة الغامضـة، وعظـام سـاق أكسـيلز الطويلـة عـبر ضبـاب لحمِـه. يمـرُّون في طريقهـم بسـيارات وبنايـات شـاهقة وجسـور وأعمـدة إنـارة. الشـمس مُشرِقَـة مـن جديـد، وحقـول الثلـج تتـلألأ بـالأزرق والبنفسـجي.

تقول إيڤا:

"أيمكنني التَّدخين في السَّيَّارة؟".

يسأل أندريس:

"ولِمَ تحتاجين ذلك؟".

تَصفِـق الرِّيـاحُ الدُّخـانَ عـبر النافـذة المفتوحـة، ومعـه خُصـلات شَـعرِ إيڤـا، ترفعهـم للسـماء المفتوحـة.

تُكرِّر إيڤا:

"لتهدئة أعصابي".

يسأل:

"أَتُصدِّقين ذلك حقًّا؟".

تومئ.

تترامـى أروِقَـةٌ حَجَريَّـةٌ واسـعة ملسـاءُ في كلِّ الاتجاهـات في مركـز أبحـاث السرطـان، كسـاحاتِ فروسـيَّةٍ مَنسـيَّة مـن الحقبـة القَيصريَـة ذات الأسـقف العاليـة. الشـمس غـير مُحتَمَلَـة. تَنفُـذُ قوَّتُهـا التَّدميريَّـة عـبر عـددٍ لا يُحـصى مـن النوافـذ، وتتراقـص أشِـعَتُّها مـع ذرَّات الغُبـار الدقيقـة في الهـواء كلَّـما مـرَّ النـاس.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يفحص الطبيبُ الأَشِعَّة، يهزُّ رأسه، ويطلب من أكسيلز أن يخلع ثيابه. يخلع أكسيلز ثيابه دون تفكير؛ أمضى أغلب الأيام الفائتة في فعل ذات الشيء. لا تتزحزح إيڤا إنشًا. حين سأل الطبيب الممرِّضَة أن تحلق فخذ أكسيلز لإجراء بعض الفحوصات، تأخذ إيڤا شفرة الحلاقة من يَدِ المُمرِّضة.

يقف في بقعةِ شَمسٍ ككيانٍ رشيقٍ لا مبالٍ. تركع إيڤا وتحلق الجزء الأمامي من فخذه. التجويف أسفل عظمة فَخِذِه حول الورك المتورِّم القبيح. تحترق الشُّعَيرات الثائرة الرقيقة في ضوء الشمس. تتساقط إلى الأرض واحدةً تلوَ الأخرى، حيث تُطفِئُها الظِّلال الباردة كالشَّرَر. تودُّ إيڤا أن تُقبِّل فخذيه، لكن اليأس قد سرق إحساسها، لا تحسُّ بوجهها نفسه. بعد دقيقة، يغرسون إبرةً سميكة في ساقه. يمسك أكسيلز بحرف الطاولة ويَصِرُّ على أسنانه بقوة حتى تتحوَّل شفتاه للَّون الأبيض.

يطلب الطبيب التحدُّثَ لإيڤا في الرُّواق. يقول شيئًا عن سرطان العظام، أسرع الميتات البطيئة. يسأل عمَّا إذا كان أكسيلز قد تعرَّض لأيَّة إصابات. يخبرها أن تتصل خلال أيام لتسأل عن نتائج الفحوصات. يختفي عائدًا لمكتبه وتستدير إيڤا لتجري.

تجري، لا، بل تمشي، لكن الهواء يحملها إلى أن تعجز عن مُجاراته- وهي تركض من أحد طرَفَيْ الرواق للآخر. يغمرها الهواء ويصطدم بالجدران كالزَّبَد، يُلطِّخ الستائر المعدنية. يقف أندريس في النافذة المقابلة لحيث تستقرُّ أخيراً. تختنق إيڤا بالهواء، لا تستطيع التقاطَ أنفاسها، وتذهب إليه. ينظر أندريس إليها نظرةً طويلةً قويَّة، ويخبرها أنه يُحبُّها. صدقًا، ألا تستطيع أن تخرس، تقول إيڤا، ولو لثانية؟ أرجوك، من أجل أكسيلز... لكن أندريس لا يستطيع أن يخرس. يُؤلِمُها بمحَبَّتِه القوية اللامتناهية حتى وهي تشهق بالبكاء

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

وتنتحب في كمٍّ قيمصه، حتى حين يخرج أكسيلز مرتديًا كل ملابسه من حجرة الطبيب، ويسير إليهما وعُكَّازه يدقُّ البلاط البارد. يسير تجاههما بخطوات طويلة ممطوطة غير منتظمة، هادئًا غير مبالٍ، يقف أمامهما تمامًا، بينما ينظران إليه كما لو كان يعرج إلى باب الجنَّة.

في المنزل، يقول أكسيلز لإيڤا:

"وماذا الآن؟".

تجيب إيڤا:

لا أعلم".

يغضب:

"بل تعلمين. أنتِ تتحدَّثين إلى الأَطِبَّاء؛ لذا نَوِّريني من فَضلِكِ!".

لا تقول إيڤا شيئًا. أكسيلز يعلم. يتظاهر فحسب بأنه لا يفهم.

يجرِّب أسلوبًا آخر:

"كم تبقَّى لديَّ؟".

"شهران... على الأكثر. علينا أن نُعاوِدَ الاتِّصالَ في الخامس عشر من يناير من أجل النتائج".

صمت.

"لا تدعيهم يأخذوني"- يقول.

لا تعلم إيڤا كيف يحدث ذلك، لكن الناس يتأقلمون. آليات التَّأقلُمِ المُدهِشَة تلك حين نُواجَه بما لا يمكن تَجَنُّبه -لا، ما هذا الذي تقوله- حين نُواجَه بأيِّ شيء يدوم لأكثر من بضع ساعات. تتذكَّر تلك الليلة الأولى: كلاهما يُدخِّن في الشرفة، والجَوُّ شديد البرودة. يجلسان وظهراهما إلى الحائط؛ فلا يريان من الدرابزين الخرساني سوى النجوم

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

التـي كانـت مُتوهِّجَـةً حقًّـا. بينهـما شـجرة بتـولا صغـيرة، بيضـاء بأغصـان عاريـة- تنمـو عـلى الشُّرفـة عـبر شـقٍّ في الطـوب. أسـفلهما، وسـط المدينـة، ضحـكات المـارَّة مُبَعـثَرَة عـلى الأرصفـة المُتجمِّـدة، كتفاحـات كريسـتالية حمـراء، انعكاسـات اللوحـات الإعلانيـة عـلى الحـصى. حمـدًا لله أن سـوق الكريسـماس قـد هـدأ. يجـد أكسـيلز صعوبـة في الجلـوس، يطـوي سـترته أسـفل سـاقه ويمدُّهـا نحـو الأفـق. تنـاول الكلونازيبـام لتجـاوُز الألم والقلق. شـاحب وضعيـف، بعينـين محمومتـين، يدخِّـن سـيجارة تلـو الأخـرى ويثرثـر. يبـدو أنـه يتكلَّـم عـن مـدى أهميـة ألَّا يـؤذي النـاسُ بعضهـم بعضًـا. يتوسَّـع في الموضـوع، ثـم يغلبـه النـوم، كـما لـو ينزلـق إلى غيبوبـة.

تسـحبه إيڤـا إلى الداخـل. تضـع رأسـه في حِجرهـا، وتشـعر بكراهيـة مفاجئـة لأيِّ مَـن كان يريـد أن يأخـذ منهـا هـذه الدُّميَـة الجميلـة الدافئـة، تلـك الدميـة التـي لا تشـبع منهـا أبـدًا. تـشرع في البـكاء، رغـم أن الدمـوع تجافيهـا عـادة في مثـل تلـك اللحظـات، كـما لـو كانـت مـن نـار. يحـب إيڤا وأكسـيلز الأفـلام. يضعـان أكوامًـا منهـا في جهازهـما الباناسـونيك القديـم، كـما يضـع النـاسُ أكـوامَ الملابـس في غسَّـالَةٍ. تنزعهـما القُـدرَة عـلى الشـعور بـأي شيء. في أي مـرَّة تعـاني أمـرًا، تتذكَّـر مُمثِّـلًا أو مُمثِّلـة مـا في موقـف مشـابه وطريقـة تعاملهـم مـع الأمـر. تقلُّصـات وجوههـم بينـما يحلـب المُصـوِّر اللَّحظـةَ بعدسـته بـلا هـوادة، مسـتخلصًا كل الدمـوع وصرخـات الرعـب- التـي لا تشـكُّ في أن المُمثِّلـين يشـعرون بهـا حقًّـا، بـدلًا مـن التمثيـل. لكـن مـا يدفعهـا للجنـون ليـس المُمثِّـل أو الممثِّلـة، بـل المخـرج والمُصـوِّر، وكل تلـك الصناعـات العملاقـة، والآلات، والرغبـة في اسـتهلاك الأسى كامـلًا وعرضـه عـلى الشاشـة لـيراه الجميـع، عوضًـا عـن الهـروب مـن هـذا الوريـد الـذي قُـدِّم وقُطِـعَ كخَـطٍّ بـترول. بعـد ذلـك، حـين يحـدث أمـر مـا لـك شـخصيًّا، لا تسـتطيع البـكاء ببسـاطة.

لـك- تقـول إيڤـا، اللعنـة عـلى كل هـذا؛ تحديـدًا لأنهـا في تلـك الليلـة مـع أكسـيلز في الشرفـة، بكـت. فلتذهـب الأفـلام كلهـا إلى الجحيـم. حتـى

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

ولـو ضمَّـت حشـدًا مـن المُمثِّـلات المُذهِـلات البارعـات، الـلاتي يسـكبن دموعهـن ومخاطهـن وبصاقهـن بطريقـةٍ إباحيَّـةٍ أمـام الكاميـرا، عالِـماتٍ بـأن العدسـة تلتقـط كل لحظـة مـن كل اختلاجـة في عضـلات وجوههـن مهـما كانـت بسـيطة- حتـى مـع ذلـك، كانـت إيڤـا لتبـكي مـرَّةً أخـرى. كل مـا تفكـر فيـه هـو كيـف يحـاول أحـدٌ أن يأخـذ منهـا هـذا الـرأس الثقيـل الغـافي في حجرهـا.

بالطبـع كل شيء مُمكِـن في الحيـاة، لكـن لا يحـدث كل شيء بسـبب رَجُـلٍ أسـودَ لَعـينٍ، ولا بسـبب تلـك الحمقـاء نينجيـلا، التـي تتسـكَّع خلـف الطـاولات في البـولاص، غارقـة في عطورهـا الهنديـة المُسـكِّرة المثـيرة للغثيان.

ولا حتـى بسـبب الحانـة نفسـها- أسـوأ حانـة عـلى الإطـلاق. قـاع آجينكسـالنز، تلـك المَزبَلَـة. يعطيـك إمضـاءُ الوقـت هنـاك شـعورًا بالجلوس في حفـرة عميقـة تحـت الأرض، أيًّـا كان الموسـم وأيًّـا كان الوقـت. أو بالأحـرى: قـاع الحيـاة. رائحـة السـجائر العَطِنَـة، الأرائـك المُهتَرِئَـة، التلفـاز في الخلفيـة يعـرض قنـاة "إم تي ڤـي" دون صـوت، بينـما تهـدر مُكـبِّرات الصـوت بموسـيقى مختلفـة تمامًـا. الـرُّوَّاد المعتـادون العَطِنـون، تمامًـا كالسـجائر، مِمَّـن يدعـون أنفسـهم فنانـين، أو فنَّـاني الحيـاة، وهـم ليسـوا في الحقيقـة سـوى حفنـة مـن العاطلـين، يثرثـر كلٌّ منهـم بهُـراءٍ عـن الوقـت الـذي كان مـن المُفـتَرَض أن يتوقَّفـوا فيـه فعـلًا.

كل مـا كانـت تريـد فِعلَـه هـو شراء بعـض الماريجوانـا مـن ابنـة نينجيـلا، لكـن هـذا الأسـود اللعـين خـرج مـن العـدم وطـرح أكسـيلز أرضًـا عـلى الجليـد. حسـنًا، ثـم كُـسِرَ فَخـذُه، ثـم تفاقَمَـت المصائـب بسرعـة. أيُّ غبـاء؟ ليـس هكـذا، ليـس بتلـك الطريقـة- تبـكي إيڤـا وتتوسَّـل، وتنهمـر دموعهـا في الظـلام عـلى شَـعرِ أكسـيلز.

في الصبـاح التـالي، تبـكي إيڤـا بـكاءً مختلفًـا، لكنـه بشـأن أكسـيلز أيضًـا. ثـم في الليلـة التاليـة، لأمـرٍ مُختَلِـفٍ كُلِّيًّـا، لكنـه مـا زال بشـأن أكسـيلز.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

لكنها في الليلة التالية- تكفُّ حتى عن البكاء، تجلس وحسب، تُفكِّر في اللا شيء، مُنتَشِيَة بالديازيبام، تَصِرُّ على أسنانها. تَحَوَّل الأمر إلى لعبة، تقبض عضلات فكِّها وتُرخيها. هذا هو التأقلم، تصل إليه دون حتى أن تدرك ذلك. وتُخطِّط للمستقبل بالفعل. تُخطِّط للمستقبل. يا لها من خيانة بَشِعَة! أن تفكِّر في المستقبل بعد أكسيلز. أكسيلز المُلقى على جانب الطريق كساعة مكسورة، بينما يمرُّ التِّرامُ به حامِلًا إيڤا بعيدًا. بعيدًا جدًّا.

تقول إيڤا:

"ماذا تقصد؟ لا تدعيهم يأخذونني؟".

يبتسم أكسيلز ابتسامةً مكسورة:

"تذكرين سيد ونانسي؟".

تتبلور فكرة أكسيلز ببطء في ذهن إيڤا، وحين تصدمها أخيرًا، تُرعِبُها بما يفوق المنطق. تتَّسِع عيناها:

"تريد... مني أنا؟".

"نعم، أنتِ. ومَن غَيرُك؟ اسمعي يا إيڤا، أنا لم أَعِش طويلًا، لكنني عِشتُ على طريقتي. حقًّا. وأريد أن أموت على طريقتي".

تُغادِرُ إيڤا الغرفة، وتصفقُ الباب.

"انْسَ ذلك! ماذا تظنُّ؟ أنا لستُ قادِرَةً على القتل!".

يوقظ الألم أكسيلز في منتصف الليل. يتشنَّج كما لو أُلقي به على أسلاك الجهد العالي. وبعد أن يأخذ كل الأدوية الممكنة، يستلقي مسترخيًا، يئِنُّ. تبدِّل إيڤا قمصانه وملاءاته المُتعرِّقة، أربعة أطقم على مدار الليلة. غارقة تمامًا.

قُربَ الصباح يقول أكسيلز:

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"أرجوك، أطلقي عليَّ النار من بندقية، من مسافة خمس عشرة خطوة".

تبكي إيڤا:

"لا أستطيع أن أطلق عليك النار كما لو كنتَ حيوانًا!".

"أرجوكِ. لو كُنتِ تحبِّينني".

تصرخ إيڤا:

"إذًا، ما أحبَبتُكَ أبدًا!".

يُقلِّص أكسيلز وجهه. ربما كانت ابتسامة. يحدِّق في السقف ويقول:

"اتَّخِذوا من الأناركية أمًّا لكم. اخلقوا كلَّ ما في طاقتكم خَلقُه من فوضى وارتباك، لكن لا تدعوهم يأخذوكم أحياءً".

تضغط إيڤا بيديها على أذنيها.

في النهاية، يقنعها أكسيلز بالذهاب إلى الريف.

سيد ونانسي في الغرفة رقم 100 من فندق تشيلسي. سِرٌّ أبديٌّ لهما وحدهما. هذه المرة سيموت سيد. يملأ سيد رأس نانسي بالكلام، عن رغبته في أن يرقد بجوار أشجار البتولا في الجانب البعيد من المَرج، حيث تتفتَّح أوَّلُ زهور الحوذان دومًا في الصيف. لن يعرف أحد. سيكون هذا سِرَّهما.

لم تستطع إيڤا أبدًا أن تتخيَّل هذا القَدْرَ من قِلَّة الحيلة. أن تشعر به. لا تريد أن تقبل بمرض أكسيلز. عليها أن تفعل لأنه ليس أمامها طريق آخر- لا طريق آخر! هناك لحظات يتَّقِد فيها عقل إيڤا بوضوحٍ وشراسَةٍ رائِعَيْن، كسكِّين شُحِذَت حديثًا. تفهم ألَّا طريقَ آخر، مُجرَّد حياة تستمرُّ بدون أكسيلز.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

لم تطلب الحياةُ رأيَ إيڤا في أيٍّ من الأشياء القاسية التي تحملها لها. هي ما هي عليه. هذا هو الحال. لم ترغب أبدًا في أيٍّ من هذا. أليست هذه الهدايا الرائعة، الساديَّة الأنيقة، كثيرة على شخص واحد بأعصاب ومشاعر وعقل وقلب؟ كيف لها أن تقبلها كلَّها، وليس لديها ما يكفي من الأيدي! أيَّتُها الحياة الكريمة السَّخيَّة- شكرًا لكشف وجهك الحقيقي لي بهذه السرعة.

لو كان كل هذا يتعلَّق بها، لَمَا اهتمَّت إيڤا. لكن حياة شخص آخر، شخص كامل آخر، تقف أمامها. كما لو احتضنها شيءٌ غير ملموس. شيء يطفو من أيقونة على زجاج كنيسة مُلَوَّن.

عليها أن تقبل به.

أيام الشتاء الصافية كالكريستال ثابتة في السماء، زرقاء كفُقُّمات تحمل أرقامًا على حَدَباتها، تأكل الوقت على مهلٍ، جبتهي ساخنة، تُفكِّر إيڤا، تُفكِّر، تُفكِّر. لا يمكنها التفكير في أيِّ شيء.

تحسُّ إيڤا أن بإمكانها العثور على الخلاص في الإيمان، وتشاهد السماء. المغارب مُدهِشَة، لكن لا شيء أكثر من ذلك. السماء صامتة.

وأكسيلز ما زال هنا، بجوارها. عليهما أن يستعدَّا. جبهة إيڤا ساخنة. يمكنها أن تبقى هادِئةً طالما هي مشغولة، لكنها ما إن تنفرد بنفسها حتى تبدأ في البكاء.

يقول أكسيلز:

"أنتِ مُتعلِّقة أكثر من اللازم. هذا عيبك".

تشعر إيڤا بالإهانة حتى لا تعرف ما تقوله. تحمرُّ خجلًا حتى.

تبكي:

"عيبي! عيبي؟".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يقول أكسيلز:

"أنـتِ تسـتمتعين بالمعانـاة فعليًّـا. تحبِّينهـا. والآن أنـت سـعيدة لأن لديـك مـا تعانـين فيـه".

يقول:

"أنا، أنا لستُ متعلِّقًا بأحد. لا يوجد مَن سأبكي عليه لو مات".

إنهـا كابـوسٌ شـيطاني، كل تلـك المحادثـات. فـوضى. أكاذيـب. لا اكـتراث، هـروب. التظاهـر طـوال الوقـت بأنهـما يتحدَّثـان عـن شـخصٍ آخـر لا عـن نفسـيهما. عينـا إيڤـا الداميتـان، وقلقهـا مـن كونهـا لا تشـعر بـشيء.

كل شيء يحدث بسرعة.

ذات ليلـة، ينـام أكسـيلز عـلى الأريكـة، تتسـلَّل إيڤـا فوقـه بمقـصٍّ. تنظـر إلى وجهـه للحظـة. ثـم تسـتجمع شـجاعتها وبسرعـة، تقـصُ خُصلَـةً مـن شَـعرِه. تظـنُّ أنهـا نجَحَـت في مَهمَّتِهـا وتسـتدير بسُرعَـةٍ لتُغـادِرَ الغرفـة. عـلى البـاب، تنظـر خلفهـا- أكسـيلز يراقبهـا. يراهـا، صامتًـا. لا حَرَكَـةَ في عينيـه سـوى ضيـق حدقتيـه واتسـاعهما.

تفتح إيڤا نافذة:

"يا له من هواء منعش!".

الهـواء في وسـط المدينـة بَشِـعٌ، لكـنَّ إيڤـا تظـنُّ ألَّا بـأس بـه لأنـه هـواء وحسب.

أكسيلز يريد الماريجوانا.

لا تعطيها إيڤا له، تخفيها. ينتابه الغضب.

تسأل إيڤا:

"أتعرف حتى لم تحتضر؟".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

مثل تلك المواضيع تُضجِرُ أكسيلز، لا يريد التحدث فيها.

تقول إيڤا:

"تحتضر لأنك فقدت عقلك. من كل هذا الخراء".

يهزُّ أكسيلز رأسه.

تقول:

"نعم، فَقَدتَ عقلك. لا يوجد ما هو أسوأ من أن تفقد عقلك. والآن، أنت تحتضر".

يقول أكسيلز:

"إنه خياري. أَعطيني إيَّاها".

"سأصير بمفردي تمامًا!".

"لا تفكِّرين سوى في نفسكِ!".

تجحظ عينا إيڤا من محجَرَيْهما من الأسى.

"وأنتَ لا تُفكِّر سوى في نفسِكَ!".

"الجميع لا يُفكِّرون سوى في أنفسهم. هكذا يجب أن تكون الأمور. أعطيني الماريجوانا. إنها تُسَكِّن الألم".

تتَّصِل إيڤا بأندريس:

"ألا زِلتَ تملك تلك البندقية القديمة؟".

يقول أندريس:

"نعم".

"أتعمل؟".

"نعم. أَردَيتُ خنزيرًا بَرِّيًّا بها أمس".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"أين أنت؟".

يقول إنه في بيت الزاري. يحاول تقطيع بعض الأخشاب للنار.

هذا سيئ، تُفكِّر إيڤا. خُطَّة سيد ونانسي مهدَّدَة بالفشل.

لكن أندريس يقول:

"تعالي إلى هنا، سأحب ذلك".

"هل ستساعدني؟".

"بالطبع. متى في حياتي لم أفعل...".

إنه الصباح، تدخل إيڤا حجرة أكسيلز وتقول- جاهز؟ يجيب أكسيلز- جاهز.

الفكرة تحتاج وقتًا لتنمو، كما يحتاج البلُّوطُ وقتًا لينمو من جَوزَةٍ إلى شجرة.

لا داعي للقلق بشأن التأخير. في الرابعة صباحًا، تربيتةٌ خَفيَّةٌ حول كتفها وهمسة- الآن! ويبدأ الأمر. المُضيُّ قُدُمًا، أو التَّراجُع. أو شيء مختلف كُلِّيًا.

لكن أوَّلًا، أنت بحاجة إلى فكرة.

إنه عصر الرابع عشر من يناير. تتَّصِل إيڤا بأندريس.

تقول:

" أهلًا أندريس".

يجيب:

"مرحبًا إيڤا".

صمت.

تتكلَّم إيڤا أخيرًا:

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"لدينا أشياء قليلة أخرى لنُنجِزَها هنا، ثم سنكون في طريقنا".

صمت.

ثم يجيب أندريس:

"أنا أُحبُّكِ يا إيڤا".

تصرخ إيڤا بغضب:

"هَـلَّا كَفَفـتَ عـن ذلـك! تعـال لاصطحابنـا عنـد مفـترق الطُّـرُق. أكسـيلز لا يسـتطيع المـشي".

إيڤـا عـلى اسـتعداد لإعـلان اسـم أكسـيلز لسـاعي البريـد، والشرطـة، وأندريـس- ولأيٍّ مَـن كان، مائـة مـرَّة عـلى التـوالي وأكـثر. اسـم أكسـيلز ناعِـمٌ كحَـصَى البحـر، يمكنهـا أن تُقَلِّبـه في فمهـا وتضمَّـه بلسـانها.

"سأكون هناك".

يغلق أندريس الخَطَّ.

يـتراءى لإيڤـا مشـهدٌ قصـير لأندريـس وهـو يضـع السَّـمَّاعة وينظـر عـبر نافـذة المطبـخ. رأت ذلـك مـرَّاتٍ كثـيرةً مـن قبـل. فـوق طاولـة المطبـخ الخشـبية المُغطَّـاة بقطعـة قـماش بيضـاء، يمتلـئ المطبـخ بضـوء خـلَّاب، ينعكـس عـن أشـجار الصنوبـر المُغطَّـاة بالثلـج، وزُرقَـة السـماء، والشـمس المتلألئـة فـوق الحقـول الشـتوية. الـبرد في المطبـخ غـير مُحتَمَـل، يتراكـم غبـار الشـتاء عـلى كل سـطحٍ داكـنٍ، وعـلى الرفـوف الخشـبية الخَشِـنة. حتـى آنـذاك، لم يكـن أندريـس يُبقـي المنـزل دافئًـا بالقـدر الـكافي أبـدًا، طالمـا لم تَكُـن إيڤـا بالبيـت.

لا تحـزم إيڤـا أي أغـراض لتأخذهـا معهـا، وترتـدي ثيابًـا ربيعيَّـةً، رغـم الصبـاح اليناير المـشرق بالخـارج. يقـول أكسـيلز شـيئًا مـا عـن الأعاصـير العكسـية. عـن كونهـا جبـالًا، جبـالًا غـير مرئيـة، مُشِـعَّة، تتفجَّـر بالشـمس- لهـا أسـطح مـن الألمـاس.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تتبدَّل الأسطح وتنهار تلال الذهب وتتفتَّت لحُبَيباتٍ صغيرة على زجاج السيارات العابرة، في ستائر النافذة. تذوب الشرارات الصَّفراءُ في بياض مُقلَتَيْ كلٍّ منهما. تسأل إيڤا:

"ما هي الأعاصير العكسية إذا؟".

بالنسبة لأكسيلز، الأعاصير هي أعماق البحر، الجداول المُتدفِّقة، والرطوبة الخصبة.

يجلسان في المطبخ. قبل ذلك، لم يأكل أكسيلز كثيرًا أبدًا لأنه كان يُدخِّن الماريجوانا. الآن، يشعر بالغثيان بسبب الأقراص، فيشرب القليل من القهوة بالحليب فحسب. إيڤا تشعر بالغثيان من الحياة. من كل ما يحدث. توقَّفَت عن الأكل حين توقَّف أكسيلز عن الأكل. ليس عمدًا، لا. الأمر وما فيه- أنهما اثنان. وبطريقة ما، إيڤا هي أكسيلز. حين توقَّف هو عن الأكل، فعلت هي ذات الشيء. الأمر بسيط حقًّا. هما الآن أشبه بفزَّاعَتَيْ طيورٍ عظميَّتَيْن، ولم يَبقَ عليهما سوى القليل جدًّا من القَشِّ. مونتا ممتلئة وحيوية، تسكب كوب حليبها وتطلق صيحة.

تقول إيڤا لمونتا:

"لماذا تسكب مونتا حليبها كل صباح؟".

" لا. ماما تسكب حليبها كل صباح!".

"مونتا تفعل!".

"مونتا لا تعرف!".

"إذًا ذاكرة مونتا ضعيفة!".

"لا! ذاكرة ماما!".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

لا أمَـلَ في الجـدال مـع مونتـا، خصوصًـا في الصباحـات التـي تسـتيقظ فيهـا سـعيدة للغايـة.

تُلبس إيڤا مونتا. ترتاب مونتا.

تئِنُّ:

"لا سراويلَ صوفيَّة!".

تقول إيڤا:

"مونتـا لـن تذهـب للحضانـة. سـتذهب لبيـت جَدَّتِهـا. الأرضيَّـات بـارِدَةٌ في بيـت الجَـدَّة".

"لا بيت الجَدَّة! عناكب!".

غريـب أمرهـا مـع بيـت جَدَّتهـا. بعـض الأحيـان تُـسَرُّ مونتـا لزيـارة جَدَّتِهـا، لكنهـا في مـرات أخـرى تـرى العناكـب وهـي هنـاك. اليـوم واحـد مـن أيـام العناكـب. تحتـجُّ مونتـا وتتململ، لكـن إيڤـا تنجـح في إلباسـها أخـيرًا.

إيڤا أيضًا ارتدت ملابسها. تستدير إلى أكسيلز وتقول:

"سآخذ مونتا إلى بيت ماما، وبعدها سوف ننطلق".

يختنـق صوتهـا في حلقهـا حـين تـرى وجهـه. كيـف يراقبهـما، هـي ومونتـا. ضبطهـما ممتلئتَـيْن بالحيـاة.

في اللحظـة التـي كانـت تتعامـل مـع مونتـا، نَسِـيَت إيڤـا. نَسِـيَت كلَّ شيء آخـر في الدنيـا، بمـا في ذلـك أكسـيلز. نسـيت نفسـها في الحـدث فأصبحـت هـي نفسـها الحـدث. تلعـب الشـمس عـلى رقاقـات الثلـج الصُّلبـة خلـف النافـذة. تمسـك إيڤـا بوشـاح مونتـا في يدهـا، ولا يعـود باسـتطاعتها إيجـاد الكلـمات. سـيكون هنـاك الكثـير من المشـاهد المشـابهة تمامًـا لهـذا المشـهد، بعـد أن يمـوت أكسـيلز.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يجلس أكسيلز في كرسي فاردًا ساقه المعطوبة أمامه ويراقب مونتا باهتمام. تعبيره ملكه، ملكه وحده، ويعلم الله وحده إن كان هو نفسه واعيًا بما وراءه. إنها ذبذباتٌ عظيمة من نوعٍ ما، طبيعة الأشياء التي تشدُّه إليها. يشاهد مونتا وهي تجري في الرواق، وللحظَةٍ يرى العالم يُبدِّل سُرعاته. كلُعبَةٍ شديدة القدم، دبدوب، مُرِّر من طفلٍ إلى طفلٍ، وحُبَّ حتى بَليَ، فانفتحت غُرَزُه الناعمة فجأة، وانسكب الغبار والحشو والرمال- وبإمكانك أن ترى أن صندوق الموسيقى ما زال يعمل، يُطَقطِقُ وهو يُكوِّن الكلمات: أنا أُحبُّكِ، أنت تُحبُّني، أنا حيٌّ، أنت حيٌّ...

تحتشد تلك الكلمات في الفجوة، في المسافة، في الفراغ بينهما: أكسيلز وقد مسَّه الموت، مونتا وقد مسَّتها الحياة.

وما طلب أكسيلز من إيڤا أن تفعله، ألم يكن فعليًّا طلبًا طفوليًّا؟ ألم يكن طلبًا يليق بسُلطان؟ أراد الموت أن يأخذه إلى ذلك المرج البعيد، لكن أكسيلز لديه إيڤا. حمدًا لله أنَّ لديه إيڤا. يمكنه الاعتماد على ذلك حتى في الموت. والآن، سيقود الطريق كمَلِكٍ، تتبعه إيڤا، وفي يدها زمام الموت، ذاك الحصان الرمادي، ذو الخطم الأسود كالضِّباع. ستقوده إيڤا وتضع فوقه السَّرج، وسيعتلي أكسيلز هذا السَّرج، بدلًا من أن يُربَطَ ويُسحَلَ خلفه. سيعتلي أكسيلز السَّرج. نعم. إنها الإرادة الحرَّة حقًّا.

تهدأ إيڤا وتلفُّ مونتا بالوشاح. أدرَكَت أنها كانت دومًا ما تستأنف الحوار الداخلي في عقلها الباطن -أهو الصواب- هذا الشيء الذي وعَدَت إيڤا بفعله؟

مثل الساعة- تِكْ تِكْ تِكْ تِكْ.

لم يَفعَلَا شيئًا بعدُ. ما زال تغيير كلِّ شيء مُمكِنًا. ومع ذلك- لا يمكن تغيير أيِّ شيء أبدًا.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

كل بضع لحظات لا بُدَّ من تأكيدٍ، من مساهمة. وحتى لو مرَّت لحظة بدون تأكيد، فليس أمامها سوى التلاشي أمام مئات اللحظات التي تحمل تأكيدات.

كان استنفارًا عسكريًّا ضخمًا، وقد استُدعِيَت إيڤا لأداء الخدمة.

تقول إيڤا لمونتا:

"أعطِ قُبلَةً لأوسيلا!".

تذهب مونتا لأكسيلز وتعطيه قُبلَةً. تخاف إيڤا- تخاف أن تقول مونتا شيئًا، شيئًا يجعله يُدرِكُ أنه يراها للمرة الأخيرة؛ اليوم وغدًا هي آخر أيام المشاهد والملاحظات.

"أسرِعْ يا أوسيلا، ستخنقها الحرارة!".

يرميها أكسيلز بنظرةٍ متفاجِئَةٍ- تتصرَّف بقسوةٍ شديدة! لكنه يدرك على الفور أن قسوتها لم تكن في غير محلِّها. إيڤا تُرتِّب لموته، ومن الواضح أن هذه القسوة مُتوَقَّعَة؛ لذا لا يقول شيئًا. لا تعتذر إيڤا، ولا حتى بنظرة. أن تقسو خيرٌ من أن تنهار.

تخرج إيڤا ومونتا من الباب.

ذاك المساء، يذهب إيڤا وأكسيلز لمحطَّة الحافلات. إيڤا على استعدادٍ لأن تقول لكل من يمرَّان به- أنتَ! انظر لأكسيلز! هذا الكوكب سيختفي غدًا! ستسقط نَجمَةٌ! يُمكِنُكَ أن تنظر إليه وتتمنَّى أُمنيةً، وسيجعلها تتحقَّق! ينظر أكسيلز إليها في غير رضا، كما لو كانت غبية. لكن إيڤا لم تحمل ذَرَّة تهكُّم واحدة وهي تشتري تذكرتَيْ ذهاب، وهي تعرف تمام المعرفة أنها ستشتري واحدة فقط للعودة.

الحافلة دافئة، ضيِّقة، ومُظلِمَة. هناك صَفٌّ من الأضواء الزرقاء الصغيرة على جانبي المَمرِّ. لا يستطع أكسيلز العثور على كرسيٍّ خالٍ واحد يسمح له بمَوضَعَةِ ساقِه المعطوبة. يجلس على الأرضية المرتفعة

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

في مؤخِّرة الحافلة؛ بالأحرى، يستلقي عليها مُتَّكِئًا على مرفقه. يحدِّق بقيَّةُ الرُّكَّاب في البداية، لكنهم سرعان ما ينسون مفاجأتهم ويغفون. لا تمكن رؤية الكثير في الظلام. ترقد إيڤا بجواره.

"حتى أبسط المطبَّات تُشبِه الزَّلازِل"- يقول أكسيلز.

تمسُّ إيڤا بشفتيها جبهته الرطبة من الألم.

مائة وأربعة وعشرون كيلومترًا أخرى.

حين يترجَّلان في محطَّة الزاري، عند تقاطُع الطرق الأربعة، يجدان أندريس في انتظارهما بالفعل. تهتزُّ السيارة بالموسيقى، وحين ترى إيڤا وجهه من النافذة ينتابها الغضب. يقف أكسيلز وقد التوى جسده إلى الجانب، ويستنشق هواء الليل.

"أهلًا يا أولاد"- يقول أندريس. "اقفزوا بالداخل!".

هناك عابِرَا سبيلٍ غَجَريَّان في السيارة بالفعل.

المطبخ في بيت الزاري دافئ لدى وصولهم. بقية الغُرَف بارِدَةٌ وغير مُرتَّبَة. يشرب أندريس الشمبانيا مع الغجريَّيْن ويتحدَّثون عن الغابات. من أين يُؤتَى بالخَشَبِ الجيِّد، وكم من المال قد يجنون بالعمل في قَطْع الأخشاب.

يقول أندريس:

"أريد أن أعود. سَئِمتُ هذه المدينة. إيڤا، ما رأيُكِ في أن نعود إلى هنا، إلى الرِّيف؟".

إيڤا جوار الموقد تدفئ يديها، وتغلي بالغضب. تشرب كأسًا من الشمبانيا وتنتظر رحيل الغَجَر. يجلس أكسيلز في نهاية الطاولة ولا يشرب شيئًا. فقط يجيب لو وَجَّه له أحدُهم سؤالًا.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"أنـتَ بِخَـيرٍ، أيُّهـا الشـاب، أنـتَ صامِـتٌ نوعًـا!"- يقـول أحـد الغجـر ويـضرب أكسـيلز عـلى كتفـه. يتصبَّـب أكسـيلز عرقًـا مـن الألم.

"لِمَ هذا الوجه- ألا تَحتَرِمُني؟".

يردُّ أكسيلز صائحًا:

"أيُّها القَذِر!".

يقفـز كلاهـما عـلى قدميـه ويقفـان وجهًـا لوجـه، وقـد رفـع كلٌّ منهـما ذراعًـا اسـتعدادًا للهجـوم. ينهـض أندريـس ويدفعهـما بعيـدًا عـن بعضهـما.

يقول:

"كفى! لن تكون هناك مشاجرات في هذا البيت!".

بعـد منتصـف الليـل، بعدمـا غـادر الغَجَـر، وبينـما أكسـيلز مسـتلقٍ عـلى مرتبـة فُرِشَـت عـلى الأرض جـوار النافـذة الكبـيرة، يجلـس أندريـس وإيڤـا ويتحدَّثـان بهـدوء جـوار آخـر الجمـر المحتـضر في فـم الموقـد.

تتوسَّل إيڤا:

"أعطِني بندقيَّتَكَ وعَلِّمني كيف أُطلِقُها".

يحضر أندريس بندقيَّته، وبينما إيڤا تتفقَّدها يسأل:

"علامَ تنويان يا جماعة؟".

"إنه يحتضر".

"يبدو لي بخير".

"هكـذا يبـدو وحسـب. علينـا الاتصـال غـدًا للحصـول عـلى نتائـج الفحـص".

يأتي صوت أكسيلز من ناحية النافذة الكبيرة:

"ليس علينا أن نتَّصِل بأحد. أنا أعرف النتائج".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تلتمع ألف نجمة في النافذة حين تخلع إيڤا أخيراً ملابسها الخارجية وتتكوَّر جوار أكسيلز.

"يهمس أكسيلز في أذنها:

"لِمَ جَرَرتِه إلى كلِّ هذا؟ سيُسَلِّمُكِ للشُّرطة".

"هو؟".

تضحك إيڤا:

"لن يفعل أبدًا".

يلمع البَدرُ على الجانب الآخر من البيت. لكن لا تمكن رؤيته من المطبخ. ينام أندريس على سريرٍ قابِلٍ للطَّيِّ جوار الموقد.

يصل صباح الخامس عشر من يناير.

صباح ساحر مشمس. زُرقَةُ السماء، خُضرَة أشجار التَّنُّوب، الثلج، ورمال الساحل تتداخل لتصنع ضفيرة. كان أكسيلز يستمع إلى أغصان الرياح وهي تدقُّ زجاج النوافذ منذ منتصف الليل. إنه يومٌ جديد ثانيةً بثانِيَةٍ.

إيڤا وأندريس يستيقظان. يشعل أندريس الموقد ويصنع الشاي. تعطي إيڤا أكسيلز حُقنَةَ ديازيبام كي يستطيع النهوض. تعطيه بعض الحبوب المُسكِّنَة مع الماء أيضًا، لكنها تُحدِّث أندريس من فوق كتفها:

"أعطني البندقية، واتركنا بمفردنا".

بمجرَّد أن يرتدي أكسيلز ملابسه ويشرب الشاي، يعطي أندريس البندقية لإيڤا ويسير خارجًا من البيت.

يسأل أكسيلز:

"إلى أين سيذهب؟".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تقول إيڤا:

"لا أدري. بعيدًا".

هناك صمتٌ غير مُريحٍ. يصفِّر غلَّاي الشاي المَنسيُّ على الموقد، ويندفع خَطٌّ حادٌّ من البخار للسقف. ينظر أكسيلز إلى الغَلَّاي بعجز.

"حسنًا إذًا. كوني بخير".

"سأحاول".

صمت من جديد.

"لا تَقُصِّي شَعْرَكِ قصيراً- يبدو سيِّئًا علَيكِ".

ثم يبدأ في مُعابَثَتها:

"ستصبحين بدينةً بلا شكٍّ بمجرَّد أن تُتمِّي الثلاثين".

تردُّ إيڤا ساخرة:

"كلَّا لن أفعل".

"لِنَتراهَنْ!".

"انسَ الأمر. لن أُصبِحَ بدينةً أبدًا".

"لنراهن بمعطف من الفرو. معطف رائع ضخم لامِع يمكنك الاختباء فيه. سأرسله إليك من العالم الآخر حين تصبحين بدينةً".

وبهذا تَنفَدُ طاقَتُه. صمت.

"الجوُّ حارٌّ هنا"- يشكو، مُتعرِّقًا من الألم مرَّةً أخرى. "لنذهب".

يجدان أشجار البتولا في الناحية البعيدة من المَرج. بلورات الثلج الجليدية الساطعة تذوب في الشمس. يعرج أكسيلز إلى أضخم شجرة بتولا، ويضع يده عليها. يتطلَّع إلى أغصانها الرشيقة، ثم ينظر إلى الأرض.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يقف تحت البتولا، وينظر لإيڤا مُضَيِّقًا عينيه.

"حسنًا"- يقول. "أنا جاهز!".

تقول إيڤا:

"وأنا لستُ جاهِزةً. لم أُقَبِّلْكَ حتَّى".

تذهب إليه وتنظر في عينيه مباشرة، تبحث عنهما كما يبحث صقر عن سنونو.

تسأل:

"أحقًّا تريدني أن أفعلها؟".

ثم تشعر بالحَرَجِ فورًا، حين ترى كم تُؤلِمُه شُكوكُها. تُقَبِّله بسرعة على شفتيه، وتبتعد عن الشجرة. خمس عشرة خطوة.

يظهر أندريس من خلف ستارٍ من أشجار الصنوبر.

"لا تَرفَعِي الماسورة من على الأرض!".

"تجاهَليه"- يقول أكسيلز مُحذِّرًا.

يقول أندريس:

"فكِّري فيما سيجعلك تفعلينه! إنها حماقة!".

"تجاهليه، أَطلِقي النار!"- يصيح أكسيلز.

ترفع إيڤا البندقية لكتفها لتصوّب عليه، وتستمر في التراجع.

"انتظري! انتظري هناك!" تصيح، غيرَ قادِرَةٍ على إطلاق النار. يقف أكسيلز وقد دسَّ يديه في جيبي معطفه ويراقبها. تنظر إلى أكسيلز من فُوَّهة البندقية، لا يبدو أكبرَ من عصفور. تتعثَّر إيڤا وهي تتراجع وتتراجع، ينتظر أكسيلز، يراقبها باهتمام، ينتابه الهلع. إيڤا غير قادرة على إطلاق النار.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تـسرق قُـوَّةٌ غاشِـمَةٌ البندقيَّـةَ مـن إيڤـا وتشـهرها في وجـه أكسـيلز. تَعلَـمُ إيڤـا مـا سـيحدث فتسـتدير لتجـري، ضاغِطَـةً أذنيهـا بيديهـا بقـوة. تجـري وتـصرخ. هـي نفسـها لا تعلـم لـو كانـت صرخاتهـا خارجيَّـةً أم داخليَّـةً.

بعدهـا -خارجيًّـا، أو مَـن يـدري ربمـا داخليًّـا- هنـاك طلقـة كبـيرة. صرخـة.

تتعـثَّر إيڤـا، وتقـع عـلى الأرض، تقبـض يداهـا عـلى الثلـج. لا تسـمع شـيئًا عـلى الإطـلاق؛ ثـم هنـاك طنَّـةٌ بعيـدة في السـماء. تنظـر للأعـلى- طائـرة.

يـأتي أندريـس إليهـا بالبندقيـة. يعطيهـا يـده ويشـدُّها لتنهـض. يبـدو مصعوقًـا.

"سأذهب لأحضر جاروفًا".

تُهَـرولُ إيڤـا وراءه. يصـلان إلى المطبـخ ويجلسـان إلى الطاولـة. يجـذب أندريـس زجاجـة برانـدي مـن الخزانـة ويصـبُّ كأسـين. تـشرب إيڤـا. يـشرب أندريـس.

لِلَحظَـةٍ، تشـعر إيڤـا بالـدُّوار، كـما لـو ضربهـا أحدهـم بهـرواة عـلى رأسـها.

تصرخ:

"أنتَ قَتَلتَه؟ أكسيلز؟ أنتَ؟".

يذهب أندريس إلى السقيفة ليحضر جاروفًا. يقول:

"أحضري البطانية الخضراء معك وأنتِ خارجة".

تتبعـه إيڤـا ببـطء غـير مُصـدِّق. كان أندريـس يحفـر بقـوة، وصـل إلى خـصره بالفعـل.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

أكسيلز مستلقٍ جوار البتولا. مكوَّمًا على جانبه الذي كان ذات مرَّة مؤلمًا. بقعة حمراء صغيرة ارتَسَمَت على صوف سترته الأبيض، فوق الصدر تمامًا.

تنظر إيڤا إلى وجهه وتصرخ هلعًا- لم يَعُد أكسيلز بعد الآن. مُستَرخٍ بشكل غريب، مُنكَمِش، صغير. شيء. جماد. أكسيلز لم يَعُد هنا.

تناول إيڤا البطانية لأندريس. يلفُّ أكسيلز فيها ويقول:

"وإلَّا سيدخل الرَّملُ في عينيه".

تأخذ إيڤا وشاحها الأحمر من حول عنقها، وتلفُّه حول رأس أكسيلز.

يقول أندريس:

"لا تفعلي ذلك- يقولون إنك لن تستطيعي المُضيَّ قُدُمًا في حياتك حتى يتحلَّل الوشاح".

"لا أريد المُضيَّ قُدُمًا في حياتي بدونه على أيِّ حال!".

يقول أندريس:

"سأغلق جفنيه".

"كلَّا. ليس أنت!".

تنحني إيڤا فوق أكسيلز وتُمرِّر أناملها فوق جفنَيْه. تلمس عنقه عَرَضًا. ما زال رأسه دافئًا. تصرخ إيڤا:

"لِمَ أَطلَقتَ النَّارَ عليه؟ كان أمرًا يَخُصُّنا!".

يدفن أندريس جُثَّة أكسيلز في الرمال الصفراء، ولا يقول شيئًا.

"كان من المفترض أن تسير الأمور بشكل مختلف. لقد أفسَدتَ كُلَّ شيء! الآن وحده الله يعلم!".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يظلُّ أندريس صامتًا.

"لم أُرِد أن تسير الأمور هكذا"- تغرس إيڤا أظافرها في الأرض الباردة في هلع.

"اخرُجْ يا أكسيلز، كان هذا كله خطأً!".

في تلك اللحظة، يظنُّ أندريس أن إيڤا قد فقَدَت عقلها. تتكسَّر أظافرها الهَشَّةُ بسرعة، وتنفجر أناملها بالحُمرَة من التربة الصخرية. يحملها أندريس من أسفل ذراعيها ويشدُّها بعيدًا عن قبر أكسيلز. تركل وتُنشِبُ أصابعها في الأرض.

في تلك اللحظة، لم تكن إيڤا فقَدَت عقلها. كان عقلها أصفى من أي وقت مضى. هي فقط تظنُّ أن ما حدث في الحقل الثلجي كذبة. أنها مجرَّد لعبة، وأن أكسيلز يختبئ في مكانٍ ما ويضحك ساخرًا، غامِزًا بعينه اليسرى كعادته.

تكفُّ إيڤا عن المُقاوَمَة بين ذراعَيْ أندريس. تستجمع كل جدِّيَّتها، وبوَهَنٍ، تنادي في اتجاه القبر:

"هَلُمَّ يا أكسيلز! يكفي هذا!".

لا يحدث شيء. يُنزل أندريس إيڤا إلى الأرض.

الأرض مفتوحة على وسعها.

تجري إيڤا تجاه البندقية، تلتقطها، وتصوِّب على أندريس:

"اذهب بعيدًا من هنا بحق الجحيم، بعيدًا جدًّا"- تقول له.

"أوه، بِربِّكِ"- يقول أندريس بفتور.

يستدير ليغادر، لكنه يتذكَّر بندقيَّتَه، ويأخذها من إيڤا دون كلمة أخرى.

"لم أُحِبَّكَ أبدًا، أبدًا!"- تصرخ.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

بعدها، يغادر حقًّا. يركب سيارته ويقود مبتعدًا. يدور الهواء الدافئ فوق سقف السيارة، لكن السيارة نفسها ليست سوى جسمٍ بُنِّيٍّ داكن، سرعان ما يذوب في الفوضى العارمة في أشجار الصنوبر والجليد الساطع.

تعود إيڤا للمنزل، وبين الحين والآخر، تلتفت كما لو لتعلِّم نقطةً غيرَ مَرئيَّةٍ في خريطةٍ سيتعَيَّن عليها أن تتذكَّرها لبقية حياتها.

بمجرَّد أن تدخل، يغمرها حُزنٌ حادٌّ حتى يكاد يخترق جلدها. انظري؟ إنها السِّكِّين التي لمسها أكسيلز أمس، ورغيف الخبز. انظري؟ إنها الستائر التي عُلِّقَت في ذلك الصيف حين كانت تعيش هنا مع أكسيلز. حرارة بدرِ الصَّيف التي لا تريد التفكير فيها. أصياف كتلك عادة ما تحمل شيئًا ما يدمِّر السعادة -شِجار، اكتئاب، أو تجاهلٌ- لكن كل ذكرى من ذلك الوقت الذي أمضياه معًا تبدو سعيدة.

سيظلُّ قَبرُه مرئيًّا من نافذة المطبخ.

لن يستطيع أندريس بيع البيت للغرباء أبدًا.

تترك إيڤا البيت قليلًا، تترك الحزن الثقيل وراءها.

تأخذ قلم رصاص وتمزِّق صفحةً من مُفكِّرَتِها وتجلس جوار قبر أكسيلز. يُزبِدُ ضوء الشمس على الحجارة الملساء. برودة تخيِّم على السطح الجليدي الأبيض. الأرض، رطبة وغنيَّة. تكتب إيڤا قصيدة في ذكرى أكسيلز. بالروسية؛ لسببٍ ما. في القصيدة أبياتٌ عن أن كل الزوايا هنا قائمة، ولكنك ملتوٍ في شكل دائرة.

تكتب وتشعر بالحماقة. انظروا، هنا يرقد أكسيلز. قُتِلَ رميًا بالرصاص. هنا. وهي تكتب قصيدة.

أكسيلز، سامحني!

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

لكنها لا تستطيع أن تفهم وجود أكسيلز نفسه بدون القصيدة، ما كان يعنيه للعالم. وإيڤا الآن مكشوفة كسطح التُّربة في يناير. إيڤا قطعة لحم نيِّئة. لا تحتاج حتى أن تكتبها، تنسكب القصيدة منها.

لا معنى للكلمات تقريبًا. معنى أكسيلز ليس في الكلمات، ليس في المحتوى. تحسُّ إيڤا بوجود أكسيلز في الحركة، في التيار الذي بدأ جريانه بموته، الذي يفيض عبر الأجساد. إحساس تلك الحركة يبدو كما لو يمحو كل لحظة خيانة وضعف في الحياة الواقعية.

قصيدة غبية. عزاء الضُّعَفاء. بلا جدوى.

عليها أن تستمر في الحياة بشكل ما. يهوذا الخائن.

أكسيلز، سامِحْني!

تدخل فَرَسٌ ومُهرُها إلى المرج، غير بعيد عنها. يقف الحيوانان عند السياج الشائك. تشاهد إيڤا الفرس وهي تُرضِع. فرسٌ ضخمة، يكسو قوائِمَها شَعرٌ طويل. مُهرُها أيضًا، قويٌّ عفيٌّ، ظهره العريض صينية تحمل بقايا القَشِّ وأطراف أغصان التَّنُّوب. تسير إيڤا نحو المُهر. يأتي إليها ويقضم كلَّ مكان يطاله منها، كما ليفعل أي مُهرٍ نشيط.

تدفعه بعيدًا.

"أنتَ تعضُّ!".

يغضب المهر ويقضمها أكثر، يصبح على إيڤا الابتعاد عنه. لا شفتان مخمليَّتان، ولا عينان ناعستان بلون البنفسج. يقضمها المهر كالمجانين، ممتلئًا لحافَّته بحياةٍ حاقدة، ممتلئ بدماء تغلي حتى يكاد ينفجر.

أشياء لن يراها أكسيلز ثانية أبدًا.

في الليل، تستيقظ إيڤا على صوت حركة خفيفة في الأفق. كما لو تَعَثَّر جناحُ مَلاكٍ حارسٍ فوق كتفها في العتمة السوداء.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

ترفع رأسها وتستمع إلى الليل.

صمت.

ولكن من الصمت- صافرة. وأضواء ساطعة في النافذة.

تضع ملابسها عليها، وتسحب حذاءها وتهبط الدَّرَجَ مُسرِعَةً، تتعثَّر في رباطها وتكاد تهوي برأسها على السلالم الأسمنتية.

النهار يكاد يشرق في ضباب شتوي. ترى أضواء سيارة خافتة، وخيالات مظلمة منحنية. تركض إلى دائرة الضوء. نُبِشَ قَبرُ أكسيلز. أحد رجال الشرطة يُدخِّن، والآخر يفكُّ وشاحها الأحمر ليكشف وجه أكسيلز. يجلس أندريس مَحنيًّا على صخرة، ممسكًا بجاروف.

تلتقي عيناها بعينيه في وهج الضوء الأصفر فتشرع في البكاء فورًا. كما لو أن أحدًا ضربها على ظهرها، وركلها على ركبتيها، وجذبها من شعرها وأمر- ابْكِ!

جملة واحدة فقط تدور في ذهنها: ماذا تفعل يا أندريس! لقد عاد! حفر قبر أكسيلز واعترف للشرطة!

يسجِّل أحدُ رجال الشرطة اسمَ إيڤا بالكامل وعنوانها.

"قَتَلَ زَوجُكِ حَبيبَكِ بدافع الغيرة. سنحتاج لاستجوابك. اركبي السيارة".

تعجز إيڤا عن الكلام. تشعر بتلك القوة الغاشمة التي تحشر حياتَكَ فجأةً في دُرجٍ، أو حافظة، أو نظام، أو ملفٍّ- تلك التي تتدفَّق دومًا من استبيانات الرأي، والنماذج، وأجهزة الإرسال، والقوانين البالية التي يُدَقُّ بها دماغُكَ في غرفةٍ سَيِّئةِ الإضاءة. تتدفَّق من هؤلاء الموظَّفين؛ الليل والزيُّ الرَّسميُّ يُحَوِّلانهم لعمالِقَةٍ من مادَّةٍ أخرى، أكثر نُبلًا.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يدفعونها لسيارة تفوح بدخان السجائر. يُغلَقُ الباب بقوَّةٍ وتتراقص الأضواء العلويَّة على تلال الثلج والطريق الذائب. تستمرُّ في البكاء من أجل أندريس الذي ما زال مع الشرطيَّيْن الآخَرَيْن بانتظار الطبيب الشرعي. ينظر الشرطي الذي يقود السيارة إليها نظرة عطف، ويلتقط زجاجة براندي مفتوحة من تحت المقعد.

"خُذي- وَصفَة مُجَرَّبة من زمان"- يقول. "لم يَعُد هناك ما يُمكِنُكِ فِعلُه".

بمجرَّد الانتهاء من استجوابها، تُعاد إيڤا لبيت الزاري ويُطلَق سراحها- كحيوانٍ بَرِّيٍّ صغير مُستَأنَس عليه الآن أن يتعلَّم أن يحيا بمفرده في الغابات. ليست لديها طاقة للعودة إلى ريجا. وهذا جيِّد؛ لأنهم -لا تعلم إيڤا لماذا- يعيدون جثة أكسيلز في الليلة التالية. لا يقول أحدٌ شيئًا عن المشرحة، لا يُلَمِّحون لها حتى. ربما لأن الجو شتاء وإيڤا مُعدَمَة؟

أكسيلز مُسجًّى على نَقّالة. تجعلهم إيڤا يحملونه عبر المطبخ الدافئ، حيث كانت تنام على السرير القابل للطَّيِّ، ويضعونه بجوار النافذة المفتوحة على مصراعيها في الغرفة القَصِيَّة في الطابق الثاني.

يقول الناس إنهم يخافون الموتى. الموت لا يخطر حتى ببال إيڤا. إنه أكسيلز حبيبها! جميلٌ وشاحِبٌ للغاية. من آنٍ لآخر تحتضن رأسه. تيبَّس فَكُّه في تعبيرٍ عَنيد. الجفنان رقيقان كالحرير، متجمِّدان على حدقتيه. الوبر على وجهه وشعر رأسه مستمرٌّ في النمو. تَمَوضَعَت يداه بطريقةٍ سَخيفَةٍ، ما كان أكسيلز ليضعهما هكذا أبدًا! تكتشف إيڤا أن سبَّابَتَيْه مربوطتان بخيط سِنَّارة. تقطعه إيڤا بحرص لاقتناعها أنه يؤلمه.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

لقد أخذوا عَيِّنة. قُصَّت مُقدِّمة سُترَتِه ثم خِيطت بخيطٍ جراحيٍّ. أكسيلز مُسطَّح كلَوحٍ- لا بُدَّ أنهم استغرقوا وقتًا طويلًا. ترجو إيڤا أن يكونوا تركوا قلبه كما هو.

تمضي كلَّ ليلة مع أكسيلز. تلمس خدَّيْه، تشعل شمعة وجَدَتها في درج المطبخ. تشرب البراندي مركَّزًا، تسحبه إلى داخلها كالنار.

هناك بَدرٌ. يضيء وجهه الأبيض فوق أكسيلز. بالنهار هناك شمس. تحوم بضع ذبابات حول أكسيلز في ضوء النهار. لكن ذباب يناير مسطولٌ للغاية، حتى إنه لا يفكِّر حتى في التهامه. فقط يستجمُّ فوقه في الشمس الدافئة.

تأتي نانا، تجلس في المطبخ وتبكي، وتُجبِر إيڤا على أن تأكُلَ شيئًا.

يقود والد أندريس سيارته إلى هناك ويصفع إيڤا ويدعوها بالعاهِرَة التي دَمَّرَت ابنَه الوحيد. والدة أندريس ونانا تطهوان معًا ويمتلئ المطبخ بالبخار والنَّحيب. يشرب والد أندريس براندي إيڤا.

لاحقًا في تلك الليلة، يخرج الجميع بحثًا عن إيڤا ويجدونها مُستَلقِيَةً بجوار أكسيلز، وعيناها مُشرِقَتان على نحوٍ غريب. إنها محمومة.

في اليوم التالي تصل لوتسيا- كعادتها حين تحتاج إيڤا لمن ينقذها بحَقٍّ. أحضرت معها مونتا. تغمر مونتا أُمَّها بالقبلات، وتصعد إلى السرير بجوار أكسيلز، وتَخِزُ خدَّيْه بأصبعها، ثم تتراجع على الفور وتشرع في البكاء.

"لماذا أوسيلا بارد جدًّا؟".

تقول لوتسيا:

"لِمَ تحتفظين به هنا؟ هل فَقَدتِ عَقلَكِ؟".

تجيب إيڤا في دفاعية:

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"لقد أحضروه إلى هنا".

لا شيء هنا كما كان يجب أن يكون. هذه الفوضى، هذه الجَلَبَة، إنها سخيفة. أراد أكسيلز أن يرقد في سلام. والوضع الآن عكس ما أراده تمامًا.

يؤخذ أكسيلز إلى المشرحة، وتؤخذ إيڤا إلى المستشفى، قضمة صقيع في أصابع قدميها. بعد يومين، هناك جِنازَةٌ جميلة في القصر القديم. يُدفَنُ أكسيلز في مقبرة البلدة، جوار أُمِّه، ستاسي.

النحيب بحرٌ غير ملموس. حين تضرب موجةٌ، تبكي إيڤا. ليس فعلًا إراديًّا- ليس كذلك بحال. كما لو كانت تقف في الماء بجُرحٍ واسع مفتوح، قُرحَة. حين تصدمها موجَةٌ، تحمل معها المِلحَ، وتُؤلِمُها، فتأتي الدموع. من السهل أن تبكي وهي تنظِّف الأرضية. حينها تكون إيڤا منحنية، فتسقط دموعها إلى الأرض مباشرة، بدلًا من جيوبها الأنفية أو حلقها أو أي مكان آخر. تَثقُلُ دموعُها هناك تمامًا، على رموشها، وتتساقط. تمسح إيڤا الأرض بهم.

تعمل إيڤا كعالَمٍ في غوَّاصةٍ من الدموع، تُنفِّذ كُلَّ الوظائف الضرورية للبقاء بطريقة تقريريَّة: تأكل، تنام، تتبوَّل. يراقبها أكسيلز من كل مكان. تشعر إيڤا بالحرج.

من وقتها فصاعدًا، تبدأ إيڤا كلَّ وجبَةٍ بأن تمنح القضمة الأولى لأكسيلز صامِتةً. تأكلها وهي داخل أكسيلز. إيڤا نفسها هي أكسيلز.

أكسيلز هو البدر أيضًا. حين يقف صامتًا وكبيرًا فوق الأرض، يكون أكسيلز هناك. في الرابعة صباحًا من كل ليلة بدر. قبل موته، كان الصمت صمتًا. بعده، أمسى الصَّمتُ مغزولًا بالأفكار. لو أرهَفَت السَّمعَ، يمكن لإيڤا أن تحسَّ بأكسيلز وهو يفكِّر هناك في الصمت. تستلقي في السرير، تخاف أن تتحرَّك، وتشارك في أفكاره. ليس لها

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

شـكلٌ أو اتِّجـاهٌ مُعـيَّن؛ أكسـيلز، يتدفَّـق في ضـوء القمـر، يفكِّـر في كل اتجـاه، بـذكاء، وبـألم.

ذباب الرَّوث -الكبير السَّمين النشيط- هكذا تبدو الحياة الحقيقية!

لا يمكنـك الاحتفـاظ بـأي شيء مُقـدَّس إلَّا في صـورة تجريديـة. بـأن تضعـه في حُجـرَةِ قَلبِـكَ اليُـسرَى. أي أيقونـة توضـع في إطـار الحيـاة سـتبدو مُجدِّفَـة، رغـم أن التجديـف ليـس في الواقـع سـوى الحيـاة نفسـها. حـين تبـكي، لا بُـدَّ أن شـخصًا مـا في مـكانٍ مـا يضحـك. هكـذا تسـير الأمـور ولا يمكنـك فعـل أي شيء حيـال ذلـك. باسـتثناء الاحتفـاظ بجثَّـة أكسـيلز الهامـدة العاجـزة في ذاكرتـك.

العجـز. هـذا هـو الأمـر الثـاني الـذي لا تسـتطيع إيفـا أن تَكـفَّ عـن التفكـير فيـه. عجـز الطفـل، عجـز الحيـوان، عجـز المريـض، عجـز المُسِـنِّ في مواجهـة عقـلٍ ذكيٍّ واسِـعِ الحيلـة. في مواجهـة القـوة. ربمـا هنـاك يختبـئ كُلُّ الإيمـان والأمـل والثقـة؟

إلى أيِّ يَدٍ ستنتهي حين تصبح عاجزًا؟

مـن وقتهـا فصاعـدًا ينقسـم الزمـن إلى مـا قبـل مـوت أكسـيلز ومـا بعـده. رسـائل نصِّيَّـة اسـتُقبِلَت قبـل، ورسـائل نصِّيَّـة اسـتُقبِلَت بَعـدُ. التاريـخ عـلى غـلافِ رَغيـف الخُبـزِ الجـافِّ قبـلُ، وترتجـف إيفـا قبـل حتـى أن تقـرأه، قبـل حتـى أن تعـرف مـا هـذا الـذي قرَأَتـه.

ومـا الـذي في اسـتطاعتها فِعلُـه وقـد أصبحـت الآن وحيـدةً بـدون أكسـيلز؟ أن تتمنَّـى أنهـا يومًـا مـا، سـيغلبها ذلـك الـوادي الكئيـب الـذي رحـل إليـه أكسـيلز، كطائـرٍ بجنـاحٍ مكسـور؟ كانـت إيفـا تعلـم كيـف يمكنهـا أن تمـوت هنـاك وآنـذاك، لكنهـا لم تَكُـن متأكِّـدةً أنهـا سـتموت في نفـس المـكان الـذي مـات فيـه أكسـيلز. تبحـث إيفـا عـن إنجيـل نانـا- يُفـتَرَضُ أنـه الكتـاب المناسـب للأوقـات التـي يفـرِّق فيهـا القَـدَرُ بـين اثنـين، ويصبحـان في حاجـةٍ للعثـور عـلى طريـق عودتهـما لبعضهـما. كانـت طبعـةً

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

قديمـةً مـن الإنجيـل، ولم يَـشرَح في أيِّ مَوضـعٍ كيـف تمـوت مـع شـخص آخـر.

ذهبـت إيڤـا إلى الكنيسـة. توالـت القداديـس، تحـدَّث القَـسُّ عـن الأغنيـاء والفقـراء، وعـن هـؤلاء الذيـن لا يدخلـون الجَنَّـة حتـى يَلِـجَ الجَمَـلُ في سَـمِّ الخِيـاط. تـاب الجميـع عـن خطاياهـم معًـا، وسـامَحَهم القَـسُّ باسـم الـرَّبِّ، وأطعـم الجوعـى في صَفَّـيْن مـن جسـد المسـيح ودَمِـه. ابتلعـت إيڤـا كلَّ ذلـك وآمَنَـت، لكنهـا عـلى كل الألم في غنائهـا، عـلى كل بكائهـا، وصلاتهـا، وتناوُلِهـا، لم تـرَ أكسـيلز في أي مـكان هنـاك. غـادَرَت بينـما القَـسُّ يطحـن آخـر عباراتـه عـن المسـيح، الـذي يُحبُّـه القَـسُّ كـما هـو واضـح. مـاذا كان المسـيح بالنسـبة لإيڤـا حـين أحبَّـت أكسـيلز؟

لم يكن أكسيلز موجودًا.

بحَثَـت إيڤـا في الغابـة أيضًـا. في الأشـجار. في السـماء. لم يكـن أكسـيلز هنـاك.

لم يكن في المقبرة أيضًا.

لم يكن في أي مكان.

لم يكـن موجـودًا إلا بقَـدرِ مـا كان موجـودًا في جسـده المُسـجَّى في تلـك الليـالي القليلـة جـوار إيڤـا، تـامَّ المـوت والـبرودة والجـمال. وبقـدر مـا كان موجـودًا حـين ظهـرت روحـه في الرابعـة صباحًـا في ليلـة البـدر، كفِكـرَةٍ سـابِحَةٍ في الغرفـة.

وحتى هذا ربما لم يكن حقيقيًّا.

فَهِمَت إيڤا الموت فجأة.

فَهِمَت- ببساطةٍ لن يكون هناك أيُّ شيء آخر.

لن يحظى العالم بشخص كذلك أبدًا.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

بشكلٍ ما، كان عليها الاستمرار في الحياة. كانت قرأت قصصًا عن بوذا الذي -حين رأى جُثَّته الأولى- لم يَعُد قادرًا على الاستمرار في الحياة وجلس تحت شجرة، حيث وجد الإلهام لتخفيف المعاناة. لم تجد إيقا إلهامًا. أحرَقَت بعض أغراض أكسيلز، وضَعَت صُوَرَه ووثائِقَه في أظرُف، ولم تعرف أيَّ ظَرفٍ يحمل معنى الحياة. سبب الوجود.

انفرط عِقدُ المادَّة. استمرَّت إيقا في الوجود بجسدها، لكن فقط كي لا تُترك مونتا وحيدة.

وبين الحين والآخر، كانت تحكي لابنتها حكايةً صغيرة عن وقتٍ كان أوسيلا لا يزال موجودًا معهم.

احكِ أحلامَكَ لشخصٍ ما.

دومًا، قَطْعًا، احْكِ الأحلام التي تراها لشخصٍ ما. بمجرَّد أن تُعرِّي الحُلمَ بالكلمات؛ ستكتشف معناه.

اشرَحْ الحُلمَ بأكثر الكلمات إيجازًا.

بمجرد أن تُعَرِّي الحُلمَ بالكلمات؛ سترى الضَّلالات في الكلمات.

اشرَحْ الحُلمَ بأكثر الكلمات بساطة.

كُنْ مُنتَبِهًا.

تمرُّ بِضعُ سنواتٍ، ثم ذات يوم، تُهاتِفُها أمُّ أندريس:

"عزيزتي، لو كنتِ تُقدِّسين أيَّ شيء في الحياة، اذهبي لزيارة أندريس في السِّجن".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

التّسعينات

ريجا

في البدايـة، تقيـم إيڤـا وأكسـليز ومونتـا مـع والِـدَيْ إيڤـا في شـقَّتِهم المؤلَّفـة مـن حُجرَتَـيْن في مبنـى مـن حقبـة خروتشـوف في ضواحـي ريجـا. شـقيق إيڤـا، باڤيلـس، يـدرس في أمريـكا، وغرفتـه فارغـة. "إنهـا غرفـة جميلـة، في الجانـب المُشـمِس!"- تقـول إيڤـا بفَرحَـةٍ حقيقيَّـة وهـي تفـترش الأرض وسـط الفـوضى، تشـاهد انعـكاس الشـمس عـلى سـطح المبنـى المقابـل ذي اللـون الشـبيه بالصـدأ. الغـرف أصغـر كثـيرًا مـن أن تتَّسِـع لثـلاث أَسِرَّة. تنـام مونتـا بـين أكسـيلز وإيڤـا. عـادةً مـا تتقلَّـب وهـي نائمـة، ويصبـح عـلى إيڤـا وأكسـيلز أن يُحارِبَـا كي لا يُلقَيَـا مـن عـلى السريـر.

أثنـاء النهـار، يبحـث أكسـيلز وإيڤـا عـن عمـل. تجالـس لوتسـيا -أم إيڤـا- مونتـا لأنهـا أصغـر مـن أن تُرسَـل للحضانـة. والـد إيڤـا -باولـس- مـا زال موظَّفًـا حكوميًّـا برغـم تَبـدُّل الأحـوال. كل صبـاح في الثلاثـين سـنة الماضيـة كان يقـف أمـام المـرآة ويعقـد ربـاط عُنُقِـه، ثـم يأخـذ حقيبتـه

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

ويتَّجِـه إلى العمـل. لم يكـن أبـدًا عضـوًا في رابطـة الشـباب الشـيوعي ولا كان عضـوًا في الحـزب الشـيوعي، وتُعَـدُّ تلـك مَيـزَة هائلـة هـذه الأيـام؛ ربَّما لأن أعضـاء الحـزب الشـيوعي الذيـن سرعـان مـا بدَّلـوا مواقفهـم صـاروا الآن رؤسـاء باولـس. المجتهـد يظـلُّ مجتهـدًا أينـما كان. لم يَنْحَـزْ باولـس ولوتسـيا لأي جانـب أبـدًا، إلَّا لـو حسـبتَ المـرَّة التـي أحـرق فيهـا باولـس جـواز سَـفَرِه السـوڤييتي عنـد نصـب الحُرِّيَّـة خـلال بيـان الصَّحـوَة. بعـد ذلـك، ذهبـت إيڤـا مـع والدهـا للتَّصويـت في أوَّل انتخابـات في لاتڤيـا المسـتقلَّة حديثًـا. لم يسـمح الموظفـون لباولـس بالتصويـت، لم يكـن لديـه جـواز سـفر. أحرقتـه عنـد نصـب الحريـة! صـاح، لكنهـم لم يسـمحوا لـه بالتصويـت رغـم ذلـك.

"الموظف دومًا على حقٍّ"- ضحك لاحقًا على حظِّه السيِّئ.

سأضع حلمًا عن أرض آبائي تحت وسادتي،

سألقاها مُجدَّدًا ذات يوم، وأكون سعيدًا،

وأنام هانئًا كطفل بين ذراعَيْ أمِّه-

حتى في معاناة الموت.

هـذه القصيـدة ليانسـودرابيتش، "إلى المُرَحَّلـين"، مكتوبـة دومًـا في الصفحـة الأولى مـن مُفكِّـرَة باولـس اليوميـة. لطالمـا حلـم بلاتڤيـا حـرَّة. كان مُضلَّـلًا بشـدَّة في سِـنٍّ مُبكِّـرة- ترحيـل أَحِبَّتِـه ومعانـاة الفيالـق.

ككلِّ طفـلٍ شـبَّ في وقـت الحـرب، الأمـان هـو الـشيء الأهـم لباولـس. لا يسـعى للمواجهـة، لا يُغـيِّر قراراتـه، حريـص في أمـوره المادِّيَّـة، ولديـه دومًـا قليـل مـن المـال مُخصَّـص لمـصروف إيڤـا.

"لكـن بالمعقـول! هنـاك عـدَّاؤو المسـافات القصـيرة، وهنـاك عـدَّاؤو الماراثـون"- كان يقـول. "السُّرعـة هـي نهايـة عـدَّاء الماراثـون".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

باولس عَدَّاء ماراثون، لكنَّه مُبهِجٌ حقًّا. تظنُّ إيڤا أنه كان ليصبح ممثِّلًا رائعًا لو أراد. لكن حتى المُمثِّلون يتجاوزون الخطوط الحمراء من آنٍ لآخر، وهو أمرٌ لا يستطيع باولس أن يفعله إلا في أحلامه.

حتى المسرح يخبو ألَقُه إذا ما قُورِنَ بالشوارع. الناس لا يذهبون إلى المسرح- ما يحدث في الشوارع أكثر إثارة. تأسيس البنوك والأحزاب والحكومات وانهيارها. موظَّفو الحكومة يُقطَفون كأعواد القَصَبِ بِيَد عواصفَ عاتِيَةٍ من القوى السياسة. في ليالٍ كثيرة، يعود باولس من العمل منسحبًا تمامًا ويجلس في المطبخ الصغير مُفرِغًا زجاجة نصف لتر من البراندي في جوفه.

"كي لا أُصابَ بأزمة قلبيَّة!"- يشرح. "اليوم كان عليَّ أن أشرح مُجدَّدًا للوزير الجديد لِمَ تَسبَّب سابِقُه في كُلِّ تلك الفوضى".

أكسيلز يحالفه الحَظُّ فيحظى بوظيفة نجَّارٍ في أكاديمية الموسيقى. عمل سهل. تذهب إيڤا لزيارته أحيانًا في قبو الأكاديمية؛ لممارسة الحب؛ إذ لا يستطيعان فِعلَ ذلك في البيت. يضعان بطانية على الأرض. الخزائن الداكنة دافئة، ورائحة الغِراء، وأصوات طُلَّاب الأكاديمية في تمارينهم الليلية تملأ الغروب.

إيڤا ليست محظوظةً مثله في العثور على عمل. تبحث بدأبٍ في إعلانات الوظائف في كل جريدة مُمكِنَة. في الغالب، يبحث الناس عن سكرتيراتٍ: شابَّاتٍ، أنهين المدرسة الثانوية، لاتڤيَّة وروسيَّة جيِّدتان، ومهارات الكمبيوتر. ستُعدُّ الإنجليزية ميزة إضافية. إيڤا شابَّة، ولديها التعليم المطلوب، وتفهم حتى بعض الإنجليزية، لكنها لم ترَ كمبيوتر في حياتها قطُّ.

ذات ليلة يقول باولس:

"لا مشكلة! تعالي لرؤيتي في العمل غدًا!".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

في اليـوم التـالي، تصعـد إيڤـا سـلالم وزارة الماليـة المهولـة وتشـاهد الشـابَّات يتَبَخْـتَرْن بثِقَـةٍ في الأروقـة المفروشـة بالقطيفـة. هكـذا يجـب عـلى السـكرتيرة في العاصمـة أن تبـدو: شـعرٌ أشـقرُ طويـلٌ، قـلادة ذهبيـة رفيعـة، وبدلـة شـديدة النظافـة.

يُجلِسُـها والدهـا عـلى مكتبـه. همـم، تفكِّـر إيڤـا، لهـذا إذًا يحـبُّ عملـه- لا يطـرح مكتـب البلُّـوط الـذي يبلـغ مـن العمـر قرونًـا أيَّـةَ أسـئلة ويحتضنـك وراءه، حيـث رائحـة خفيفـة للـورق الدافـئ وشـمع الأختـام.

"انظـري"- يقـول والدهـا. "هـذه تُسـمَّى الفـأرة. وهـذه هـي الشاشـة. ألم تكـن لديـك حصـصُ كمبيوتـر في المدرسـة حقًّـا؟".

بالفعـل كانـت لديهـا حصـصٌ مـن هـذا النـوع، حيـث كان المُعلِّـم يجلـس وشـاربه الطويـل المُتهـدِّل يتـدلَّى فـوق مكتبـه، ويجعلهـم يملـؤون دفاتـرَ بالكتابـة عـن أساسـيَّات البَرمَجَـة، ويُريهـم صـورًا فوتوغرافيـة، وذات مـرة، أخذهـم في رحلـة خاصـة إلى غرفـة المُعلِّمين، حيـث يجلـس الكمبيوتر الوحيـد في المدرسـة تحـت غطـاء في خزانـة مُغلَقَـة. جنـدلٌ حقيقـيٌّ. عـلى الأقـل هـذا مـا قالـه زملاؤهـا؛ غابـت إيڤـا في ذلـك اليـوم. كانـت مريضـةً.

الآن تضـع يدهـا عـلى الفـأرة وتُحرِّكهـا عـلى سـطح المكتـب. وتنعكـس حركـة يديهـا عـلى الشاشـة في حركـة سـهم أبيـض. الأمـر مُعقَّـد، لكنَّـه في الوقـت نفسـه بسـيطٌ للغايـة. شيءٌ في عقـل إيڤـا ماهِـرٌ في ربـط يدهـا بالشاشـة. يُعلِّمهـا والدُهـا كيـف تفتـح الكمبيوتـر وتغلقـه، وكيـف تفتـح ملـف "Word" جديـد، وتعـود إيڤـا للبيـت في مـزاج جيـد. لم يبـقَ سـوى أن تحصـل عـلى بدلـة، وسـتصبح سـكرتيرة!

لكن الأمر ليس بهذه السهولة.

أول وظيفـة تحصـل عليهـا إيڤـا كانـت في نـادٍ للسـيارات يملكـه تـوأمٌ أرمنـيٌّ. إيڤـا مجتهـدة، تكتـب البيانـات الصحفيـة، وتتـولَّى أمـر الإعلانـات للراديـو والتليفزيـون، وتسـتخرج بطاقـات العضويـة. إلى أن يَحـدُثَ ذات

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

ليلـة حـين تبقـى لتتـدرَّب عـلى الكمبيوتـر أن تلاحـظ بعـض الأكاذيـب الواضحـة. يُعلـن نـادي السـيارات أن لديـه أَلفَـيْ عضـو، لكـن يمكنهـا أن تـرى عـلى الكمبيوتـر: ليسـوا سـوى بضـع مئـات! في اليـوم التـالي تخـبر أولجـا، مديـرة المكتـب، امـرأة روسـية مُتحفِّظـة، بأظافـر طويلـة، حمـراء ومصقولـة. لا بُـدَّ أنـه خطـأ مـا، تقـول أولجـا. في اليـوم التـالي، يَرفِـتُ الأرمنيَّـان إيڤـا.

الآن وقـد صـارت أذكى قليـلًا، تُجـرِّب إيڤـا وظيفـة في شركـة مقـاولات. المديـر، عجـوز ممتلـئ صغـير البنيـة، لا يفـوِّت فرصـة لقـرص مؤخِّرَتهـا. لفـترة، تتظاهـر إيڤـا بأنهـا لا تلاحـظ، لكنهـا ذات صبـاح، حـين يسـتأذنها في أن يقـرأ بعـض القصائـد التـي كتبهـا لهـا، تفقـد السـيطرة وتضحـك ضحـكًا هسـتيريًّا.

وتظهـر التداعيـات سريعًـا بعدهـا. يسـتضيف المكتـبُ أمسـيةً للـشُّرَكاء- تمـلأ إيڤـا أطبـاق الفاكهـة، وتـضيء الشـموع، وتشـعل النـار في المدفـأة. إن أرادت السـكرتيرة أن تحصـل عـلى راتبهـا في موعـده؛ فعليهـا أن تقـوم بمـا هـو أكـثر مـن العمـل عـلى الكمبيوتـر والتحـدُّث بالإنجليزيـة! يسـتدعي المديـر إيڤـا للغرفـة في حضـور الجميـع، ويعـرض عليهـا كأسًـا مـن الكونيـاك.

"لكنَّكَ تعلم أنني لا أشرب"- تقول إيڤا.

وفي اللحظة التالية، يرمي المدير كأس الكونياك في وجهها.

تجُـرِّب إيڤـا أن تضـع إعلانًـا: أبحـث عـن وظيفـة سـكرتارية. في اليـوم التـالي، يـدقُّ الهاتـف في شـقَّة إيجليتيـه دون توقُّـفٍ بمكالمـات مـن قَوَّادين. يزفـر صـوت أجـشُّ في التليفـون:

"هل أنت مُهتَمَّة بالعمل عبر الهاتف؟".

"ما طبيعة العمل؟" تسأل إيڤا قبل أن تفهم ما يحدث.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"الكلام على التليفون بطريقة مُعيَّنة، أتفهمين؟".

تفهم إيڤا وتنزع سلك التليفون من الحائط. لم يكن هناك جِنسٌ في الاتحاد السوڤيتي. الآن، تعجُّ المدينة بما يُدعى "نوادي المرافقة"- تنمو كالفِطر بعد المطر. الجنس عبر الهاتف، في الساونا، المرافقات، رقص التَّعرِّي، التدليك. ذات مرة، في الميدان المقابل لدار الأوبرا الوطنية، اقترب منها رَجلٌ ببُقعَةِ مُخاطٍ بائسة تتدلَّى من طرف أنفه وقال:

"أتريدين أن تصبحي عارِضةً؟ لديك بِنيَةٌ رائعة وساقان طويلتان".

تسأم إيڤا، لكنها لا تفقد الأمل. الجميع في هذه المدينة المجنونة بحاجة إلى عمل- لكن أيعني هذا أنها لن تجد واحدًا؟ تموج ريجا كمدخل خليَّة نَحلٍ في الربيع، وتجذب إيڤا معها: شابَّة، ينطلق شَعرُها مع الريح. يجلب كلَّ صباحٍ معه الأملَ، لكن كل ليلة تجلب معها هزيمة سوداء.

تتقدَّم لوظيفة في وكالة إعلانات. يحتاجون وكلاء إعلانات لناشر أكبر مجلَّة مُصوَّرة. المدير الذي يُجري المُقابَلَة معها من الطراز الرشيق الملتحي، يرتدي سترة كاروهات، ويغفو في خمول في أشعة الشمس الواقعة على المكتب الكبير. تقول إيڤا بصراحة:

"وظِّفني. لقد انتهيتُ من كوني السكرتيرة التي يُلقى بالكونياك في وجهها".

يفتح المدير عينيه، يبتسم، ويرسم علامة "صح" جوار اسم إيڤا.

تذهب إلى التدريب، حيث تستمع هي وزملائها من المبتدئين بينما يشرح وكيل إعلانات مُخَضرَم ذو خبرة قواعِدَ اللُّعبَة، ويعطيهم بعض النصائح السرية: كيف يتعاملون مع ضحاياهم، كيف يكتسحون الطاولة ويسرقون لهم مكانًا. البجاحة، والتحايُل والإلحاح- أشياء يكاد يطعمها بملعقة للمجموعة الصامتة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

ثـم يُطلقـون إلى العـالم بعقـود في يديهـم. مرتباتهـم مُعتَمَـدَة عـلى أسـعار الصفقـات التـي يوقعونهـا.

تنتهـي إيڤـا أول مـا تنتهـي إلى مكتـب لصفقـات السـيارات. تحتـوي غرفـة الاسـتقبال التـي يطلـب منهـا الانتظـار فيهـا عـلى طاولـة، وكـرسي، وحائـط مـن الزجـاج الداكـن. تجلـس إيڤـا عـلى الكـرسي وتفكِّـر- في لا شيء. تمـرُّ الدقائـق؛ نصـف السـاعة المُخصَّصـة لهـا بـدأت وانتهـت بالفعـل. تسـمع موسـيقى هادئـة آتيـة مـن وراء البـاب. تتذكَّـر إيڤـا أنهـا كادت تقطـع زوج جواربهـا الوحيـد هـذا الصبـاح. هـل هنـاك خَـطٌّ مقطـوعٌ فيهـما الآن؟ تقـف، تتفقَّـد جواربهـا النايلـون، وبِحـرصٍ تُهَنـدِمُ تنُّورتهـا وتجذبهـا لتغطِّـي وَرِكَيْهـا مـرَّةً أخـرى.

أخـيرًا تُسـتدعى. تدخـل إيڤـا إلى الغرفـة المجـاورة، ويبـدو الأمـر كـما لو أن هنـاك حفلـة صغـيرة. طاولـة حجريَّـة صغـيرة مُغطَّـاة بأطبـاق الفاكهـة والزُّجاجـات. هنـاك موسـيقى، وعـدَّة رجـال في بِـزَّات يجلسـون عـلى أريكـة مـن الجِلـد.

يسألها أحدهم:

"ما الذي كنتِ تريدين إخبارنا به إذا؟".

كلُّهـم يبتسـمون لهـا. تسـتدير إيڤـا لتواجِـهَ الزُّجـاج السـميك وتـرى أنه مطـليٌّ بالأسـود مـن الخـارج فقـط. لنصـف سـاعة كاملـة، كانـت في راحـة يَـدِ تلـك المجموعـة مـن الرجـال الجالسـين خلفهـا. كفيلـم يُبَـثُّ مبـاشرةً عـلى شاشـة عملاقـة.

"شـكرًا، لكننـي لا أريـد شـيئًا". تَحمـرُّ خَجَـلًا وتغـادر الغرفـة في عاصِفَـةٍ مـن الضحك.

يحالفهـا الحـظُّ في متجـرٍ لمُسـتَلزَمات الزفـاف. تسـمع إدارة المتجـر عرضهـا وتطلـب منهـا سلسـلة إعلانـات لسِـتَّة أعـدادٍ مـن المجلـة. تـكاد

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

إيڤا تمشي على الهواء. أخيراً كل هذا الرَّكض البائس الذي أبلى كعب حذائها سيؤتي ثماره! تُغدِقُ قبلاتها على مونتا وأكسيلز وأمِّها وأبيها، وتسهر متأخِّرًا لترسم المُسَوَّدَات وتفكِّر في الشعارات. لن تقول شيئًا في الوكالة، فقط ستظهر ذات يوم وتلقي بعَقدٍ مُوقَّع على المكتب؛ فهي ذكيَّة في النهاية، وسوف تأتي بشعارٍ تسويقيٍّ مُدهِش، حتى إنه سيُلهِمُ الجميع. فستان زفافك- لمسة حريرية من ليلة صيفية! حلم الخريف المخمليُّ! ندى الشتاء الفاخر!

تعجب اقتراحاتها إدارة المتجر، وتغمر الحماسة إيڤا، ويبتسم مدير المتجر وهو ينظر إلى وكيلة الإعلانات التي تنفجر شغفًا وحماسةً أمامه.

"بمظهرك الآن كنت لأتزوَّجكِ أنا شخصيًّا"- يقول. "لكن عليَّ أن أستشير مُحاسبتَنا أوَّلًا".

انْسَ أمرَ المُحاسِبَة! إنه عرضٌ رائع. تُمرِّر إيڤا العَقدَ إلى جانبه من المكتب. كلُّ ما على المدير فِعلُه هو أن يلتقط القلم ويُوَقِّعه. يظلُّ مُبتَسِمًا وهو يراقب إيڤا تطير خارِجَةً من الباب، ويدها تقبض جيِّدًا على قطعة الورق القَيِّمة.

نعم، إيڤا تسير فوق الهواء فعليًّا. عقد بخمسمائة لات! أخيراً ستتمكَّن من شراء شيء لنفسها، ولأكسيلز ومونتا. ستذهب في رحلة لزيارة نانا عند البحر. الفقر أمرٌ لا يمكن التعامُل معه سوى لفترة مُعَيَّنة. الفقر المُزمِنُ يُرهِقُ حتى أقوى الأرواح. تحلم إيڤا أن تذهب إلى المتجر يومًا وتشتري الأشياء فحسب. دون أن تحسب السنتيمات القليلة الباقية معها في ذهنها.

عودة إلى الوكالة، تجد زاني تُدخِّن في البُقعَة المُشمِسَة من الرواق جوار نافذة متفوحة. كانتا قد لاحظتا بعضهما أثناء التدريب بالفعل. زاني جميلة، بوجه صادقٍ وعينين صادقتين. كانت مُراسِلَةً تليفزيونيَّةً

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

فيـما مـضى. تنظـر لإيڤـا التـي تركـض إليهـا بعينـين مشرقتـين وتعطيهـا حضنًـا كبـيرًا.

"أخبار حلوة؟"- تسأل زاني.

"عقد بخمسمائة لات!"- تقول إيڤا بفخر.

"ووهـوو! أمَّـا أنـا فقد سَـئِمتُ كُلَّ هذا. سأسـتقيل. أذهـب إلى كل أنواع الـشركات، وأقابـل أناسًـا كنـت أُصَـوِّر أفلامًـا عنهـم، وجميعهـم يضحكـون منـي حـين أحـاول إقناعهـم بالإعـلان معنـا. «أحقًّـا ليـس لَدَيـكِ مـا هـو أفضـل مـن هـذا لتفعليـه؟» يسـألون. أظـنُّ أن عـليَّ العـودة للتليفزيـون".

"ولِمَ تَرَكتِه بالمقام الأوَّل؟".

"فقَـدتُ زوجـي وطفلتـي في حـادث سـيارة. عـلى مـدار سـنتين بعدهـا كنـتُ مُحطَّمـةً تمامًـا. الآن أحـاول التعـافي مـن ذلـك".

تعـضُّ إيڤـا شـفتها وتخفـض عينيهـا. لا تـدري لمـاذا، لكنهـا تشـعر أن أرضيَّـة هـذا الـرواق الخشـبية، الألـوان والألـواح التـي أبلتهـا مئـات الأحذيـة إلى أن صـارت ملسـاء- كل هـذا سـيبقى في ذاكرتهـا لسـنوات قادمـة.

تخـبر وكالـة الإعلانـات إيڤـا أن عقدهـا لا قيمـةَ لـه. إمضـاء المديـر موجـودٌ، لكـن دون ختـم.

"صدقًا، ألم تعرفي أنك بحاجَةٍ إلى ختم؟".

تتذكَّر إيڤا ابتسامة مدير المتجر. كان يعلم- إيڤا متأكِّدَة من ذلك.

وقـد كان. لم يسـمَح أحـدٌ لإيڤـا بـأن تـرى مديـر المتجـر مـرَّةً أخـرى. تجلـس مُحاسِـبَةٌ عجـوزٌ تشـبه البومـة عـلى المكتـب؛ مخلـوق فـولاذي بقلـبٍ مـن رصـاص.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"نعم يا آنسة!" تحدِّق في إيڤا بحِدَّة من خلف نظارتها المستديرة. "أتريدين أن نُفلِسَ؟ أَجْرِ حساباتِكِ- أتعلمين كم فستانًا علينا بَيعُه لنغطِّي قيمةَ عَقدٍ كهذا؟".

حسنًا، حسنًا. لا تنام إيڤا ليلتها، لكنها أيضًا ترفض أن تيأس. جميع الكتب تقول إن النجاح هو أهمُّ شيء على الإطلاق. وقد يبتسم لها الحَظُّ في أيَّة لحظة. لا يمكنها أن تفقد الأمل.

متجر جديد للچينز الفاخر افتُتِح في وسط المدينة. بينما تسير في الشارع، ترى إيڤا لافِتَةً على الزجاج تقول إنهم في حاجة لمساعِدَة مبيعات، فتدخل مباشرة. ليس لديها ما تخسره.

المتجر نظيف، راقٍ وهادئ. قليلون في المدينة مَن لديهم القدرة على التسوُّق هنا. تعطي مساعدة المبيعات لإيڤا بطاقة أعمال صاحب المكان، وتتَّصِل إيڤا به. صوته هادئ ومهذَّب. يطلب منها أن ترسل له صورة أولًا.

لو كانوا بحاجة لصورة فسوف ترسل لهم صورة. تذهب إيڤا إلى ستوديو تصوير للمرة الأولى في حياتها لالتقاط صورة. باستثناء الصور القليلة من تلك الفترة التي عاشتها مع نانا جوار البحر، فلا يوجد أيُّ دليل فوتوغرافي على أن هناك شخص يُدعَى إيڤا كان موجودًا على الإطلاق. تسرُّها النتيجة. قبل أن ترسل الصورة، تنظر إيڤا إليها وتُفكِّر فيما سيقوله الناس عن تلك الفتاة في الصورة لو رأوها في الشارع. شَعْرٌ داكِنٌ، وَجهٌ رقيق، عينان ضيِّقتان كما لو كانت آيسلنديَّة. تتذكَّر إيڤا يونسي وتُقرِّر في الحال- حتى لو صَبَغَت شَعرَها لاحقًا في حياتها، فلن تصبح مثلها أبدًا.

والظاهر أن مالِكَ متجر الچينز قد أُعجِبَ بصورة إيڤا؛ يتَّصِل بها في اليوم التالي. يخبرها أن تأتي من أجل مقابل في فندق ريجا.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

الأروقة المفروشة بالسجّاد الأحمر في الفندق الكبير في وسط المدينة تهزُّ شجاعة إيڤا قليلًا. لكنها تصل إلى مكتب المالك وتجده وسيمًا ولطيفًا. كثير الابتسام.

"هل لديكِ أيَّة خبرة في المبيعات؟ هل سبق لك أن عملت مع ماكينة نَقْديَّة؟".

تخبره إيڤا أنها عملت كنادلة، وسكرتيرة، ووكيلة إعلانات- لكنها لم تعمل كمُساعِدَة مبيعات أبدًا.

"سأتعلَّم بسرعة كبيرة، وبالتأكيد سيكون لديَّ الوقت. لا أحد يذهب إلى هذا المتجر أبدًا!".

وما إن تتفوَّه بتلك الكلمات حتى تعضَّ لسانها. لقد نطقت بأكثر ممَّا يجب مرَّةً أخرى، والنتيجة واضحة: تلاشت ابتسامته، كما لو ضغط أحدهم زرًّا داخل رأسه.

"شكرًا، سوف نُهاتِفُكِ"- يُنهي المقابلة سريعًا.

ولا يتَّصِلون بالطبع.

يأخذها بَحثُها عن الوظيفة أبعدَ وأبعدَ عن وسط المدينة البَرَّاق. ذات يوم، تنتهي إيڤا إلى حيٍّ مباني الفَنِّ الحديث. تعثر على محلٍّ أقمشة بحاجة إلى مساعدة مبيعات. تحصل إيڤا على الوظيفة ولا تكاد تصدِّق أنها تعمل أخيرًا.

يسأل المدير -بوريس- سؤالًا واحدًا:

"هل سبق لكِ العمل في السوق؟".

"كلَّا"- تقول إيڤا.

"جيِّد. السوق يُعلِّم النَّاسَ السَّرِقَة".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

افتقار إيڤا للخبرة في المبيعات لا يضايقه. بل يستخرج لها بوريس شهادة تسمح لها بالعمل مع ماكينات النقدية. وتَعلُّم التَّعامُل مع ماكينات النقدية سهلٌ للغاية، بوسع كَلبٍ أن يفعلها.

إنهم مجموعة من الصَّرَّافين، وهم يضحكون طوال الوقت. هناك هاتف على شُبَّاك إيڤا، ووظيفتها أن تجيبه في المرَّات العديدة التي يدقُّ فيها طوال اليوم لتشرح أن متجر آلات الحَلْب قد نُقل من هنا. شقَّة المدير ومكتبه فوق المتجر. كان قد اشترى جزءًا من هذا المبنى الجميل؛ إلَّا أن الواجهة هي الشيء الوحيد الجميل فعلًا الباقي منه. كان المبنى يضمُّ شُقَق ضُبَّاط الجيش السوڤييتي، لكنها الآن مهجورة، ورق الحائط تقشَّر وتحطَّمَت المواقد وقُطِعَت أنابيب التدفئة. الشتاء التالي بارِدٌ كالموت نفسه؛ يتجوَّل الصَّرَّافون في معاطِفَ من الفراء، وتتكاثف أنفاس الشَّيَّالين. كانوا يحضرون شحنة من الحطب التدفئة الجاف أسبوعيًّا، وبشكلٍ غير رسمي، كانت مسؤوليَّة نقلها إلى الشَّقَّة الخالية بالطابق الرابع تقع على الصَّرَّافين. يقيم المدير وزوجته الحفلاتِ هذه الأيام. بعدها تتَّجِه إيڤا إلى البيت في التِّرام البارد، يحترق جوفها بالڤودكا، وتعاني بشَرَتُها الوَخزَ. لا يحصلون على إجازة يوم السبت، وهناك المزيد والمزيد من المهام الصغيرة في المخازن يوم الأحد. تبتلع المناوبات التي تبدأ من الثامنة صباحًا إلى السابعة مساء وقتَ إيڤا كتمساح عملاق. أحيانًا، ترى نفسها- واقفة على شُبَّاكها، تستغلُّ لحظات فراغها القصيرة في التقاط أنفاسها والضحك مع مساعدات المبيعات الأخريات، اللاتي أصبحن بمثابة أخوات لها. وما الذي يضحكن عليه؟ لا شيء. إنها ضحكات مُنهَكَة عديمة المعنى. صحيح أنَّهنَّ شابَّات، لكن العمل يلتهم شبابهن. لمن تتنازل إيڤا عن أيامها؟ ابنتها بالكاد تعرفها ولا تراها سوى في ساعةٍ متأخِّرَة من الليل. أمها تشكو من صِحَّتها ومن مُجالَسَةِ مونتا التي صارت تَشقُّ عليها. الأسوأ في كل هذا أنها ترى أكسيلز أقلَّ أيضًا.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

لمَـن تعطـي وقتهـا؟ لمديـر المتجـر؟ مـا الـذي فعلـه ليسـتحقَّ هديَّـةً قَيِّمَـةً كتلـك؟ الفتيـات لا يَقُلـن شـيئًا. لا يهـمُّ مـن أيِّ أركان لاتفيـا أَتَـينَ- عليهـنَّ أن يُراقِـبن مـا يَقُلنَـه. الحصـول عـلى عمـلٍ صَعـبٌ. المديـر يعـرف هـذا؛ فـلا يعطيهـن أجـرًا كبـيرًا.

تسـعون لاتًـا لإيڤـا ومثلهـا لأكسـيلز ليسـت كافِيـةً ليبحثـا عـن شـقتهما الخاصـة. لا وقـت للبحـث عـلى أي حـال.

ذات ليلـة، تنـزل إيڤـا مـن الـترام، وبينـما تشـقُّ طريقَهـا للبيـت في فـوضى الأمطـار وأضـواء السـيارات؛ يوقفهـا أَحَـدُ المـارَّة. تنظـر إيڤـا للوجـه أمامهـا وتلتقـي عيناهـا فجـأة بملامِـحَ مألوفـة.

"أندريس!"- تهتف.

للحظـة، لا تشـعر سـوى ببهجـةٍ خالِصَـة. توشـك حتـى أن ترمـي ذراعيهـا حـول رقبتـه لتعانقـه. لكـن أكتـاف أندريـس المَحنيَّـة ويـداه المدسوسـتان عميقًـا في جيوبـه تُذَكِّرهـا ببعـض الأشـياء مـن المـاضي؛ أشـياء قريبـة وعزيـزة، لكنهـا في الوقـت نفسـه مُقرِفَـة، كطـرفٍ مبتـورٍ يملـؤه العَفَـنُ الآن.

"ماذا تفعل هنا؟"- تسأل، مُتفاجِئَةً.

"أنتَظِـرُكِ"- يجيـب، وينظـر حولـه بحثًـا عـن مـكان بعيـد عـن المطـر. يمضيـان للوقـوف أسـفل سـقف كشـك الجرائـد. تنـثر السَّـيَّاراتُ أوحـالَ الطريـق أمامهـا، تَمـزِجُ إطاراتُهـا الثَّلـجَ بالمـاء، ويقفـز المـارَّةُ فـوق البِـرَك.

"هـذا لمونتـا"- يناولهـا بعـض المـال. "خُذيـه. فقـط لا تُنفِقيـه عـلى ذلـك المُغفَّل".

تأخـذ إيڤـا المـال وتعـدُّه بطريقـة آليـة. سـتُّون لاتًـا. يمسـك أندريـس بطاقـة أعـمال بـين أصابعـه الخَشِـنَة. تضعهـا إيڤـا في حقيبتهـا. هاتـف زوجهـا. سِرٌّ، عليهـا أن تخفيـه عـن حبيبهـا- تَخطُـرُ لهـا الفكـرة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"هل زُرتَ الزاري؟".

"أقود إلى هناك من آنٍ لآخر. لم يتغيَّر شيء".

تتذكَّر إيڤا الغابة الهادئة المحيطة بالمَرج. حتى بعد أن يموتوا جميعًا ويختفوا، ستظلُّ الغابة على هدوئها.

"كيف حال حبيبك العبقري الصغير إذًا؟"- يقول أندريس هازئًا. "أتقرآن الكتب ليلًا، أيضًا؟".

"أكثر وأكثر"- تُغالِبُ إيڤا دموعَها. "لِمَ أَتَيتَ أصلًا إن كنتَ تنوي أن تكون بغيضًا وحسبُ؟".

"كيف لي ألَّا أكون؟ يا له من حُبٍّ! في الحقيقة اتَّصَلَت أُمُّكِ، قالت إنك لَستِ بخيرٍ على الإطلاق. لكن هذا لم يَعُد من شأني. سلام"- يقول، ويختفي في الليل.

تعبر إيڤا واجهات المتاجر مُتثاقِلَةً. تمتزج دموعها بالأمطار؛ لن يلاحظ أحدٌ في هذه الفوضى الشتوية. كل شيء فوضوي، لا شيء يسير كما تمنَّت له. عبارات كثيرة غير ذات جدوى مكتوبة في خطاباتٍ لأخيها. الكتب شيء مختلف، شيء مُقتَطَعٌ من الحياة الواقعية.

لا تفهم إيڤا لِمَ توقَّفَت أمام واجهة إحدى المكتبات. غريب جدًّا. يبدو أن وقتًا طويلًا جدًّا قد مضى على آخر مرَّة قرَأَت فيها شيئًا. لم تَعُد تقرأ الصُّحُفَ حتَّى، فقط مُقتَطَفات من المقالات التي تستخدمها لإشعال الموقد في مكتب بوريس.

نِكايَةً في أندريس؛ تدخل المكتبة وتستعرض الرفوف ببطء. تدرك أن الكتب كانت دومًا هنا، في مُتناوَلِ يَدِها. لا تفرض الكُتُبُ نفسَها. تنتظر فحسب.

تلتقط كتابًا عشوائيًّا: روبرتس موكس- الديانات الشرقية- التَّأمُّل- الزَّمَنُ الدَّوريُّ. ترفعه وتفتحه.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

الزمن الدوري.

لا تملك إيڤا أدنى فكرةٍ كم مرَّ عليها من الوقت وهي واقفة تقرأ. لا تفهم النَّصَّ، بالكاد تفهم موضوع الكتاب. وموضوع الكتاب لا دخل له إطلاقًا بحياتها في تلك اللحظة بالتحديد: متجر الأقمشة، المال، مرض ابنتها، التِّرامات الباردة، النقانق الرخيصة، والبنوك المُفلِسَة. لكن -للغرابة- يُحرِّكها النَّصُّ، كما لو يقرؤه شخصٌ آخر لا يعلم حتى بوجود إيڤا.

تشتري الكتاب بسرعة. لا يهمُّ أن تلك النقود كانت من أجل مونتا. لن تتناول إيڤا عشاءها الليلة. إنها مَحضُ لاتات قليلة، لكنها في الوقت نفسه، إلهامٌ هشٌّ، يدور فوق الشوارع السوداء كأضواء الشمال.

في المنزل، تحاصر إيڤا أمَّها في الحمام. تموج الغَسَّالة برغوة سوداء؛ تلتقط أمُّها قِطَعَ الملابس من الرَّغوة كالمُنَوَّمَة مغناطيسيًّا وتلقي بها في حوض الاستحمام لتُشطَف. الغَسَّالة من عمر إيڤا تقريبًا، وقد تَلَفَت أخيرًا. حين تُشغِّلها، تدور وتدور وتدور وحسب.

"ماما، لِمَ هاتَفتِ أندريس وكلَّمتِه بشأني؟"- تواجِهُ إيڤا أُمَّها بتهديدٍ هامِسٍ.

تنظر أمُّها إليها. إنها امرأة عجوز، عتيقة في تلك اللحظة. يرجف قلب إيڤا. تقول أمها:

"الوقتُ مُتأخِّرٌ. سنتكلَّم غدًا".

"كلَّا. الآن. أنا أعيش في شَقَّتِكِ، وأنا مُمتَنَّة لذلك، لكن كل ما أطلبه هو ألَّا تَدُسِّي أنفَكِ في شؤوني ثانيةً أبدًا".

تعتدل لوتسيا بآخر ما تبقَّى لها من طاقة، وتضغط بقبضتيها على جانبي أسفل ظهرها. الجانب الأمامي من الرُّوب الذي ترتديه

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

داكِـنٌ، مُشـبَّعٌ بالميـاه. الحـمَّام ضيِّـقٌ كأنبـوب اختبـار -يملـؤه البخـار وطنـين موتـور الغسـالة التالـف- ضَيِّـق بشـكل غـير مريـح.

"إذًا ادفعـي لي. عـلامَ هـذه النظـرة- أَتَظُنِّـين أنـه ليـس عمـلًا شـاقًّا؟ إذًا اعـثُري عـلى مَـن يعتنـي بطفلتـك مجَّانًـا مـن الصبـاح إلى المسـاء".

تُصدم إيڤا حتى تتلعثم:

"لقد ظَنَنتُ... بدافع اللُّطف... أنَّكُم...".

"لـن نتوقَّـف عـن دَعمِـكِ أبـدًا، حتـى لـو كان ذلـك يعنـي أن نعيـش نحـن في صنـدوق. لكـن الأمـر ليـس سـهلًا. ليـس سـهلًا".

تفكِّـر إيڤـا فيـما سـمعته. ليـس الأمـر سـهلًا عـلى أمِّهـا، عليهـا الاعـتراف بذلـك. لكـن- ليـس سـهلًا عـلى أيٍّ منهـم.

"ماما، اسـمعي"- تقـول أخـيرًا. "أنـتِ مُحِقَّـة، لكننـي لا أعلـم مـا علاقـة ذلـك بـأن تـدُسِّي أنفَـكِ في حيـاتي. سـألتُكِ سـؤالًا مُحـدَّدًا: لِـمَ هاتَفـتِ زوجـي؟".

تغضـب لوتسـيا وتمـدُّ كلتـا يديهـا في فـم الغسـالة، وتُلقـي بالملابـس في حـوض الاسـتحمام بقـوَّةٍ، حتـى تتناثـر الميـاه عـلى الجـدران.

"لأنَّـكِ بحاجَـةٍ إلى المـال! ليـس لَدَيـكِ سـوى طاقَـمِ ملابِـسَ واحـدٍ، ولـو لَـم يَجِـفَّ أثنـاء الليـل سـتضطرِّين للذهـاب إلى العمـل عاريـة!".

في تلك اللحظة، يُطلُّ أكسيلز برأسه في الحمَّام.

"أنـا آسِـفٌ حَقًّـا، لكـن، أيمكننـي الدخـول لاسـتخدام المرحـاض؟ أوه إيڤـا، أنـتِ أيضًـا بالبيـت؟ عظيـم!".

يُقبِّلان بعضهـما، وتذهـب إيڤـا وأُمُّهـا للصالـة. بمجـرَّد أن يُغلـق البـاب عـلى أكسـيلز، تهمـس إيڤـا بقسـوَةٍ:

"شكرًا على نصيحتك العظيمة، لكنني لا أحتاج إليها!".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تناديها أمها:

"خُذي النقود من أندريس إن أعطاها لكِ. مونتا ابنته هو الآخر! لا داعي لكلِّ هذا الكبرياء!".

تنتهي الحياة في شارع بارنافاس بقريبِ أمِّها الريفي، الذي لم يَعُد يستطيع العناية بنفسه.

ذات أحدٍ، تلاحظ إيڤا عجوزًا هزيلًا يعاني من قِصَر النَّظَر، يرتدي نظَّارةً بإطارٍ سميك، يتجوَّل في الشقَّة بعُكَّاز. استيقَظَت مونتا للتَّوِّ، وها هي تقود درَّاجَتَها الثُّلاثيَّة في دوائِرَ طائِشةٍ وتَعلَقُ في أُطُر الأبواب الضَّيِّقة. تقود درَّاجتها إلى ساق العجوز وتطلق الزَّمُّور. يَشرَعُ الرَّجُلُ في الصياح، ويتطاير لُعابُه، ويدقُّ الأرض بعُكَّازه.

"لا تدهسيني! لا تدهسيني!".

يُكرِّرها عدَّة مرَّات. تُقبِّل إيڤا أكسيلز وتذهب لتعدَّ القهوة. بعدها، بشَعرٍ أَشعَثَ، نصف نائمة، تأخذ فنجانها وتذهب لتقف في غرفة والديها. أُمُّها جالسة إلى مكتبها، تقرأ "تقويم الطبيعة"، ويتابع والدها فورمولا1- على التليفزيون.

"صباح الخير! مَن هذا العجوز في شقتنا؟".

"أوه، هذا! إنه شقيقُ جَدَّتي، الخال ألفريدس. يعاني من ارتفاع ضغط الدم، وطلب اللجوء عندنا".

تأخذ إيڤا رشفةً طويلة من القهوة، وتُفكِّر في أن ضغط الخال ألفريدس لن ينخفض وهو هنا على الأرجح.

"وأين يمكث؟".

"هنا. منذ أسبوع بالفعل، لو لم تلاحظي".

تشير أمُّها إلى مرتَبَةٍ بجوار رفِّ الكُتُب.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يراقبها أبواها عن كثب. تحسُّ إيڤا بما يودَّان قوله. ترتفع صيحة أخرى من صيحات الخال ألفريدس الشبيهة بصوت الموظ من الرُّواق الأمامي.

تحمل إيڤا مونتا، ودراجتها الثلاثية وكل شيء وتذهب إلى غرفتها. ما زال أكسيلز نائمًا. ذراعه العاري يتدلَّى فوق عينيه.

"لنذهب في تَمشِيَة".

"لا أريد أن أفعل".

تُلبس إيڤا مونتا، وفجأة تقول:

"لا يُمكِنُنا البقاء هنا أكثر من ذلك يا أكسيلز. فكِّرْ في الأمر".

تذهب هي ومونتا إلى المُنتَزَه، حيث الكثير من الهواء النقي، والشمس، والحَمَام. تغار إيڤا من الحَمَام. كل ما في حياة الحَمَام أعلى وأكثر حرِّيَّةً دومًا.

تراقب إيڤا مونتا وهي تتأرجح وتفكِّر في أندريس. في أن مونتا ابنته.

مونتا ابنة أندريس.

ابنة أندريس.

فجأة، تَخطُر لها فِكرَة- تَجِدُ كُشكَ هاتِفٍ وتتَّصِل بأندريس:

"أهلًا! أيمكنك إقراضي مائتي لات؟".

صمتٌ على الجهة الأخرى، ثمَّ:

"لماذا؟".

"ليس هذا مُهِمًّا، هل ستساعدني أم لا؟".

"بالطبع سأفعل. متى في حياتي لم أُساعِدْكِ؟".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

بابتسامَةٍ خَفِيَّةٍ، تشتري إيڤا في طريقها للبيت جريدة تملؤها إعلانات شُقَق للإيجار. تقول لأكسيلز إن النقود كانت علاوة غير مُتَوقَّعة.

ينتهي بهم الحال في بيتهم الجديد، شقَّة مشتركة طويلة في شارع بلاومانيا. بالتدريج، يُصادِقُ أكسيلز معاتيه ريجا القديمة، وتصبح هذه الشَّقَّة مرآةً شَبحيَّةً لعالَمِهم. تَضمُّ كُلَّ أنواع الناس، وتُعَدُّ مُعجِزَةً لو استطاعوا البقاء في غرفهم لأكثر من بضع دقائق.

في قلب ريجا تمامًا. من الخارج، يبدو المبنى محترمًا. لكن لو أطال عابِرُ السَّبيل النظر إليه، لرأى ندوبه وجروحه المفتوحة. تنحدر الشرفة الحجرية في شقَّة إيڤا وأكسيلز بالطابق الرابع للأسفل لدرجة خطيرة، كَشَفَةٍ سُفليَّةٍ مُتدلِّية. تُبَعثِرُ شجرةٌ بتولا صغيرة نَمَت من بين شقوق الشرفة أوراقَها المُحمرَّة على الرصيف. الوجوه الحجرية الجميلة المنحوتة على إفريز المبنى تَفَتَّتَت وأكلتها الرطوبة.

لا يوجد رمزُ أمانٍ للباب المؤدِّي لبئر السُّلَّم؛ ولذا يستخدمه المُشَرَّدون والقطط على السواء كمكانٍ للنوم. تبدأ شقتهما بمطبخٍ كبير، يزدحم -بجانب مَن يبحثون عمَّا يأكلونه- بالأجهزة القديمة: موقد غاز قديم، كومة من أنابيب التدفئة الصَّدِئَة، مُبَرِّدات تالِفَة. المطبخ دومًا مزدحم بالناس، وهم يستخدمون الأجهزة التالفة كطاولات. يقود رواقٌ طويلٌ إلى قلب الشقة. مُعزَّز بعوارِضَ أسمنتيَّةٍ تَجعَلُه يُشبِه قَصَبةً هوائيَّة بحلقات من العظام، تقود إلى معدةِ وَحشٍ نائم. هناك تسعُ غُرَف متقابلة، والباب الأخير هو الحَمَّام، وفيه الدُشُّ والمرحاض.

"لا يوجد شيء جديد، ليس بوسعنا إلَّا أن نحاول تنسيق حياتنا مع كل ما كان موجودًا منذ بداية الوقت". تجلس إيڤا في غرفتها وتقرأ روبرتس موكس. تحبُّ هذه الفترة بكل ما تجلبه معها- كنهرٍ

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

ثائِرٍ يفيض بالطمي في موسم الأمطار. تحبُّ شجرة البتولا في الشرفة، والأسقف العالية. سمحت نقود أندريس بشراء سريرَيْن أيضًا. صنع أكسيلز رَفَّيْ كُتُبٍ جميلَيْن في ورشة النجارة. ثم هناك الآلة الكاتبة من طراز كونتيننتال التي كانت بانتظارهم في الغرفة الخالية -كهديَّةٍ- والظَّاهِر أن السُّكَّان السابقين قد نسوها. تضع إيڤا فرخًا من الورق في الإطار الأسود وتكتب الحروفَ ببُطءٍ بأصبعٍ واحِدة. الحروف الساكنة والمُتحرِّكة، بالتشكيل وبدونه. الحروف الكبيرة، الحروف الصغيرة، تستكشف الآلة الكاتبة كمسافِرٍ في بَلَدٍ جديدة. لكن إيڤا ليس لديها ما تكتب عنه. يمكنها إذًا أن تنسخ موكس. عشر مرات: "لا يوجد شيءٌ جديد، ليس بوسعنا إلَّا أن نحاول تنسيق حياتنا مع كل ما كان موجودًا منذ بداية الوقت".

تنسخ موكس، ثم تبدأ بتكوين عباراتها الخاصة البسيطة: "شجرة التَّنُّوب تكبر". "مونتا تكبر". "مونتا هي ابنتي". "أنا وأكسيلز سنظلُّ معًا للأبد". يُدهِشُها كيف تأخذ الكلمات -بمجرَّد أن تُكتَب على الآلة الكاتبة- مظهرًا جماهيريًّا. سواء أرادت ذلك أو لم تُرِده. عَرَضًا أو عَمدًا. كما تُحَوِّل ورشةُ نجارةٍ شَجرةَ تَنُّوب إلى عَيِّنَة بابٍ للعَرض. هذا هو سِرُّ الكُتَّاب الخفيُّ إذًا! يكتبون على الآلة الكاتبة! يضعون الكلمات في تنسيق ثابت. يُسخِّرون الكلمات.

في تلك الأثناء، تستكشف مونتا الشقة. تذهب إلى كل غرفة، ويعيدها سكَّان كلِّ غرفةٍ لأُمِّها في النهاية. تصبح سببًا في تناوُلِ كوبٍ من الشاي وبدء مُحادَثة. يتضمَّن الجيرانُ طُلَّابَ الفنون والفلسفة، شباب الپانك، مطربة فرقة مغمورة وحبيبها، مدرس لغة ألمانية، وبعض شعراء الأقاليم.

أكثر مَن يجذب انتباه مونتا هو إيلماص، قاطِنُ الغرفة الثامنة. إيلماص تاجِرُ تُحَف، ويهوى التصوير. في وقت فراغه يتجوَّل في الشقة

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

في بدلته الرياضية ويشرب الكثير من الشاي الأخضر؛ ولهذا ستُصادِفُه في المطبخ بصورةٍ شِبهِ دائمة. له وَجهٌ أحمَرُ يُشبِه وجوهَ الماعز، ولحية رمادية، وعينان خضراوان دامعتان. يحُكُّ إيلماص بطنه العارية التي تُطِلُّ دومًا من أسفل تيشيرتاته القصيرة، ويصبُّ حكاياتٍ مُرعِبَةً عن حياة نُخبَةِ ريجا في آذان السامعين.

يعيد مونتا إلى إيڤا وينفجر حماسًا لرؤية الآلة الكاتبة.

"أوه، أنتِ شاعِرَة؟"- يهمس، مُقرِّبًا يدَ إيڤا من شفتيه. "تَسرُّني رؤيتك. إيلماص".

تشرح إيڤا أن الآلة الكاتبة كانت موجودةً بالفعل، لكن إيلماص يهزُّ رأسه في غير تصديق. لم يَرَها أبدًا من قبل. منذ تلك اللحظة، حُفِرَت إيڤا في ذاكرة إيلماص على أنها "الشاعرة". أو بعبارةٍ أخرى: "ربَّة الوحي".

"تعالَيْ!"- يقول. "سأُريكِ ما هي الحياة! ليس عليكِ سوى أن تكتبيها".

يضع إصبعه على شفتيه ويقود إيڤا إلى رواق مُعتِمٍ. تتعالى صيحاتٌ بالألمانية من باب إحدى الغرف نصف المفتوح- يشاهد بعض الأولاد وثائقيًّا عن هتلر. يختلط الصياح بأنفاس حميمية ثقيلة؛ المطربة وصاحبها يمارسان الجنس في غرفتهما على الأرجح. يشير إيلماص لإيڤا لتستمع إلى باب آخر: طُلَّاب أكاديمية الفنون يتشاجرون، يتهشَّم كرسيٌّ من الأبلكاش على الباب، وتفرُّ إيڤا عائِدةً إلى غرفتها.

"لَم تَرَيْ الحَمَّام حتَّى- يُمضي كائِنٌ ساحِرٌ الصَّباحَ بأكمله نائمًا هناك!"- يناديها إيلماص بخَيبَةِ أَمَل.

في وقتٍ لاحِقٍ يُحضِر إيلماص درَّاجَةً من طراز إيرينبريس ويهديها لربَّة وَحْيِه. قديمة بشكل لا يُصدَّق وثقيلة، لكنها تعمل.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"قيِّمة للغاية! تُحفَة!"- يتفاخر إيلماص.

تضع إيڤا الدَّرَّاجة في الباحة، تربطها بسلسلة حديدية إلى شجرة قَيْقَب. جرجَرَتُها صعودًا وهبوطًا على السُّلَّم انتحارٌ. تفتح الدراجة أمامها ريجا مختلفةً تمامًا؛ تنزلق بنعومة وخِفَّة فتهدِّئ الشوارع المحمومة، وتُملِّس تجاعيد التوتُّر في وجه المدينة. تُذكِّرها الدَّرَّاجة بأوَّل مكواة فحم، أو أول زوج من الزَّلَّاجات في العالم- أشياء عامَّة ضخمة تسمح للحياة بالاستمرار دون تغيير. المتاجر، المقاهي، الناس، حتى السماء والأشجار، حتى النهر صار مفتوحًا على وسعه- وكل هذا لأن إيڤا نفسها صارت أكثر انفتاحًا. إبهامها متموضع، جاهز لقرع الجرس، شفتاها جاهزتان للابتسام، قلبها جاهز للإجابة.

تبدأ مونتا في ارتياد الحضانة. ما زالت صغيرة، لكن ليس أمامهما خيار آخر- ترفض لوتسيا أن تأخذها، تقول إن مجالسة الأطفال ما زالت مُتعِبَةً جدًّا بالنسبة لها. ولا يبدو أن الحضانة تُضايِقُ مونتا كثيرًا. إنها روح اجتماعية ومستقلَّة للغاية- تقول مُعلِّمَة الحضانة لإيڤا بابتسامَةٍ، مُطَمئِنَةً. ولِمَ لا تبتسم وقد أمَّنت شركة بامبرز مكانَها في أسواق ريجا. لم يَعُد على المُعلِّمة أن تُبَدِّل المزيد من الحَفَّاضات القماش. حتى مونتا تصل إلى الحضانة بكَومَةِ حفَّاضات بامبرز في حقيبتها.

أحيانًا، تقف إيڤا قُربَ السُّور الحديدي، وتراقب الأطفال وهم يلعبون في تلك الواحة الخضراء في منتصف المدينة الموحلة المرصوفة بالحصى. صاخبون وفرحون للغاية، كما لو لم يكن في العالم حروب وأحزان وهزائم وانتصارات. وصلوا العالم لتوِّهم، لكن أيَّة حِكمة تلك التي في عيونهم، أي قِدَمٍ في نظراتهم. فقط تلاشت كلُّ الذكريات المريرة في أرحام أُمَّهاتهم. كثياب غُسِلَت حالًا وبُيِّضَت وجُفِّفَت في الشمس والريح، صاروا جاهزين مرَّةً أخرى للمرح والألعاب، المرح والألعاب...

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يا رب ساعدني أن أفهم ما هو الطفل- وأن لديَّ واحدة.

بهذا تدعو إيڤا من الجانب الآخر من السور.

تعلم تمام العِلمِ أنها سوف تفهم في مرحلَةٍ لاحِقَة من حياتها. سوف تكتشف.

حاليًا، الوضع على ما هو عليه: العمل أو البيت. العمل أو البيت. لا تفهم أيًّا من هذا.

الآن بالطبع، صارت لديها وظيفة مختلفة. لم يتَّفِق بوريس وإيڤا حول مفهوم مواعيد العمل أبدًا. أثناء انتقالها للشقة الجديدة، شعر بوريس أن إيڤا تطلب الكثير من الإجازات.

لذلك، دون قلق، تذهب إيڤا للسوق المركزي لتبحث عن عمل. دومًا ما يحتاجون إلى بائعين هناك، ويعملون في مناوبات. بل وتحصل على عطلة أسبوعية! إنها رفاهية في هذا الجنون. والأكثر، أن شقَّتهم رائعة! لديهم حياتهم الخاصة هي ما هي عليه، ولكنها حياتهم هم.

ولم تكن بامبرز هي الشيء الوحيد الذي عصف بالمدينة: أولى الهواتف المحمولة وصَلَت أيضًا. في مراسم احتفالية، قَدَّم لها آلص، صاحب كشك البرتقال واليوسفي، بينفون عملاقًا يبدو كقالَبِ طوبٍ بهوائيٍّ. كي أستطيع الوصول إليكِ دومًا، يقول. بعد دقائق قليلة من الاستخدام، يَسخَنُ المُستَقبِلُ كجَمرَةٍ وتمرُّ الصَّدَمات الكهربية إلى دماغك. اشترى والدا إيڤا هواتفَ محمولة أيضًا. تأخذ إيڤا قلمًا أسودَ دائمًا وتكتب رقم أُمِّها فوق حوض المطبخ مباشرة. علاقتهما الآن رائعة. لكن متى لم تَكُن عظيمة؟ الحُبُّ أساس كل شيء؛ فقط يُنسى ذلك أحيانًا في غمار اليوم. حتى المرآة يغطِّيها الضَّبابُ لو اقترَبتَ منها كثيرًا، وتصبح الصورة مُشوَّهة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

صار أكسيلز كتومًا للغاية. له أسلوبه المُميَّز ويُحبُّ المخاطرة، مُهذَّب وشجاع- وكلُّها أسبابٌ حازَ بفَضلِها احترام حزب ريجا القديمة. تبدأ كتب الأدب الغريبة شبه المغمورة في الظهور في الشَّقَّة: السوترا الماسية أو اكتمال الحكمة للصوفي الهندي أوشو في غلاف أسود سميك، نسخ بالروسية مهترئة إلى درجة لا تصدق من أعمال كاستيندا وكيرواك وهيس وكامو وفلانيري أوكونور. في بعض الليالي، يَصِلُ البيتَ متأخِّرًا جدًّا ومعه مجموعةٌ صاخبة من الناس. تنضمُّ إيڤا إليهم، ولِمَ لا؟

يُدخِّنون الماريجوانا.

الجميع يدخِّنون الماريجوانا.

تُجرِّب إيڤا أيضًا.

في البداية، لا يحدث شيء. تضحك إيڤا وتسحب نفسًا عميقًا، ولا تفوِّت دورها أبدًا كُلَّما مرَّت السيجارة. تكتشف بعد فترة أن عضلات خَدَّيها تظلُّ مُنقَبِضَة حتى حين تكفُّ عن الضحك. تحاول مُقاوَمَةَ ذلك فلا تستطيع. تشعر برأسها تصفو وتمتلئ بالسعادة، وبأنها السبب في ذلك. يكفُّ جسدها عن الاستماع إلى عقلها. تفعل الغُرفَة ذاتَ الشيء: تَكفُّ الجدران عن الاستماع للسقف، وحتى الباب ينثني كأضلاع حيوان.

بصرخَةٍ مكتومة تجري إيڤا لبئر السلم وتنحني فوق الدرابزين. بالأسفل، هاوِيَة مُشتَعِلَة صاخِبَة تحاول الوصول إليها رويدًا رويدًا كأمواج البحر. تنهار الجدران أمامها من الجانب الآخر. السلام والأمان موجودان فقط في المساحة المتقلِّصة التي تنحني فيها. حين يأتي أكسيلز ليأخذها تَمتَمَ في رُعبٍ:

"كلَّا! لا تلمِسني!".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

لا يمكنكِ الخَلطُ بين الكحول والماريجوانا، يخبرها أكسيلز بلهجةٍ تقريريَّة لاحقًا. يستجيب بعض الأشخاص بتلك الطريقة. من ذلك الحين فصاعدًا، تتردد إيڤا دومًا قبل أن تدخن الماريجوانا.

تكتشف إيڤا أيضًا ما هو أسوأ وأكثر ضراوة من الماريجوانا- الغيرة. تحاول بينما تجلس مع مونتا في البيت كل مساء أن تتخيَّل ما يفعله أكسيلز في ريجا القديمة. مع أصدقائه. تعلم إيڤا أنه مع أصدقائه، لكن لِمَ كل هذا التأخير؟

أوه، يقول أكسيلز، قابَلتُ فلان وعِلَّان- حسنًا، أنتِ لا تعرفينهم على أيِّ حال! ما جدوى الشَّرح؟

ذات سَبتٍ، حين كانت مونتا عند جدَّتها، تتَّجِه إيڤا لريجا القديمة. يتسكَّع أكسيلز وأصدقاؤه عادَةً في حانة إم 6. تدخل، لكن المكان مَيِّتٌ وصامت. الوحيدان هناك هما أكسيلز، وفتاة سكرانة تمامًا. يجلسان إلى طاولة خشبية مهولة؛ يستدير أكسيلز فجأة ويلاحظ إيڤا- هاه! فات وقت الفرار؛ لقد شاهَدَها.

تتَّسِع عينا أكسيلز بالدهشة:

"ماذا تفعلين هنا؟".

ثم يُقدِّمهما:

""ديس! إيڤا".

ويطلب مشروبًا لإيڤا.

تخلع إيڤا سُترَتَها ببُطءٍ ولا تعلم كيف تتصرَّف. أكسيلز يبتسم وحسب، ويذهب للدردشة مع الساقي. يمكنها أن تُخمِّن من طريقة كلامه أنه إمَّا أفرط في الشُّرب أو في تدخين الماريجوانا. تدير ديس وجهها الشاحب لإيڤا. لها رأسٌ حليقٌ، وعينان خضراوان مرسومتان بكُحلٍ أسود، وتمتلئ أذناها بالأقراط الفضية الصغيرة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"أخبَرَني"- تَهمِسُ ديس بسرِّيَّةٍ، "أن عيناي مرعبتان. أهذا صحيح؟".

لا تجيب إيڤا. يمكنها أن ترى أن ديس متحمِّسَة ومُهتمَّة بما قاله أكسيلز.

يعود أكسيلز، ويضع كمِّيَّة قليلة من الماريجوانا في غليونه، ويشعلها، ويُغمَى عليه في الحال. يصفِّر الساقي في هدوء ويضع بعض الموز في طبق.

على ديس أن تذهب، ترتدي سترتها الجلدية، وتقبِّل أكسيلز النائم على خَدِّه، وترحل. لها ساقان طويلتان كغزال، تنتهي بحذاء طويل ذي أربِطَة. مشيتها مُتحرِّرة. مشية إيڤا ليس كذلك قطعًا. فقط لو تعرف إيڤا نفسها، لعرفَت نوعَ مِشيَتِها. وهي في هذه اللحظة لا تعرف أي شيء عن نفسها.

باستثناء أنها أدمنت أكسيلز. إنه اكتشافٌ مُرعِبٌ. تتركه في الحانة نائمًا، ميِّتًا بالنسبة للعالم، وتقطع الشوارع جَريًا باتجاه المنزل. تجري وتدفع الناس من طريقها، وتعتذر، وتتعثَّر، وتتساءل- كيف يشعر المرء لو كان رَجُلًا؟ لو أن لديه رُمحًا بدلًا من كهف؟ به يغزو الكهوف المُصمَّمَة للرِّماح، يملكها، يسكنها، يحتلُّها، ثم يمضي إلى غزوات جديدة. كيف، على سبيل المثال، كيف تخبر إنسانًا آخر بأن عينيه مُرعِبَتان؟ وبطريقة تُشعل الطرف الآخر كالنَّار في الهشيم، وتجعله يحترق طويلًا إلى أن تنفجر ناره خارجة من تحت طبقات الدم والعظام. بِمَ يشعر المرء لو أن لديه رُمحًا بدلًا من كهف؟

الوقت ينفَدُ ببُطءٍ- أو على الأقل هذا ما تشعر به إيڤا. أحيانًا ما تواجه أكسيلز حين يعود للبيت ومعه مجموعة كاملة من أشباه ديس، أو حين لا يعود للبيت على الإطلاق.

"احصلي أنتِ على بعض الراحة"- يقول أكسيلز. "لا تقلقي بشأني".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"كيف أنام ونحن نعيش معًا لكنَّكَ لا تأتي البيت أبدًا؟ ربما علينا أن نعيش منفصِلَيْن".

يضحك أكسيلز:

"لا تكوني غبيَّةً. لا أستطيع العيش بدونك! اخرجي معي ليلًا لو أردت أن تكوني معي".

"أنتَ الغبي. كيف لي أن أخرج؟ لديَّ مونتا".

بنهاية الصيف، يصبح أكسيلز من الپانك. أخيرًا يجد دِينَه. كان البيتُ يَزخَرُ بجميع أنواع الموسيقى، حتى تلك التي جلبها أكسيلز: "برايت ريد" للوري أندرسون، نينا هاجين، بوريس جريبينتشيكوف، تسوي، أوديكولونز، براين إينو، نايِن إنش نيلز، وحتى بينك فلويد القديم الجميل، كل هذا استُبدِلَ الآن بـ "سِكس بيستولز".

تهفُّ ليلةٌ سبتمبريَّة فوق المدينة كمُلاءَة سرير مُنشَّاة. تشغِّل إيڤا "يسترداي" للبيتلز. البيانو والأصوات. النقاء. موسيقى تسمح لك بالوجود دون أن تضطرَّ إلى مَسِّ الأرض.

حين يصل أكسيلز البيت يسحب فيشة الكاسيت ويُلقيه خلف السرير.

"لِمَ فَعَلتَ ذلك؟".

"هذا خراء".

"لماذا؟".

"اسمعي، دَعكِ من الدردشات القصيرة. تعالي هنا، سأخبرك عن سيد ونانسي".

يستلقيان على السرير، قريبَيْن جدًّا من بعضهما -الكتف في الكتف، أنفاسهما منسجمة- وللمرَّة المليون، يحكي أكسيلز أسطورة

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

الپانـك عـن سـيد فيشـوس وحبيبتـه الشـقراء ذات الشَّـعر المُجَعَّـد، نانـسي. روميـو وچولييـت الپانـك. مونتـا هنـا تمامًـا، تتسـلَّق السريـر وتسـتقرُّ بينهـما وتلـفُّ خُصلَـةً مـن شَـعرِها حـول أصابعهـا في هـدوء. تسـتمع هـي الأخـرى للقصـة الليليـة عـن ذلـك اليـوم في أكتوبـر، في الغرفـة رقـم مائـة مـن فنـدق تشـيلسي، حـين ألقـت الشرطـة القبـض عـلى سـيد لقتـل نانـسي، طُعِنَـت حتـى المـوت بسـكِّينِ صَيـدٍ.

"حـين أُخـلِيَ سـبيله بكفالـة في الثـاني مـن فبرايـر، انتحر بجرعـة هيروين مُفرِطَـة. ومنـذ ذلـك الحـين صـار الثـاني مـن فبرايـر هـو يـوم سـيد. ذات مـرة قـال: «اتَّخِـذوا مـن الأناركيَّـة أُمًّـا لكـم. اخلقـوا كل مـا في طاقتكـم خلقـه مـن فـوضى وارتبـاك، لكـن لا تدعوهـم يأخذونكـم أحيـاء»".

"أناركي إن ذا يو كيه" تلعب الآن، تغمر أجسادهم الساكنة كالأمواج.

يدعـو أكسـيلز إيڤـا بـ "نانـسيَّ"، لكنهـا ليسـت نانـسي حقيقيَّـةً. أُفُقُهـا واسِـعٌ أكـثر مـن الـلازم. عـلى سـبيل المثـال، مهـما حاوَلَـت، لا تفهـم أبـدًا لِـمَ صـار "تسـوي" أو "يسـترداي" للبيتلـز خـراءً تامًّـا هـذا الخريـف.

"كـما لـو أنَّـكَ فعَّلـتَ نوعًـا مـن الرؤيـة النَّفَقيَّـة"- تقـول لـه. "لا يمكننـي فِعـلُ ذلـك".

ديـس تفهـم أكسـيلز أفضـل بكثـير. هـي أيضًـا صـارت مـن الپانـك: ترتـدي الأسـود، والجـوارب الشـبكية المُمَزَّقـة، والتنانـير القصـيرة والأقـراط، وبلـوزة حمـراء حريريـة. يسـتطيع أكسـيلز وديـس أن يتحدَّثـا بشـأن الأشـياء التـي تثـير اهتمامـه؛ لأن ديـس لا تسـتجيب بشـكل نقـديٍّ.

ذات مسـاء دافـئ وقاتـم، تقـود إيڤـا درَّاجَتَهـا عائـدة مـن العمـل وفجـأة تلمحهـما وسـط حشـد. مسـطولَيْن وسـكرانَيْن ومنتشـيَيْن بـشيء آخـر، يجلسـان عـلى الرصيـف ذاهِلَـيْن، يسـتند أحدهـما عـلى الآخـر للتـوازُن، أياديهـما متشـابكة بينـما يحـاول المـارَّةُ مفاداتهـما.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تحبس إيڤا أنفاسها وتتبعهما. تتسلَّل خلفهما كنَمِر- ببُطءٍ، بسِرِّيَّة، لكنَّ قلبها يُهدِّد بدَقٍّ فَتحَةٍ في قفصها الصدري.

من هذا المنظور، من الواضح أن أكسيلز وديس متحابَّان: اثنان من پانك ريجا، لا پانك قناة إم تي ڤي المُدَّعين ببطاقات ائتمان آبائهم الأثرياء في محافظهم ومُشَغِّلات الأقراص مُثبَّتة في أحزمتهم. لا بعض الحمقى المُدَلَّلين الذين يشعرون بالمَلَل فيقفون في الشوارع ليلًا يشربون البيرة في ستراتهم الجلدية المُمزَّقة، ثم يمضون النهار جالسين في المكاتب بقمصان بيضاء مُزرَّرة لآخرها وهم يحتسون القهوة- كلَّا. إنهم من پانك الشوارع الحقيقيين: قَذِران، فوضويَّان، شابَّان ورائعان. كما لو على حدِّ سكِّينٍ، يتأرجحان على السياج دومًا، رِقَّتُهما هي صرختهما المُرعِبَة في وجه العالَم، والتَّحدِّي أمامهما هو ذلك النداء الخجول لاستكشاف مدى امتلائهما بالحب والقوة- دعواتٌ غيرُ مُجدِيَة!

يقفان جوار سياج عشبي ويختفي أكسيلز في العتمة ليتبوَّل؛ وتنتظر ديس تحت أعمدة الإنارة التي تعصف بها الريح: شاهِدٌ رقيقٌ أسودُ على قَبرِ حُبِّ أكسيلز وإيڤا. تكفُّ إيڤا عن تعذيب نفسها، وتركب درَّاجَتَها وتعود إلى البيت.

بعد ساعة، يظهر أكسيلز وديس ومعهما بعض الأصدقاء صادفاهما في الطريق. تُعِدُّ إيڤا الشاي وتشمُّ رائحة الماريجوانا، وحين يفقد أكسيلز وعيه تقول لها ديس:

"أتعلمين ما قاله لي اليوم؟ سأَلتُه إن كان سيقتلني لو طلَبتُ منه ذلك، فقال لا- مستحيل!".

تبكي ديس وتُلطِّخ خَدَّيها بالماسكارا وتُمزِّق جواربها بأظافرها المَطليَّة بالسَّواد. لا تقول إيڤا شيئًا، فقط تُفكِّر. وفجأة، تصبح هادئةً

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تمامًا- بالطبع يا عزيزتي، هكذا يجب أن تكون الأمور لأنني أنا نانسيه. برغم كل شيء، أنا نانسيه.

بعض الأحيان تجد إيڤا أكسيلز في الحانة بمفرده، يشربان معًا ويتحدَّثان في قبو إم 6، ثم ينظر لها أكسيلز باهتمامٍ ويقول:

"أنظر إليك وتعرفين فيم أفكِّر؟ في أنني أريدُكِ. أريدُكِ بقوَّة، دومًا".

مُنتَشٍ وسارح. لا يستخدم المناديل الورقية حين يسيل أنفه، بل يدير وجهه، ويقرص منخاريه ويتمخَّط، كپانك حقيقي. وإيڤا لا تقرف حتى من ذلك. إنه حقيقيٌّ. تلك هي المسألة- أكسيلز حقيقيٌّ جدًّا.

يركب الدراجة وتسير إيڤا جواره بفستانٍ جامِحٍ منقوش بالزهور. حلَّ المساء، وازدحم شارع الحرِّيَّة بالناس والسيارات. يقود أكسيلز الدراجة في الشارع لكنه لا يستطيع الاحتفاظ بتوازُنِه، ينحرف بشكل خطير، ويدور في دوائر. تحتشد الحافلات وراءه فتصنع سلسلة، لكنها لا تطلق الزَّمُّور. يستدير الناس وينظرون إليهم صائحين- پانك على درَّاجة، انظروا! وإيڤا بجواره، بفستانها المنقوش بالزهور وحذائها البرتقالي في قدميها.

يا لها من أمسية هادئة مليئة بالسعادة!

يسأل أكسيلز إيڤا أن تصبغ الموهوك على رأسه بالأحمر والأسود. يجلس على كرسيٍّ قصير في وسط الغرفة وينظر لشجرة البتولا في الخارج. شَعْرُه جميل، خفيف ومُموَّج بشكل بسيط. لا تستطيع إيڤا أن تصبغه.

"فكِّرْ في الأمر، سيبدو سيئًا عليكَ".

"مَن يخبر الپانك بما يستطيع أو لا يستطيع فِعلَه؟".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يتعكَّر مزاج أكسيلز ويعود إلى البيت في اليوم التالي سكران تمامًا. شعره صار عُرفًا أسود جافًّا. بلسانٍ ثقيل يقول إن ديس صبغته له.

"أين فَعَلَت ذلك؟".

"في ورشة النجارة".

في ورشة النجارة! لم تذهب إيڤا إلى هناك منذ مدَّة طويلة جدًّا. ربما تعيش ديس هناك الآن. لهذا لا يعود أكسيلز للبيت قبل الصباح.

تضرب الغيرةُ الجنونية والحِقدُ والإرهاق إيڤا في وقت واحد، كحالة من العَمَى المفاجئ. لا يعود بإمكانها أن ترى أيَّ شيء، لا الحقيقة ولا المستقبل ولا الضوء في آخر النَّفَق.

يشرح أكسيلز:

"كفاكِ هَلَعًا! هذا لا يهمُّ لأنني أحِبُّكِ أنتِ فقط، أنت نانسيَّ. كل ما عدا ذلك أمور ثانوية".

قبل أن ينام يمدُّ يده لإيڤا، يجذب وركها بقوة، يلتصق بها كَدُبٍّ، يُثَبِّتها على جانبها، وينهشها، ثم يغمغم بشيء ما ويفقد الوعي. تراقب إيڤا وجهه المكشوف، فضحه النوم، وشوَّهَته الخَمرُ. ثم تراقب الذباب الذي يدور حول المصباح فوق السرير.

في الخارج يسقط المطر بقوة.

حين كانت إيڤا صغيرة، كانت نانا تحارب الذباب دومًا. تضع السلك على النوافذ، تطارده بمضرب الذباب، وتُسمِّمه بالكيماويات من بَخَّاخٍ أبيض وأسود. هنا، النافذة المقابلة للشارع مفتوحة دومًا، يمكنك أن تشاهد الذُّباب في حالته الطبيعية. يحتشد في الغرفة، ويرقص، ويستمع إلى "لاڤ كيلز" لسكس بيستولز، ثم يختفي بهدوء، كما جاء.

تتفقَّد إيڤا مونتا في سريرها، تُسَوِّي البطَّانيَّة، وتدخل المطبخ. شبه خالٍ الآن. يجلس شابٌّ غريب في لباسه الداخلي على كرسي جوار

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

الحائـط، ذراعـاه ملفوفتـان حـول جسـده، سـاقاه متقاطعتـان. تظهـر انحنـاءات ضلوعـه عـلى ظهـره، كسـيوفٍ حـادَّة تحـت جلـده الرقيـق. طالِـب عـلى الأرجـح. تفتِّـش إيڤـا الرفـوف عـن زجاجـة نبيـذ أحمـر- وتجـد واحـدة، الحمـد للـه! النبيـذ الأبيـض ينفَـدُ أوَّلًا دومًـا.

"يا مرحب! كيف الحال؟"- تسأل إيڤا الشاب.

"لا بأس".

تومـئ إيڤـا لـه، وتسـكب لـه كأسًـا سـخيًّا مـن النبيـذ. تنتهـي المحادثـة. تـشرب إيڤـا باقـي الزجاجـة دفعـة واحدة.

تعـود إلى غرفتهـا وتوقِـدُ مصبـاح حائـط صغـير وتنظـر إلى بقايـا أكسـيلز. بغضـب عـلى وجههـا تُمسِـكُ مقصًّـا وتقـصُّ الموهـوك عـلى رأسـه. تتناثـر القطـع السـوداء الغريبـة عـلى الوسـادة. بعدهـا، تفتـح المقـصَّ عـلى وسـعه وتسـحبه بحسـم عـلى أوردة يَدِهـا اليـسرى. غريـب، لا ألمَ تقريبًـا. فقـط هـذا التوتُّـر البَشِـعُ الـذي يصيبـك حـين تشـعر أنـك وعـاءٌ مشـقوقٌ مـن الجانـب، يقطـر بمحتوياتـه. الوعـي الـذي يتـدلَّى في فـراغ جمجمتـك كخفَّـاش يخفـق جناحـاه عـلى وسـعهما- سـيتلاشى قريبًـا جـدًّا أيضًـا. الحميهـا، خَيِّطيهـا، أصلِحـي تلـك الحفـرة!- يـصرخ عقلهـا. تنظـر إيڤا لذراعهـا- يـا لهـا مـن ذراعٍ نحيلـة! بدمـاء شـديدة الأهميـة. لم تكـن أبـدًا لتفكِّـر في أن الـدم نفسـه هـو المحتـوى، وأنـه، حـين يقطـر عـلى الأرض، لا يمكنـك أن تجمعـه مـرة أخـرى.

بعدهـا يـأتي ذلـك التحذيـر، يبـدأ نبـضٌ سـاخِنٌ في أذنيهـا، وحلقهـا، وصدغيهـا- مَـن يعلـم مـن أيـن يـأتي. آخـر مـا تتذكَّـره هـو الشـاب نصـف العـاري في المطبـخ، وتعبـير الهلـع عـلى وجهـه حـين توقظـه لتُناوِلَـه هاتِفَهـا المحمـول، وتشـير إلى الرقـم عـلى الجـدار فـوق الحـوض، وتُكـرِّر: ماما! ماما!

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

رُبِطَ ذراعها الأيسر بإحكام شديد حتى كانت تشعر أنه من الخشب. أعطوها حبَّةً صغيرة، وحين استيقَظَت لاحقًا في تلك الليلة، شعرت أنها صارت بعيدةً عن نفسها. في الصباح التالي، أعطوها حبَّتَيْن أصغر وأصغر، فتهاوت على السرير كما لو أُوسِعَت ضربًا. لكنَّ ضميرَها هام على السقف، مُراقِبًا انعكاسه هناك على المرتبة بحزن. مَرَّ الوقت ببطء كأستك مَطَّاطي ضخم، أتى الناس، نزعوا ملابسها، وضعوها على نقَّالة، غطُّوها ببطانية. أعطوها حقنةَ شيءٍ ما. في طريقها عبر الممرَّات اللانهائية المضاءة بالمصابيح الصغيرة، شعرت بالإنهاك حدَّ الموت. نقلوها على كرسيٍّ بعَجَلات إلى الجانب الآخر. بينما هي تستمع إلى ما يحدث حولها، خشخشة الملابس الرمادية المخضرَّة، كانت تريد أن ترقد في سلام إلى الأبد. لكن هذا ليس مُمكِنًا؛ لأن جوهرها أُزيلَ منها وتمَّ تَفكيكُه. ثم وضعوها تحت الأضواء، كان هناك عدَّة أشخاص يقطعون ذراعيها العاريتين- كل ما تراه منهم هو أعينهم. كانت تلك العيون هادئة، لكنها كانت مُتعَبَة للغاية. استغرقوا وقتًا طويلًا للعثور على وريدها، وأخبروها ألَّا بأس في الصراخ لأن الأمر سيؤلمها دون شكٍّ، لكنها كانت مُرهَقَة للغاية، حتى إنها لم تستطِع تمييزَ وجود الألم من عدمه. لم يَعُد الأمر يشغلها. رغبتها الوحيدة الضبابيةَ قليلًا كانت أن تسترجع الاتِّصالَ بنفسها، أن تصير كيانًا كاملًا مرة أخرى. عوضًا عن ذلك، قبض أحدهم على وجهها بيدين قويَّتَيْن ونظر في عينيها، قائلًا: ستتسارع دقَّاتُ قَلبِكِ الآن، وستشعرين بالدُّوار، ثم ستنامين- أتسمعينني؟ إيڤا، إيڤا، إيڤا؟

يتكوَّن وَجهٌ واحِدٌ ببطء في الضباب. إنه أخوها، باڤيلس.

يهزُّها من كتفيها.

"باڤيلس؟ كيف وَصَلتَ إلى هنا؟".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"أنـا في زيـاة أثنـاء إجـازتي، وقـد جمَّـدتِ الـدَّمَ في عروقـي في ليلتـي الأولى".

"آسفة، لم أقصد ذلك".

"أنـا سـعيدٌ أنَّـكِ مـا زِلـتِ حيَّـةً. كان عليهـم أن يعيـدوا الجراحـة- لم يخيطـوا الأوتـار عـلى الفـور. أنـتِ- حـين تفعلـين شـيئًا، تفعلينـه بـإصرار، حتـى إن فريقًـا كامـلًا مـن الأطبَّـاء يعجـز عـن أن يتعامَـلَ معـه!".

"ستبقى في لاتفيا؟".

"سنرى. سيكون لدينا الوقت للحديث عن ذلك. ارتاحي الآن".

"أنا سعيدة أنك هنا".

لم تـرَ مونتـا أيًّـا مـمَّا حـدث. حـين تعـود إيڤـا للبيـت، تتـصرَّف بـودٍّ ورِقَّـة وهـي تعانـق أُمَّهـا. أكسـيلز تَغَـيَّر أيضًـا. صـار أكـثر جدِّيَّـة وقتامـة. لا يناسـبه هـذا.

"هَلُـمَّ"- تقـول إيڤـا. "ابتَهِـجْ قليـلًا! لم يكـن للأمـر علاقـةٌ بِـكَ. لقـد ضِعـتُ في فِكـرَةٍ مـا".

لا يبتسـم أكسـيلز، لكنـه يحتضنهـا بقـوَّةٍ وينتفـض كـما لـو كان يُغالِـبُ دموعه.

"أكسـيلز، حبيبـي، أرجـوك، عُـد لسـابق عهـدك"- ترجـوه إيڤـا في رعـب. "لـن أفعلهـا ثانية".

لا يعـود أكسـيلز أبـدًا لسـابق عهـده بعدهـا. بعـد فـترة تعلـم إيڤـا مـن أصدقائـه أن ديـس ماتـت. جرعـة زائـدة مـن أقـراص مُخـدِّرَة مجهولـة. أزمـة قلبيـة.

يرتجـف قلـب إيڤـا قليـلًا. مَـن كانـت بالنسـبة لـك يـا أكسـيلز؟ ومـاذا أكـون أنـا؟ لـن أعـرف أبـدًا. السـماوات صامتـة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

صار أكسيلز أَمْيَلَ للبقاء في البيت. يلاعب مونتا، ويقرأ لها، ويأخذها للحضانة حتى. لم يَعُد يَقصُّ شَعرَه في موهوك، يتركه ينمو، كثيفًا فاتحًا وقصيرًا. تغيير لا يكاد يصدَّق، لكن إيڤا تأمل في أنه للأفضل. فقط لو لم يكن عليها أن ترى تلك النظرة في عينيه- أكثر يأسًا حتى من ذي قبل، لا مبالية تقريبًا، وخجولًا في الوقت نفسه. كما لو أنه ينتظر القدر ليأخذ لعبته الأخيرة.

الحافِلَة

ذات صباح، يتَّجه إيڤا وأكسيلز إلى موقف حافلات ريجا باكرًا. تهبُّ رياح جليديَّةٌ عاصفة على الريف. يحمل أكسيلز مونتا ويدفن وجهها في منبت عُنُقِه الدافئ. لا يرتدي قُفَّازاته أبدًا، يا إلهي! البرد لا يرحم، التحذير الأول لكل الكائنات الحيَّة بأن الشتاء في طريقه. تنظر إيڤا خلفها لترى يديه المتجمِّدَتَيْن العاريتين المائِلَتَيْن للزُّرقَة ملفوفَتَيْن حول مونتا. وتشعر بالامتنان.

ينتظرون في التقاطُع، حيث تلتقي أربعة طرق. السماء سوداء، والأرض من حولهم مكسوَّة بطبقَةٍ رقيقة من الثلج. أرض آبائهم.

من الجانب القريب من التَّلِّ يمكنهم سماع هدير أشجار التَّنُّوب في الوادي جوار الحظائر. تريد إيڤا أن تحتفظ بهذا الصوت إلى الأبد، ولا تكاد تصدِّق أنهم راحلون.

تأخذ شاحِنةُ حليبٍ وحيدةٌ المُنعَطَفَ وتدخل ممرَّ بيت برانكو. ينبح كلب، تصطدم علب الحليب، وهج أشعَّة الشمس، صرير غطاء خزَّان الحليب. ثم تظهر الشاحنة مرَّةً أخرى وببطء تصعد التل. ظُلمَة ورياح ثانية. يظلُّ الطريق إلى بيت الزاري خاليًا. لم يَعُد هناك

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

أبقـار ولا أشـخاص؛ لا صـوتٌ حـيٌّ واحِـدٌ يمكـن سـماعه آتيًـا مـن هنـاك. وحـده العشـب سـينمو كثيفًـا بحلـول الربيـع.

أخـيرًا، يطـلُّ كشَّـافان مـن بـين أشـجار الصنوبـر وتقـترب حافِلَـةٌ مـن مفـترق الطـرق. يزيـد السـائق مـن سرعـة كثـيرًا لكنـه يراهـم فيحـاول التوقُّـف. تنزلـق الحافلـة عـلى الطريـق كسـمكةٍ عملاقـة وتتوقَّـف تدريجيًّا بعـد مـكان وقوفهـم.

يسرعـون تجاههـا. ينفتـح البـاب. الـدفء. التذاكـر. بعـض الـرُّكَّاب النائمـين.

يعطيهم السائق نظرةَ اعتذارٍ من خلف إطار نظارته.

"إنهـا تنزلـق كـما لـو تسـير عـلى الكُـرات. إنهـا رحلتـي الأولى عـلى هـذا الطريق".

تمـضي الحافلـة بهـم عـبر القريـة، حيـث سـتهيم الأبقـار في الشـوارع في ضبـاب الصيـف الصباحـي.

ينعطفـون عنـد البحـيرة حيـث بيـت ماريتسـا الإسـكافي. حـين مـات الإسـكافي، كان قـد منـح موافقتـه ليتحـوَّل البيـت إلى توتسـكا- متجـر للمشروبـات الكحوليـة المُقطَّـرة.

في الظـلام، تكشـف أضـواء الحافلـة عجـوزًا هزيـلًا عـلى جانـب الطريـق يضـمُّ حقيبـةَ ظَهـرٍ بيضـاء وكعكـةً مُملَّحَـة مُفتَّتـة إلى صـدره. يفرمـل السـائق بقـوَّةٍ مَـرَّةً أخـرى وينجـح هـذه المـرة في الوقـوف أمـام العجـوز مبـاشرة.

يُفتح الباب.

سـترة فـراء قَـذِرَة، عنـق عـارٍ نحيـف بشـكل لا يُصـدَّق، شـارب مُتهـدِّل، وأنـف أحمـر. فوجـئ الرجـل بالاهتـمام غـير المتوقَّـع، فوقـف يُحـدِّق كثعلـب ضُبـط متلبِّسًـا في خُـنِّ الدجـاج.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يقول السائق:

"اقفز في الحافلة يا سيِّد!".

يفرك العجوزُ أصابعه الحمراء القاسية في طاقيَّته الصوفية، ويُلَوِّح لسائق الحافلة كما لو كان يُوَدِّعه. يستدير ويتابع في طريقه إلى بيت ماريتسا، مغمغمًا:

"لا لا، ترى، إنني ذاهب إلى هناك...".

"أففف لك!"- يصيح السائق ويغلق باب الحافلة المزعج. "لِمَ تَتسكَّع كشبحٍ على جانب الطريق؟".

تتابع الحافلة طريقها ويغطِّي المشهدَ سِتارٌ من العَتَمَة مرَّةً أخرى. لكن الفجر كان يُمزِّق خطًّا من الحُمرَة في ستار الشرق بالفعل.

لِمَ لستُ عائِدةً للشاطئ وبيت نانا، غربًا؟ تفكِّر إيڤا. ما الذي يدفعني في الاتجاه المعاكس؟ ماذا سأجد هناك؟ لا أعرف شيئًا.

كل ما أعرفه هو أن الخلف خلفي والأمام أمامي. والآن هو وقت الطريق الذي أمامي. تخمَّرَت رغبةُ الحياة في عروقي وصنعت القوَّة، كما يتخمَّر نَسغُ البتولا في زُجاجَةٍ ليصنع شمبانيا يمكنها أن تُفَجِّر حتى أقوى السَّدَّادات. على الأرجح سيأتي الوقت الذي أجلس فيه على كرسي هزَّاز وأجد البهجة في الزهور، وسأستخدم ليالي الشتاء الشمالية الطويلة كستارٍ أسود، كمخبأ، كمستنقع، كي أعيد إنماء أجنحتي المقصوصة.

وعلى الأرجح سيأتي الوقت أيضًا لانحسار المَدِّ. حينها، سأتسلَّل إلى كورزيميه -إلى مسقط رأسي- في الظلام، على الطرق الترابية الرملية، باتِّباع الرائحة.

وبين الشاطئ، والسِّماد، وشقائق النُّعمان الزرقاء، ودروب السُّحُب الرَّعديَّة العطِرة، سأضمُّ آخر كعكة مُمَلَّحة وهي تتفتَّت إلى صدري.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

وذات صباح مُبكِّر، سيلاحظني سائِقُ حافِلَةٍ، ويُخرِجني من العتمة اللا مُتناهِيَة بأضوائه الوهَّاجة، يعميني، يتوقَّف، ويفتح الأبواب مُرحِّبًا.

وسأقول له: لا... لا. ترى، إنني ذاهبة إلى هناك.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

أخي، تمنَّ لنا الخير

باڤيل!

أهـلًا أهـلًا أهـلًا! الكليـة التـي قَبِلَتـكَ لا تُـدرِكُ حتـى الآن كـم هـي محظوظـة!

سـتطير لأوَّل مـرة... وكل تلـك المسـافة إلى أمريـكا... همـم... سـتموت جوعًـا إذًا؛ لأننـا، إن كُنَّـا أخًـا وأختًـا، فـلا بُـدَّ أن بيننـا أشـياء مشـتركة، ويمكننـي أن أؤكِّـد لـك شـيئًا واحـدًا: لا يمكننـي أن آكل في الطائـرات! أتمنَّـى أن يكـون الأمـر مختلفًـا تمامًـا بالنسـبة لـك، وأن تمـلأ بطنـك بالهامبرجـر واحـدًا تلـو الآخـر.

أعلـم أنـك تسـتعدُّ للسـفر، فلـن أُضجِـرَكَ بخطـابٍ طويـل. فقـط مقولـة واحـد مثـيرة- بالأمـس، كانـت بعـض النسـوة الشـعبيَّات يَغِظـنَ

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

روبرتس حين نظر إليهنَّ قائِلاتٍ: روبرتس عجوزٌ للغاية، حتى أن العضو الجنسي الوحيد الباقي لديه هي عيناه. هو هو هو!

أيضًا، ذهبت إلى حفل أوركسيترا سيمفونية الطَّلَبة. عزف صديقُ إنجونا الفلوت الأول. وبأسلوب جيرشوين في "رابسوديا بالأزرق"!

أتمنى حقًا حقًّا أن أسمع منك!

"إيڤا".

ملحوظة أخيرة: أعتقد أن "ليز إيجليتير" لـ ترويات كتاب بشع. ليس هناك بطلٌ واحِدٌ! إنها المرَّة الأولى التي ألاحظ فيها غياب البطل. ربما يُحسَب اكتشافي هذا للكتاب؟

ملحوظة أخيرة أخرى: المعنى في الحروف الأولى من أسمائنا: إ- ارتباك، انفعاليَّة؛ ب- براءة، بُعْد، بمفردك. أيُناسِبُنا هذا؟

***

تحيَّاتي أيُّها الأمريكي!

كيف حالك؟ هل صِرتَ تضع يدك على صدرك بالفعل عندما تسمع النشيد الوطني؟

"حين تخفت يوفوريا اللقاء الأول، عليك أن تجد معرفة جديدة بسرعة لتحتفظ بالسعادة؛ كي لا تفقد الحياة ما يُمَيِّزها. سنة تلو السنة تمرُّ في الابتسامات والنِّكات المُتعَبة، الطريق مليء بمئات المُنبَهِرين العابرين- لأسبوع أو اثنين".

كما ترى، أقرأ كتاب المحيط مرَّةً أخرى. دونتشو وچوليا، بمفردهما تمامًا في جولاتهما المائية.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

لـو قـرَّرَت نانـا وروبرتـس أن يطـرداني أخـيرًا وتَعَـيَّن عـليَّ أن أشـقَّ طريقـي في الحيـاة بمفـردي؛ فـلا أظـنُّ النتائـج سـتكون جيِّـدةً- سـأنجح في الوصـول لآخـر السَّـلالِم الأماميـة، وسـينتهي الأمـر هنـا. لا أعلـم أيَّ شيء عـن العـالم! يعـرف الكثـيرون جـدًّا مـا هـو الألم (السـاعة الآن 13:10 والراديـو يلعـب "فالـس الكآبـة" لدارزينـش- يـا لهـا مـن صُدفَـة مثاليـة!) ومـا هـي المحنـة، لكنهـم يعيشـون ويُشرقـون، وهـم سـعداء. أنـا مُدَلَّلَـة عَفِنَـة. أريـد أن أفهـم: مـا خطبـي، مَـن أنـا، ولِـمَ يحـدث كل هـذا؟

"... النـاس ليسـوا محدوديـن في قدراتهـم، بـل بالأحـرى محدوديـن فيـما يطلبونـه مـن أنفسـهم. في لحظـة الحاجـة، أو حتـى لـو اتخذنـا قـرارًا واعيًـا، بإمـكان كلٍّ مِنَّـا أن يُسَـخِّر نوعًـا مـن القـوة لم يفكِّـر أبـدًا حتـى أنـه لديـه".

هممـم... فكـرة لطيفـة، أنـا في انتظـار لحظـة الحاجـة تلـك. يمكننـي حتـى أن أغضـب مـن نفـسي في النهايـة. لـو اسـتطعت... في الكتـاب إجابات كل أسـئلتي، وهـو في الوقـت نفسـه يُوَبِّخُنـي عليهـا. لأننـي أصـدق الكتـب. ربمـا دون داعٍ؟

"الخوف نتاج أعصابٍ تالِفَةٍ، أو تنشئة غبيَّة".

لا أريـد هـذا الـذي أكتبـه حـالًا، لكـن يـدي تتحـرَّك كمركـب شراعـي عـلى الـورق، مـن تلقـاء نفسـها. أظـن أن خـوفي يـأتي مـن مـكانٍ مـا عميـقٍ. مـن يـوم قـرَّر بابـا وماما أن يفصلانـا ويـتركاني مـع نانـا وروبرتـس. لا يمكننـي أن أتصـوَّر طفولـةً أفضـل مـن التـي حَظَيـتُ بهـا. كتـب، كتـب، كتـب، البحـر، ونانـا بحذائهـا العـالي المغطَّـى بالطـين ومنديلهـا الأبيـض في حقـل البطاطـا.

لكننـي كلَّـما رأيـتُ ماما وبابـا شـعرت خـواءً رهيبًـا يُمزِّقنـي في مـكان عميـق، عميـق جـدًّا. كـما لـو كنـتُ في صحـراء. لا أديـن قرارهـما، أعلـم بمـرض ماما وحالتـك الصحيـة، لكننـي مـا زلـت لا أفهـم الفصـل بيننـا

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

كلِّيًا. نحن مُهذَّبان ولكننا لا نقول شيئًا، وأنا خائفة حقًّا من ألَّا أكون محبوبة. ليكن، أفكر، ليس بيدينا أن ننهي كل ذلك. أنا سعيدة لأنَّكَ تواصَلتَ معي، واستطعتَ أن تقنعني، بصدق، ومن أعماق قلبك، ألَّا داعي للخوف. أنبتت الصحراء نباتات. أنت الآن زهرتي، أخي. هدية رائعة.

آمل ألَّا تكون سئِمتَ قراءة كل تلك الحروف الشَّكَّاءة- لا أستطيع ولا أريد ولا أعرف كيف... الوحيدون الذين أحترمهم هم أنت ونانا على الأرجح. ويونسي، المرأة الأيسلندية التي قابلتها في رحلتي للسويد. إنها شجاعة جدًّا!

"الإنسان مخلوقٌ مثير. لاحَظتُ اليوم ارتباطًا بين مزاجي والريح. اليوم، مع هبوب رياح تجارية جديدة، يبتهج كل ما في جسدي".

عبر الأطلنطي مع ديو- ياهاا! أين يجد المرء ريحًا تجارية في لاتفيا؟ اكتُبْ لي!

"إيڤا".

***

مرحبًا يا أخي العزيز!

الحياة رهيبةُ التَّعقيد، أو رهيبة ومُعَقَّدَة.

اكتشفت فجأة- كلُّ شيء يحدث لي، والأمر بَشِع. لا يمكنني تَجَنُّبُه أكثر من ذلك، لستُ بذات مرونتي حين كنتُ طِفلةً أو مُراهِقَة، أنا يابسة كعصا الآن، وكل لطخةِ وَحلٍ تستقرُّ على روحي مباشرة. لا بُدَّ أنه من المُقدَّر لي أن أحيا حياةَ مانِعِ الصَّواعق. أنا الآن مجرَّد تسوية كبيرة تمشي على قدمين. في عقلي أريد أن آمُرَ الجميع. دعهم يقولوا

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

إنني متهوِّرة أو خارجة عن المألوف أو بلا قيود. لكنني على السطح هادئة جدًّا.

... الوُدَعاءُ سيُبصَقون...

أوه لكنني أعلم، أعلم بالفعل! لكن لا يمكنني أن أطلق العنان لنفسي، لأنني لم أَعُد بمفردي.

... لو أن حياتي كانت لي، ولي وحدي...

حبيبي شخصٌ كئيب، نظرته للعالم مُحطَّمة تمامًا، ولديه علاقة قاسية -حسابات يجب تصفيتها- مع حياته. ولا أفهم لِمَ اختارته لي هذه الحياة. وأنا وأوافقه على كل شيء لأن قلبي لا يطاوعني على إيذائه ("حتى أنت يا بروتس؟")، أقف بجانبه في صمتٍ وأتمنَّى السلام، لكن... على الأقل تعلَّمتُ شيئًا واحدًا أثناء إقامتي القصيرة في ستوكهولم: أن أنظر لكل شيء دومًا من الجانِبَيْن. خَصلَةٌ مُقرِفَة! لن تدعني أحيا في سلام أبدًا.

... مَن يصل أولًا، فسأنتمِ إليه، وأُكلِّله بالأقحوان...

... كركيٌّ وحيد يطير بين السُّحُب، وحيد تمامًا، دون أصدقاء، يطلق صرخة غريبة وخائفة...

أخي، أريد أن أراك بشدَّة! أرجوكَ! أرجوكَ!

متى ستعود إلى لاتفيا؟

سأتَّصِل بك.

"إيفا".

***

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

مرحبًا أخي!

أخيرًا استَجمَعتُ طاقتي لأكتب إليك. وصلني كلُّ ما أرسَلتَ- حتى البطاقة اللطيفة الصغيرة. كنتُ أعلم أنني سأكتب إليك؛ لأنني أريد أن أراك حقًّا، لكن موسم درس الحبوب أفسد بعض خططي. صحيح- لا يحتاج المرء إلا لدقيقة ليكتب خطابًا، لكن بالنسبة لي، حين أكتب إليك، أحتاج أيضًا لبالٍ رائق.

لا أعلم ماذا يحدث! في بعض الأحيان، أكون في مزاجٍ لا يدعني أستقرُّ في مكانٍ واحد لأكثر من ثلاثة أيام. هكذا الحال الآن أيضًا، لكن مع اختلاف واحِدٍ كبير؛ هو أنني صِرتُ مُقَيَّدة، لا يمكنني الذهاب إلى أي مكان، وأشعر بقدر مهول من عدم الارتياح.

إنه الصباح، آكل القراصيا، وأُطالِعُ جريدة سودمالينياس، وأرغب في البكاء. أريد ريجا وأريد سودمالينياس، وأريد إحساس مهرجان فلكلور بالتيكا- 88. لا أعرف على وجه التحديد، لكنني أظنُّكَ تحظى بوقت جيد الآن. تغيَّرَت أمورُ حياتي، لكننا سنتحدَّث عن ذلك حين نرى بعضنا.

أنا كما كنتُ دومًا.

"حبيبتك إيڤا".

ملحوظة أخيرة: سأتَّصِلُ بك طوال الأسبوع القادم مساءً إلى أن أَصِلَ إليك.
حسنًا لا يمكنني الانتظار، عليَّ أن أُخبِرَكَ- سأذهب إلى مكتب السجلِّ المدني اليوم لأُسَجِّل بياناتي. التاسع من يوليو. يا إلهي! أنا في الثامنة عشرة!
حسنًا إذًا، سأقولها مباشرة: سأُنجِبُ طفلًا في الخريف.

***

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

أهلًا أخي!

شكرًا جزيلًا على رسالتك، التي لم أستلمها إلى أن وَصَلتُ إلى بيت الزاري.

لهذا تأخَّرتُ في الرَّدِّ عليك.

لم أكتب أي شيء عن نفسي طوال الخريف؛ لأن الفصل بدا لي كما لو سيستمرُّ للأبد. اعتياد حياة جديدة يشبه قياس ملابس جديدة. واسعة في بعض الأماكن، وضيِّقة في أخرى. لا أُمازِحُك، حتى فترة قريبة جدًّا كانت عيناي مُتَّسِعَتَيْن من الدَّهشَة- ألا زلنا في الخريف حقًّا؟

ونتيجة لكل ما حدث، أنا في بيت الزاري مع أندريس. عانينا كثيرًا مع الإصلاحات. لسنا بعيدين للغاية عن بيت نانا، لكن الحياة البَرِّيَّة هنا مختلفة تمامًا: رمالٌ سوداء في الغابة، عُشبٌ يصل إلى إبطَيْكَ. حين تقوم العاصفة، لا يندفع البحر عبر النوافذ، بل تتكسَّر أمواجه بعيدًا خلف الحقول المبتلَّة. بكت نانا حين غادرت. كان روبرتس يبكي بلا انقطاع. نجا من الحرب في سيبيريا، ومع ذلك مازال عاجزًا عن استيعاب حقيقة أن اللاتفيين صار لهم بلدهم الخاص المستقلُّ مَرَّةً أخرى. إمَّا يبكي أو يجلس مع رفاقه في المتجر يناقشون قصيدة "التَّيَّارات" لفيرزا. لحلوان زواجي أعطاني روبرتس بقرةً- سالنا. بقرة شاطئ، إحدى عجول زيليته. وضعنا حبلًا حول عنقها وقُدناها طوال المسافة إلى هنا عبر دروب غابة الصنوبر. وصلنا دون أيَّة مشاكل. الآن صارت لديَّ بقرتي الخاصَّة بين أبقار أندريس، ويمكنني أن ألفَّ ذراعيَّ حول عنق سالنا وأبكي حين أفتقد حياتي القديمة.

عليَّ أن أطهو طعامي، وأرفع مائي من البئر وأحمله، وأشعل الموقد لنفسي بالخشب الرطب.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تقـع حظـيرة المزرعـة الجماعيـة خلـف البسـتان مبـاشرة. مـا زال بهـا الكثـير مـن الخيـول. تمتـدُّ المراعـي إلى رُقعَـةِ الخـضروات خاصَّتِنـا. في بعـض الأحيـان يمكـن سـماعُ أصـوات مـن القـصر القديـم، لكـن فيـما عـدا ذلـك نحـن بمفردنـا تمامًـا.

في البدايـة، كنـتُ أفتقـد البيـت كثـيرًا. كنـتُ أفكِّـر في نانا وأصدقـائي، ثم أذهـب لأبـكي في الغابـات. لكـن مونتـا وُلِـدَت، ولم يَعُـد لـديَّ وقـتٌ للبُـكاء. ابنتـي جميلـة وبصحَّـة جيـدة، وُلِـدَت في أوَّل أيـام الثلـج. نظـرتُ إليهـا، وفقـط حـين رأيـت وجههـا الصغـير فهمـت مـا هـو الطِّفـل. أوَّلًا وقبـل كلِّ شيء: مسـؤولية كبـيرة. شـخص سـيكون بجانبـي طـوال حيـاتي. هـذا أمـرٌ مُؤكَّـد. تمامًـا كحقيقـة أنهـا ذات يـوم، سـوف تـراني أمـوت. لكننـي لا أفكِّـر في هـذا بَعـدُ. الشـيخوخة آخـر مـا ببـالي.

الأمـر كلُّـه عَمَـل، عَمَـل، عَمَـل، ثـم يحـين موعـد النـوم. كي نسـتيقظ في الخامسـة صبـاح اليـوم التـالي.

حسـنًا، إنهـا 22:22 بالفعـل، تأخَّـر الوقـت، حـان موعـد نومـي. أنـا مُنهَكَـة.

اكتُبْ لي، أحتاج لذلك حقًّا. أرجوك!

"إيڤا".

***

أخي!

كل خطـابٍ يَصِلُنـي منـكَ هـو سـببٌ للاحتفـال. عـلى الأرجـح لـن يكـون لـرَدِّي نفـسُ الوَقْـعِ عليـكَ.

أنـا مُبَعـثَرَة لمائـة قطعـةٍ صغـيرة، شـظايا زجـاج. أحيانًـا، يبـدو لي قـاعُ قِـدْرٍ اسْـوَدَّ بالسُّـخام حلـوًا وأبيـضَ، وأحيانًـا أخـرى، يبـدو لي كـوب الحليب

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

أحمرَ كما لو تسيل منه الدماء. سيكون هذا الخطاب نفس النوع من الفُسَيفِساء.

أحسَبُكَ تعاني أنتَ الآخر من بعض التَّشتُّت الآن. سأعطيك نصيحةً واحدة: لا تترك التعليم. كما تحتاج الشَّمسُ القَمَر، كما تحتاج النبتة جذورها، كما تحتاج السَّاق القدم، كما تحتاج النَّجمَةُ بَريقَها؛ كذلك يحتاج كلُّ شيء وكلُّ كائِنٍ إلى أساس. التعليم سيُعطيكَ الأساس الذي تحتاجه لتقف على قدميك. بمجرَّد أن تُنهي تعليمك يمكنك أن تصير رومانسيًّا أو أناركيًّا أو فنَّانًا أو عالِمَ رياضيَّات- كيفما كان قدرك. لكن في الوقت الحالي، ابنِ أساسَكَ، وإيَّاك... إيَّاكَ أن تترك التعليم.

سأعترف أنني إلى الآن يقف شَعري كُلَّما باغَتَتني حقيقةُ أنَّني أعيش في هذا العالم القاسي البدائي البسيط حيث نطرح أنا وأندريس الأسئلة على أنفسنا باستمرار، ولكننا أبدًا لا نتكبَّد عناء محاولة إجابتها أو حتى سَماعها. ولا بهجة هناك في المرآة، ولا في الطيور، ولا في الطبيعة. كلها مجموعة من الأكاذيب. كلمة "بهجة" نفسها كذبة.

يقع أمثالنا في حُبِّ أشخاص غير واقعيين، مِمَّن يُشِعُّون بوَهَجٍ غريب. لأنني تَوصَّلتُ إلى الاستنتاج التالي- السبب الوحيد وراء حُبِّي لزوجي هو أنه نجمتي التي لها بريقها الخاص، بريق داخلي مُميَّز نوعًا ما (ربما قاتم).

الشخص نفسه ليس ملكًا لك، إنه وَهَجُ بريقِه- هذا هو ما تملكه. الروح، لا الجسد! كتبْتَ لي "كيف يُعجِبُكِ وأنتِ حتَّى لا تعرفينه!"- نعم، وهذه هي المسألة. أنا لا أعرفه: ربما لهذا لن تكون هناك خيبة أمل؟

حتى لو كان هناك آخرون، وحتى لو كنتُ معهم، سيظلُّ هو مثاليًّا بالنسبة لي. وأن أكون معه في الحياة: هذا أقصى ما يمكنني أن

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

أطلبه. ترى، ليس لديَّ ما أُقدِّمه للعالَم لو لم يكن لديَّ ما أُقَدِّمه للحُبِّ.

وفي النهاية، لقد حالفني الحظُّ نوعًا ما؛ ففهمي للحياة ليس مُرَكَّبًا أو مصقولًا كفَهمِكَ. لا يسعني سوى الاندهاش من طريقة تعبيرك عن نفسك، صورتك التي أرسلتها، والشعور بالأسف حيال نفسي. دعني أخبرك أنك واحِدٌ من العجائب القليلة جدًّا التي أعرفها. قطعًا عليك أن تُنهي ما بدَأتَه. قطعًا.

هناك بيت للحراجيَّة، ليس بعيدًا عن بيت الزاري، حيث تعيش تلك المرأة الغريبة المَدعوَّة ستاسي. يمكنك أن تُخمِّن من الخطاب أنني ذهبت لزيارتها بضعة مرَّات. إنها تخيفني، لكنني مُنجَذِبَة لعقلها اللامع وأفكارها. كل مرَّة أعاهد نفسي أنني لن أُكلِّم ستاسي ثانية أبدًا، لكنني سرعان ما أنسى. المَلَلُ مُميتٌ هنا. وزوجي ليس ماهِرًا في الحديث، نتحدَّث عن الزراعة والأبقار والميكانيكا، لكننا أحيانًا نقضي يومَنا كلَّه دون أن نقول لبعضنا ولو كلمة واحدة.

ستاسي لها ابن، أكسيلز، وهو في مثل عمرنا.

شابٌّ ذكيٌّ ومُسالِمٌ نوعًا ما. امتدَّت جلستي الأخيرة مع ستاسي لمنتصف الليل، ومشى أكسيلز معي للبيت. الغريب أنه -عند البوَّابة- ظَلَّ يُراقِبُني حتى دخَلتُ البيت، وبعدها شعرت بالذنب حيال أندريس الذي ظلَّ في الدار مع ابنتنا. أول مرَّة أشعر بشيء كهذا. غريب. وماذا في ذلك؟!- كما كانت يونسي، صديقتي الأيسلندية، لتقول. ما سبب تلك النظرة حين أخبَرتُه أنني ذهبت لزيارة ستاسي وأكسيلز؟ ألا يمكن أن يكون لي أصدقاء؟

سألت نانا مرَّةً لو حَظِيَت بأي أصدقاء في حياتها. أجابتني: "ماذا تقصدين بأصدقاء، كانت لديَّ أُسرَة، ولم يكن لديَّ وقت للأصدقاء". ربما ما كانت تعنيه، هو ذلك الشعور بالذنب، كون كل شخص جديد

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تقابلـه، يسـتهلك كلـمات كانـت مُقـدَّرَة لزوجـك؟ لكـن أيمكـن للكلـمات أن تُقـال أبـدًا؟

لـو كان كلامـي غـير منطقـي بالنسـبة لـك، إذًا دعنـي أخـبرك أننـي شـخصيًّا لا أفهـم الأمـر كلِّيًّا حتـى. ببسـاطة: لقـد تعرَّفـتُ عـلى جيراننـا، وهـذا كل مـا في الأمـر. هـذا مـا أخـبر نفـسي بـه وهـذه هـي الحقيقـة!

في الختام، سأكتب شيئًا أظل أقرؤه مع زوجي في عقلي.

ليباركك الله!

"إيڤا".

***

"أننـي أريـدكَ أنـتَ، أنـتَ وحـدك- ليكرِّرهـا قلبـي بـلا نهايـة. كل الرغبـات التـي تُشَـتِّتُني، ليـل نهـار، زائفـة وفارغـة حتـى النُّخـاع.

بينـما الليـل يُخفـي في كآبتـه التـماسَ الضِّيـاء، حتـى حينهـا، في أعـماق لا وعيـي تَـرنُّ الصَّرخَـة: أريـدُكَ أنـتَ، أنـت وحـدك.

بينـما العاصفـة لم تَـزَل تسـعى لنهايتهـا في سـلام، وهـي التـي تـضرب السـلام بـكل قوَّتهـا، حتـى حـين تندلـع ثـورتي عـلى حُبِّـكَ، مـا زالـت الصرخـة: أريـدك أنـتَ، أنـتَ وحـدك:.

"ر. طاغور".

***

اللعنة يا أخي أنا في الثامنة عشرة! لكن، أهذا سببًا للبكاء؟

لا يطاوعني قلبي على وداعِكَ بَعدُ.

بالحديث عن أكسيلز.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

أكسيلز لديه الكثير من الكتب في بيت الحراجيَّة. وقد قرأها جميعًا.

أندريس قرأ كتابًا أو اثنين في حياته كلها، وعلى الأرجح كان كُتيِّبَ تعليماتٍ لتركيب مَوقِدٍ حَجَريٍّ. في البداية، كنت أقرأ له كثيرًا -لا تضحك، كان هذا قبل أن نذهب للنوم- وكان دومًا ما ينام بعد الفقرة الأولى.

أعطاني أكسيلز قصَّةً غريبة لأقرأها. سأكتبها إليك ثم أحرقها بعد ذلك؛ لأنني لا أريد التفكير إلَّا في أندريس، ولا أريد الاحتفاظ بخطابات الأغراب في البيت. سأحرقها على الأرجح! نعم، على الأرجح! دون شَكٍّ! ولو كانت لذلك النَّصِّ الشاعري أيَّة قيمة! لا أعرف من أين حصل عليها، أنَسَخَها عن كتابٍ ما أم ألَّفَها بنفسه. لكن اقرأها بنفسك:

قالت النجمة كنت أعلم بالفعل- ثم بكت على كتفي، فأذابت على الأرجح، قطَعَ الثَّلج التي عَلقَت في رموشها من وقت آخر. قالت إنها ذهبت لزيارة شاعرٍ فقيرٍ يعيش في علِّيَّة. صلَّى الشَّاعِرُ للنَّجمة كثيرًا في ضوء القمر الشاحب- كان خَشِنًا ونَهِمًا ومُتَّقِدَ العاطفة. وذهبت له النَّجمة. بالمعنى الحرفي. بطريقةٍ وحدَها النُّجومُ تَقدِرُ بها على الذهاب إلى الناس. والشاعر؟ انتَحَبَت النجمة الآن بمزيد من المرارة. وقف الشاعر مرتبكًا. رماديًّا، رماديًّا، رماديًّا للغاية.

"كيف"- سأل الشاعر "يمكنك أن تكوني بتلك البرودة حقًّا؟".

"كيف"- سأل الشاعر "لستِ كوكبًا، بل نجمة صغيرة؟".

"وقولي لي أيَّتُها النجمة، ماذا أفعل بكِ؟".

قالت النجمة إنها كانت تعلم ذلك بالفعل. راحت واستلقت على الطريق اللبني، وركَّزَت كل انتباهها على ذاتها، وانفجرت. رأى مئات

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

الشُّعراء ما حدث وقالوا لأنفسهم " أوه! سقَطَت نَجمَة!"، ووُلِدَت مئات القصائد، بمئات الأوصاف المختلفة للنجوم.

ذهبتُ لأرى ذلك الشاعر، وقفتُ في نافذته العالية في العلِّيَّة، ونظرت لأسفل. وها هو مستلقٍ، تجمَّد بالفعل بعد أن سقط. أغوت النَّجمَةُ الشاعِرَ. لم تكتفِ بالاستحمام بوهج الإعجاب، بل جاءت ونظرت في عينيه مباشرة.

سيُدَمَّرُ الناسُ دونما قصدٍ بالنجوم التي تتجوَّل في حياتهم.

وأنا في انتظار نجمتي...

***

مرحبًا يا عزيزي!

أأنا بحاجة حقًّا لأقول إن خطابك منحني شحنةً عاطفية رائعة أخرى؟ هذا الصباح يقول أندريس- لديكِ خطابٌ، تَحمَّسي! ذهبت إلى البيت فورًا، شغَّلتُ بعض الموسيقى- وأيَّ ارتياح وَجَدتُ في قراءة خطابك...

غريبة هي الطريقة التي تتحقَّق بها النبوءات من الأفكار التي تحوم فوقنا في السماء في أية لحظة.

نحن على نفس الموجة يا أخي. أقرأ خطابك وأشعر أن كل ما يحدث يحدث لي أنا. رغم أنني أجرؤ على قول إننا نحيا في عالَمَيْن مختَلِفَيْن تمامًا. على الأقل في المظهر المادِّيِّ الخارجي.

شَبَبتَ أنتَ على الاعتناء بحياتك الروحانية. تَرَكتُها أنا تنسلُّ مني، وهو ما أندم عليه أحيانًا.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

مَـن يعـرف كيـف يُفـترض بنـا أن نعيـش؟ ليسـت هنـاك وصفـة مُحـدَّدة، وبـين الحـين والآخـر، نشـعر بالكثـير مـن الوحـدة، بأننـا غـير مَحميِّـين. خصوصًـا لـو تَعـيَّن علينـا اتخـاذ قـرارات صعبـة.

الجـوُّ لطيـف اليـوم. ضبـابي ودافـئ. تندفـع البراعـم مـن جـوف الأرض وتُغـرِّد الطيـور عـلى كل غصـن. يمكننـي إبقـاء النافـذة مفتوحـة والاسـتماع للمهـور الوليـدة في المـرج، وصهيلهـا العـالي بحثًـا عـن أمهاتهـا.

لـديَّ أيضًـا رَجُـلٌ يُحبُّنـي، وطفلـة نُحبُّهـا، ولدينـا بيـتٌ، وسـلامٌ وأمـان. إنهـا مشـاعر رائعـة حقًّـا. كـم يجيـد إبقـائي في اللجـام بهـذا السـلام! يُمكِنُـكَ القـول بـأن ثقتـه لا يمكـن كسرهـا- اركُـضي في العـالم، اجمحـي، افعلي أشـياء ذكيَّـة أو غبيَّـة، لكـن مهـما فعلـت، سـتعودين إليَّ حـين تحتاجـين شـيئًا حقيقيًّـا! كـما لـو كان يفكـر بتلـك الطريقـة، وربمـا كان مُحِقًّـا. سـيخبرنا الوقـت.

أنتَ... وأنتَ وحدَكَ المسؤول عن المتاعب التي تُسَبِّبُها لنَفسِكَ.

"حبيبتك دومًا، إيڤا".

***

أهلًا!

يا لروعة

أن تتحرَّر من الشكِّ! أن تكفَّ عن إخفاء

العيوب خلف الدانتيل، والعجز وراء الضحك

وأن تراهن القَدَرَ، لِلَيلَةٍ واحِدَة

على كلِّ شيء، كورقة رابحة

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

هـذه هنـا هـي أمانـدا إيزبورييتـي. شـاعرة رائعـة، شـخصية ذكيـة، والأكـثر مـن ذلـك، أنهـا ربَّـت أربعـة أطفـال.

قلتها، وكتبتها، وأنا الآن مُحرَجَة. أيُمكِنُ قول ذلك في جملة واحدة قصيرة؟

إلى جـواري مزهريَّـة زرقـاء، فيهـا نـدى عنـبر أزرق ومخمليَّـة صفـراء. كان غروبًـا مدهشًـا حـين اسـتلمت خطابـك مسـاء السـبت، لكـن مـن هنـا، مـن الجنـة، كلهـا تبـدو كذلـك (بالجنَّـة أقصـد الشُّرفـة). كانـت الشـمس حمـراء، والسـحب بنفسـجية ومنتفخـة، وكان السـنونو يغـرِّد.

من أين أبدأ إذًا؟

بالأحرى: أَيَجِبُ أن أفعل؟

بـدأت أظـنُّ أن النـاس إمَّـا يتَولَّـون أمـر كلِّ الأشـياء الهامَّـة عـلى مـرَّةٍ واحـدة، أو لا يفعلـون عـلى الإطـلاق.

"إيڤا".

لا تسألني

عمَّا تعنيه الكلمات

إنها مجرَّد كلمات

ما الكلمات؟

إنها بالأساس

زوائد صرخات

من البيت المشتعل

حيث عليَّ أن أبقى

"أ.إ".

***

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

أخي!

إذًا- قُضي الأمر.

عليَّ الاعتراف ببعض الأكاذيب. أحاول بكل قوَّتي أن أظل سعيدة! في كل خطاب لك وفي كل جملة. جرَّبتُ أن أقرأ بعض الكتب وأتوه في الاقتباسات- لم يفلح شيء. أنا في بئس حالٍ. لم أَعُد أعرف بِمَ علَيّ التمسُّك. يظنُّ أندريس أنني أخلق عالمًا خياليًّا من حولي، لا أعيش في الواقع. ربما اللَّومُ على الكتب؟ لقد قَرَأتُ الكُتُب منذ صِغَري كالمهووسة، وعلى الأرجح فَعَلَت الكلماتُ أفاعيلَها بدماغي.

ما الذي يحدث لنا؟

أعني- لنا جميعًا. كما لو أن البلد بأكملها فقَدَت صوابها. أوَّل أمس، صفُّوا حظيرة ماشية تابِعَةً لشركة مساهمة، كان يجب أن ترى المشهد! لا توجد كلمات لوصف ما حدث! أسرع الجميع كالمجانين للعثور على أفضل بقرة. قادوا سياراتهم الصغيرة وشاحناتهم وتعاركوا بصوت عالٍ على الماشية. رأيت نساء محترمات، كبيرات عائلات، يُمَزِّقن شعور بعضِهنَّ ويبصقن في وجوه بعضهن. بعض الرجال أتوا بجزَّارٍ معهم بالفعل، ليطرق أبقارهم بالمطرَقَة، ويُعلِّقها على الخُطَّاف، ويسلخها هناك تمامًا في المَمَرِّ. وكان هناك أطفال بالمكان! أتذكَّر عيون الأبقار وقد اصطفَّت كما لو في عِقدٍ على الخرسانة المُترَّبة. كنت أخوض في الدماء يا أخي، وليس هذا مجازًا.

تنازَلَت نانا عن حصَّتها لنا، لكنَّني أرَدتُ الخروج من هناك. من الجيد أن أندريس هادئ جدًّا. "ابحثي عن بقرة، لا تنظري لما يفعله الجميع!"- قال. لاحظنا بقرةً أصغرَ قُربَ الباب، مائلة للرمادي بخُصلَةٍ داكِنة بطول ظهرها. سجَّلنا اسمها في الدفتر وقُلنا إننا سنعود بعد قليل لاصطحابها. كانت المسكينة ترتجف في سلسلتها، وقد أرعبتها كل تلك الدماء. أرَدتُ أن أضع حبلًا حول قرونها وأسحبها بعيدًا عن

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

كل هـذا الجنـون بأقـصى سرعـة مُمكِنَـة. حسـنًا، لكـن الطريـق طويـل جـدًّا عـلى المـشي، والطفلـة كانـت نائمـة في السـيارة. غادرنـا المـكان حالمـا اسـتطعنا، وفي الباحـة الأماميـة، كان أحـد الغجـر يربـط عجـلًا -حيًّـا!- في جانـب درَّاجَتـه البخاريـة، ثـم انطلـق عـلى الطريـق، ورأس العجـل مسـحولٌ خلفـه عـلى الأرض.

ما الذي يحدث لنا؟

ولسـوء الحَـظِّ، طلـب أكسـيلز مـن أندريـس أن يذهـب معـه لحظائـر الخيـول. يعمـل أكسـيلز مـع الخيـول كفتـى اسـطبل، وكان عليـه أن يحـضر حصانًـا لمحطَّـة تصنيـع اللحـوم، لكـنَّ جَـرَّار الحظـيرة كان مُتعطِّـلًا.

وضعـت مونتـا في عربتهـا وخرجنـا مـن الحظائـر. كان الجـوُّ مُشمِسًـا للغايـة بعـد أيـامٍ عديـدةٍ مـن المطـر.

وكان ذلك الحصان!

قلتُ لكَ من قبل إن مَرجَ الحظائر ينتهي عند حديقة خضراوتنا.

مـرة، منـذ شـهر تقريبًـا، كنـتُ أعمـل في في الأرض بالشـوكة حـين بـدا فجـأة كـما لـو أن عاصِفـةً قـد هبَّـت في المـروج. كانـوا يحاولـون ترويـض حصـان أسـود. لاحقًـا، قـال أكسـيلز إن هـذا الحصـان فيـه دمـاءٌ سـيِّئة، دمـاء مـن حصـان بـارون. مثـل هـذه الأحصنـة بغيضـةٌ للغايـة، حتـى إنـه مـن النـادر أن يقـدر أقـوى الرجـال عـلى التعامُـل معهـا. ليضعـوا سَرجًـا عـلى ظهـر هـذا الحصـان للمـرة الأولى، اسـتدعوا خبـيرًا يَبعُـد عَنَّـا بعـدَّة مقاطعـات. لكـنَّ خِبرَتَـه لم تسـاعد. أفلـت الحصـان وصـار يجـري في أنحـاء المَـرجِ كـما لـو كان تجسـيدًا للرَّعـد نفسـه، رافسًـا الرَّمـلَ بسـيقانه القويـة المُشـعِرَة. اهتـزَّت الأرض. شـخر الحصـان وصهـل ورفـس ومـزَّق اللجـام الجلـديَّ بأسـنانه. كان الأمـر كـما لـو تحـرَّر الشـيطان نفسـه مـن الجحيـم، وتابـع النـاس مـا يجـري عاجزيـن.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

في النهايـة، انزلـق الحصـان واصطـدم بأحـد الأسـياخ الحديديـة القصـيرة التـي تحيـط بالمـرج.

إلى حتفه تمامًا.

لأنـه -كـما قـال لي أكسـيلز- حـين حـاول الوقـوف عـلى قدميـه مـرة أخـرى، كُـسِرَ أسـفل ظهـره. وقُـضي الأمـر. حاولـوا رعايتـه كي يسـتردَّ عافيته، لكـن دون جـدوى. قـال الطبيـب البيطـري إن أفضـل طبيـب لأي حيـوان هـي الطبيعـة. وبعدهـا، رأيـت الحصـان الأسـود بضـع مـرَّاتٍ يتجـوَّل في بسـتان التفـاح. أُطلِـقَ سَراحُـه ليكـون مـع بقيَّـة الأحصنـة- كان الآن كسـيحًا يسـير ببـطء تحـت الأشـجار المُزهِـرَة. ضحيَّـةَ كبريائـه الخـاص.

إلى أن استقلى أخيرًا تحت شجرة تفاح، ولم ينهض ثانية.

احتاج الأمر جهدًا جماعيًّا لإيقافه على قدميه وإعادته إلى الحظائر.

فـور وصولـه، سـقط أرضًـا في مربطـه، وعلـم الجميـع أنـه سـيبقى عـلى الأرض هـذه المـرَّة.

مـا الـذي يُمكِنُـكَ فِعلُـه؟ إذا مـات حصـان، فإنـه يُؤخَـذ إلى مقـبرة الحيوانـات، ويُلقَـى في حفـرة يحيطهـا العشـب الأخـضر، وأشـجار التَّنُّـوب الخـضراء المُزرَقَّـة، والغربـان عـلى الأغصـان- شـديدة اللمعـان والامتـلاء كالديـوك الرومـي، بالـكاد تسـتطيع الطـيران. وتتراكـم كـرات الثلـج الضخمـة عـلى قبـور الحيوانـات.

وإذا أُخِـذَ الحصـان إلى محطَّـة تصنيـع اللحـوم؛ تجنـي المزرعـة المـال، وليـس هـذا بالأمـر الهَـيِّن للعاملـين الذيـن لم يتقاضـوا أجورهـم منـذ عـدَّة أشـهر. لكـن عليـك أن تأخـذ الحصـان وهـو مـا زال حيًّـا.

وأنـا متأكِّـدَة مـن أنـك تفهـم يـا أخـي أن هـذا الحصـان لم يكـن مـن الممكـن أن يُؤخَـذَ ويُحمَـل إلى شـاحنة الجـزار. فكَّـروا وفكَّـروا، وفي النهايـة

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

طلبوا من أندريس أن يُحضر جرَّاره، وذهبتُ أنا معه. وهناك بدأ كل شيء.

كان الحصان هناك، مستلقيًا على جانبه الأيسر في ذات البقعة التي كان فيها من أسبوعٍ مضى. ربَطَه الرِّجالُ بالأحزمة والسلاسل كما لو كان صخرةً ضخمة، واستخدم أندريس جرَّاره في سَحْبِه إلى المَمَرِّ من النافذة الأخرى. ثم سَحَبه للخارج بطول المَمَرِّ. ظلَّ الحصان مُعتَدًّا بذاته طوال الوقت، ظلَّ رأسه مرفوعًا. فقط كان يَئِنُّ بين الحين والآخر. تساقَطَت قِطَعُ الجِلد واللحم من قروح رقاده على الأسمنت.

بمجرَّد أن خرج، سُحِبَ عبر الطين لشاحنة الجَزَّار ورُفِعَ برافِعَةٍ إلى مُؤخِّرَتها. ثم اختفى الحصان من الطريق- هادئًا، نصف مسلوخ، ورأسه ما زال مرفوعًا.

آنذاك، سألهم أكسيلز أن يُخَدِّروه. قالوا لا. سخر أندريس من أكسيلز ونعته بالخَرِيَة الصغيرة التي تسدُّ الطريق. كان هذا بغيضًا. بعدها، سَبَبتُ أنا أندريس وكِدتُ أقتلع عينيه، وغادَرتُ مع أكسيلز. ومع مونتا في عربتها. عبر الطريق. تلك الليلة لم أَعُد للبيت لأحلب الأبقار حتى. قاد أندريس إلى بيت حُرَّاس الحراجيَّة مخمورًا تمامًا، مُهدِّدًا بإطلاق النار على أكسيلز. صَرَخَت ستاسي فيَّ أن أعود لبيتي ومعي طفلتي إن كنتُ لا أريد المتاعب.

باختصار، كانت فوضى تامَّة. وكل تلك المُقدِّمة الطويلة لأنني أريد أن أطلب رأيَكَ كشخصٍ خارج الموضوع. ما رأيك؟ هل آخذ مونتا وأهرب إلى ريجا وأبقى عند ماما؟ لا أظنُّ المسألة ستنتهي على خير.

كل التوفيق.

"أختُكَ".

***

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

أخي، أخي العزيز!

أوَّلًا عليَّ أن أقول شكرًا كبيرة على النقود التي أرسَلتَها. كان بادرة خارِقَةً منكَ أن تختار اليوم الذي لم يكن لديَّ فيه شيء، أي شيء على الإطلاق في البيت، وترسل النقود. الأمور كانت مُرَوِّعة؛ لهذا لم أكتب طوال تلك المدَّة. أقرض أندريس سيارتنا إلى صديق، وليلة الجمعة، صدمها وقَلَبَها على سقفها في خندق. الآن، لنصلحها، نحتاج للكثير من المال. ليست لدينا سيارة. لا يمكننا الذهاب لأي مكان. إذا مرض أحدنا فلن نستطيع حتى أن نذهب للطبيب. حمدًا لله أن نانا مقيمة معي الآن، تساعدني في رعاية مونتا. لكنَّ معاشها ليس كبيرًا. زوجي البَشِعُ ليس قَلِقًا بشأن حقيقة أننا لا نملك ما نأكله- كل ما لدينا يجب أن يذهب لإصلاح السيارة.

ثم يظهر ساعي البريد ويقول: "أُرسِلَت إليك بعض النقود!".

عرَفتُ على الفور. انتابتني قشعريرة قوية، ويا له من شعور! ثروة كاملة!

لا يعلم أحدٌ بأمر المال حقًّا ولن يعلم أحد كذلك. سأنفقه على شراء الطعام لمونتا. سأركب دراجتي إلى القرية بعد قليل. مونتا الصغيرة حياتها قاسية حقًّا. في ريجا، رأيت طفلًا في سِنِّها يَلتَهِم الموز والزبادي، وابنتي لا ترى سوى الفجل والفول.

الحياة هنا بَشِعَة. أشعر بما يحدث لي- أصير أكبر وأغبى. وأريد أن أشنق نفسي أيضًا. خصوصًا وأن البطاطا لم تُخَدَّد، وليس هناك أي حَطبٍ، والمَوقِدُ الكهربي نصف محترق. سأفقد عقلي.

لكن، ربما لن أفعل لأن أكسيلز هنا. وطوال الوقت لديَّ هذا الأمل في قلبي: ريجا. قد نذهب أنا وأكسيلز إلى ريجا في الخريف، لو سمح لنا ماما وبابا بالبقاء معهما. وسوف نستطيع الحصول على عمل، أليس كذلك؟

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

لكـن عـلى الأقـل نتمتَّـع بصحتنـا؛ لـذا لـن أتذمَّـر. مـا زال أكسـيلز يعمـل في الحظائـر في تذريـة القَـشِّ. أذهـب معـه للمسـاعدة. أحضرنـا قرابـة الثلاثـة عـشر طنًّـا بالفعـل. إنـه عمـل شـاقٌّ، يـدويٌّ. يدفعـون لنـا لات ونصـف في اليـوم. لم نَـرَ سـنتيمًا منهـا بعـد.

بامتنان

"أختك".

ملحوظة أخيرة:

وسرعان ما أَملُّ الأسواق كلَّها

لكنها تظلُّ في ذاكرتي

إلى الأمام، يا أَحصِنَة أحلامي،

إلى الأمام يا أصدقائي المُنهَكين

لتعدَّ الرِّيح المعاكسة أضلاعنا

وبعدها يمكنها أن تقضمنا حيث شاءت

تُمزِّقنا الأمطارُ عن الأبدية

وتمسح آثار أقدامنا بالفعل

"م. ميلجالف".

***

مرحبًا!

أكتـب إليـكَ بسرعـة وأنـا أبـكي؛ لأن صاحـب الحظـيرة أوسـترومس أُردِيَ قتيـلًا ليلـة أمـس. زار زاري في الخريـف المـاضي- توقَّـف ليقابـل جيرانـه، يلقـي التحيـة ويسـأل عـن فـرص شراكـة. أراد أوسـترومس أن يبنـي أوَّل

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

مَلعبِ جولف في لاتفيا هنا. يملك مائة هكتار بالفعل، لكنَّ حَقلَنا بجوار رُكن الغابة، حيث شجرة الصنوبر الضخمة قد يكون ذا فائدة له. وكنَّا على استعدادٍ لمَنحِه إيَّاه- الرِّمال أكثر من العشب هناك على أيِّ حال، ولا قيمة له كمرعى للماشية. كان أوسترومس اجتماعيًّا جدًّا: مائل للقِصَر، عينان يَقِظَتان، سهل المِراسِ كعُشبَة بَحرٍ في التيار. دعانا إلى دروس الجولف، وأرانا كيف نؤرجح المضرب وكيف نقف. كان عُمَّال الحظيرة أيضًا هناك- ضحكنا معهم وصادقناهم.

كان يقود من ريجا كلَّ عطلة أسبوعية. بنى ساونا قرب البحيرة- كل شخص في حكومة بلدنا الجديدة تقريبًا أتى لاحتساء الشراب فيها في ليالي السبت. كان أكسيلز يتذمَّر بشأن ذلك أحيانًا- في الليل كان الرجال المخمورون يذهبون لرؤية الخيول ويطلقونها في المرج، ثم يوقظون أكسيلز لإعادتها من بين محاصيل الفلَّاحين! كانت هناك بعض المشاكل مع شِلَّة ريجا، لكن على الجانب الآخر كانت الأمور حيويَّةً ونَشِطَة ومُفعَمَة بالأمل! جُدِّدَت الحظائر، وفُرِشَت المروج بالعشب، وتلاشت أكوام الطين اللا متناهية. كان هناك شعورٌ بالأمل في الأجواء.

والآن- أُردِيَ قتيلًا! وبعدها أُحرِقَ في الغابات خارج ريجا مباشرة، في سيارته. أفعلها اللصوص؟ أم الحكومة؟ والآن يسير الجميع مُتعثِّرين، بتعابير الحزن على وجوههم. لا يستطيع أحدٌ أن يصدِّق أن أمرًا كهذا قد حدث. أوَّلُ شخصٍ تُطلق عليه النيران منذ الصحوة. ما زال بوسعي رؤيته بوضوح- حيًّا كما للحَيِّ أن يكون. وهؤلاء الأصدقاء الذين كانوا يمضون كل عُطلَة معه جوار البحيرة، ويحتسون الشراب بجانبه في الساونا، ها هم جميعًا في الأخبار، يهزُّون أكتافهم في عجب، ويزعمون أنهم لم يقابلوه في حياتهم أبدًا.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

هنـاك شـائعاتٌ هنـا أن البـارون لَعَـنَ هـذه الأرضَ قبـل موتـه؛ فلـن يشـعر كلُّ مَـن يعيـش عليهـا بالسـعادة أبـدًا. لكنهـا مجـرَّد حكايـات- غبيَّـة بالطبـع.

أنا قَلِقَة...

"إيڤا".

***

باڤيل، هيه!

تُوَبِّخني لأنِّي لا أكتب.

فقط لو تعلم.

أوه، لا أُبالي حتى.

سأعطيكَ الحقائق وحسب. ببساطة ويُسرٍ. أرجوكَ لا تتفاجَأ.

أنـتَ تعلـم بشـأن أكسـيلز بالفعـل. سـتاسي كانـت أُمَّـه. كانـت؛ لأن بيـت الحراجيَّـة قـد احـترق. يقولـون إنهـا نامـت وهـي تُدخِّـن. مخمـورةً، ربمـا. لقـد بـدأ الجميـع هنـا في الـشرب. لا أعلـم حتـى متـى بـدأ الأمـر. لكننـا الآن نقـود سـيارتنا إلى مـادارا كلَّ سـبت.

أوه، لا أبالي حتى.

ومـا الـذي يمكـن فعلـه هنـا غـير ذلـك؟ عـلى الأقـل الحانـة مُسـلِّية، هنـاك نـاس. شـمبانيا. يقـود فتيـان القـرى المجـاورة إلى هنـا ويبـدؤون المشـاجرات مـع فِتيَـة القريـة. هنـاك نـوعٌ مـن القـوة بداخلنـا، إنـه أمـرٌ جنـونيٌّ، لا أعلـم، لـديَّ الكثـير مـن القـوة بداخـلي. لا يمكننـي تصريفهـا في أي مـكان؛ لـذا نـشرب. بالطبـع أنـا مُحرَجَـة. ذات ليلـة خرجـت مـن الحانة للحصـول عـلى بعـض الهـواء النقـي، وسـقطت عـلى أربعتـي. نهضـت، ثـم سـقطت عـلى ظهـري. ثـم مـرَّةً أخـرى- عـلى أربعتـي. ثـم عـلى ظهـري.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

ساعَدَني أحدهم على النهوض، فمَضَيتُ مُترنِّحَةً إلى الحمام لأغسل يديَّ، نظرتُ إلى نفسي في المرآة وفكَّرتُ: إيڤا، أنتِ؟

ترمقني نانا أيضًا بنظرات حانقة، تقول إنني أهجر طفلتي.

لقد صِرتُ أُدخِّن حتى.

أوه، لا أبالي حتى.

من المُمتِع أن أرقص في الحانة. أُطلِق لنفسي العَنان. أقود سيارتي من حفلة للأخرى. الأمر مُمتِع حتَّى في الصباح التالي، يُعجبني. أشعر شعورًا مريعًا، لكنني أختبر بعض السلام الداخلي.

قالت ستاسي إنه انتحار. أخبَرَتنا أن نغادر للمدينة فور استطاعتنا. أننا سنتعفَّن أحياء هنا. الريف هو الموت. هذا هو السبب الوحيد الذي انتقَلَت إلى هنا من أجله، لتَعثُرَ على الموت. كنتُ أراها امرأةً عظيمة، فقط تأتيها نوباتُ الغضب تلك، فتحطِّم أي شيء تطاله يدها.

كانت امرأةً ذكيَّةً للغاية، لكن- كما لو هزمتها الحياة. آه، ليكن، ما أقوله، إنها كانت نفسها. مثل يونسي. ستاسي كانت ستاسي. دون أعذار. كل ما فعلته كان عفويًّا، وكان نابعًا منها. يمكنها أن تكون شخصًا مرعبًا لثانية، ثم ألطف شخص في العالم في الثانية التي تليها. لكن بِغَضِّ النظر عمَّا كانته، لقد كانت نفسَها. حتى الاحتراق، كانت ميِّتةً تليق بستاسي. حتى وهي تحترق، عاشت. كان الحريق كله مُرَوِّعًا. حين عاد أكسيلز إلى البيت في اليوم التالي، فتح النافذة. وانفجر كل ما في البيت لحظيًّا. هذا ما يحدث، لو كانت النار قد بدأت تخمد بالفعل، يخلق الأكسچين انفجارًا. كانت ستاسي واقِفةً، ثم تَحَوَّلَت إلى عمود من النار. لا أظنُّ أكسيلز سيستطيع تجاوُزَ الأمر أبدًا. لم يذهب حتى إلى الجنازة، بقي في الدَّغل، يُحدِّق في كل شيء كذئب. انفطر قلبه، تعلم، لكن أندريس يضحك فحسب. إنه بَشِع.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

حين كان أكسيلز يعجز عن ذلك، كانت ستاسي تذهب مكانه وتطارد الخيول خروجًا من الحقول وعودة إلى الحظائر، إذا كانت الأقفاص مكسورة. كانت تقبض على أسرع حصان، وتمتطيه عاريًا، باللجام فقط. كانت تندفع أمامهم كما لو كانت جزءًا من رؤيا، كما لو كانت ساحِرَة! هكذا سيتذكَّرها الجميع- وشَعرُها يطير خلفها وهي تمتطي الحصان الأسرع.

يعيش أكسيلز معي في بيت الزاري الآن. خرَجَت أموري عن السيطرة تمامًا مع هذَيْن الرَّجُلَين. أكسيلز وأنا -كيف أصيغ الأمر- حسنًا، لم يَعُد بمقدورنا العيش بدون أحدنا الآخر، لكننا لم نَقُل أي شيء لأحد، لم نعترف بالأمر حتى لأنفسنا. لكن أندريس أحسَّ شيئًا، ينظر لنا بكراهية، ويزداد عدائيَّةً تجاهي، وفي النهاية، أصير أبكي على كَمِّ القسوة التي يمكن لإنسانٍ واحِدٍ أن يُضمِرَه!

بالطبع وبَّخَتني نانا أيضًا، لكن بِحُبٍّ. لقد رأت وعَلِمَت بكل شيء. والآن، عادت إلى الشاطئ. أوه، لا أبالي حتى. لقد سَئِمتُ كوني الشَّخصَ السَّيِّئ. من الأفضل لو لم يرَ أحدٌ ذلك.

آنذاك، كُنَّا نقود السيارة نحن الثلاثة ونذهب للحانات كمجموعة. أحيانًا كُنَّا نأخذ معنا أصدقاء آخرين. ذات مرة، في الطريق إلى الحانة، قفز أرنب من حقل القمح أمام السيارة مباشرة. توسَّلتُ لأندريس أن يوقف السيارة من أجله، لكنه طارَدَه كالمجنون إلى أن دهسه. حتى إنه أوقف السيارة جانبًا، ليلقي بجُثَّته في الشاحنة، لأعدَّها على الفطور.

لكن الأرنب لم يكن قد دُهِس. بل قذفته الصَّدمَةُ إلى حقل القمح- مَزَّقَت صرخاته صمت الليل. كان أندريس مخمورًا فلم يستطِع العثورَ عليه. تَرجَّلتُ من السيارة وشرعت في السير باتجاه البيت، لكنه سدَّ الطريق أمامي وأعادني إلى السيارة بالقوة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

وبعدهـا- في الحانـة! لا أدرى أكان بدافـع الانتقـام أم الانهيـار. عـلى الأرجـح كان شـيئًا ثالثًـا.

كانـت تلـك الأغنيـة الجميلـة، "بـلاك ڤيلڤيـت"، تلعـب. أنـت تعرفهـا. وذهـب للرقـص مـع أكسـيلز. رقصـة بطيئـة. للمـرَّة الأولى معـه. لم أَعُـد أبـالي، ولا هـو. لم نَـرَ سـوى أحدنـا الآخـر في هـذا العـالم المجنـون المضطرب. كان أقـرب للانهيـار حقيقـة.

وقرب النهاية، قَبَّلَني، للمرَّة الأولى.

لكننـي ابتعـدتُ عنـه، واسـتَعَدتُ تـوازُني، ورأيـتُ- خَمِّـنْ؟ عَينَـيْ أندريـس. كان يقـف جـوار الحائـط يراقبنـا بعنايـة.

أُصِبـتُ بالهَلَـع! لأن كل شيء حـدَثَ بعفويَّـة، تعلـم، لم أسـتوعب شـيئًا بَعـدُ، فقـط خفـتُ للغايـة: عـلى أكسـيلز، وعـليَّ وعـلى أندريـس. مـاذا سـيحدث لنـا الآن! ركَضـتُ إلى البيـت عـبر ضبـاب الصبـاح كجـروٍ مَذعـورٍ. حافيـة، بحـذائي في يـدي. تَبِعَنـي أندريـس في السـيارة وحـاول دهـسي طـوال الطريـق. ظَلَلـتُ أقفـز إلى القنـاة وأخـرج منهـا ثانيـة. كان الأمـر بَشِـعًا!

في البيـت، جذبنـي أندريـس مـن قفـاي ونفضنـي. وفجـأة، جلـس عـلى الطاولـة وشـهق بالبـكاء- راجيًـا إيَّـاي، حُبًّـا باللـه، ألَّا أَترُكَـه! وقـال إنـه يعلـم بشـأن مـا بينـي وبـين الخَريَـة الصغـيرة.

سـألته- كيـف عرفـتَ كُلَّ شيء ولم يبـدأ شيءٌ سـوى الليلـة؟ ربمـا، قُلـتُ لـه، لم أعلـم أنـا نفسـي بالأمـر! قُلـتُ، أعلـم الآن أن مـا بينـي وبـين أكسـيلز لـن ينتهـي لأننـي أُحبُّـه!

وأنا أُحبُّكِ، قال لي بصوت بالكاد استطعت سماعه.

أنـت لا تعـرف كيـف تحـب، أجَبـتُ بقَسـوَةٍ؛ لأننـي في تلـك اللحظـة تذكَّـرتُ الأرنـب نِصـفَ الميِّـت في حقـل القمـح.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

بعدها، انسحب هو بداخل نفسه، شرع يبيع الماشية، وباع حتى الجَرَّار ليُسدِّد قَرضَ البنك قبل موعده. باع كل شيء، لم يترك لي حتى طاولة المطبخ. لم يَعُد يُكلِّمني، يتصرَّف بجنون، يُمَسِّدُ شَعر مونتا ويبكي. خفتُ أن يأخذها مني.

وحسنًا، كان هذا الصباح المجنون ذاته حين عاد أكسيلز -الذي تركناه في الحانة بمفرده- بطيئًا إلى بيت الحراجيَّة. كان الباب موصدًا من الداخل، فدَفَعَه ودَفَعَه، ثم فتح النافذة- كان يعلم أيَّ نافِذَةٍ يُمكِن فَتحُها من الخارج. وانفجر المنزل كلُّه وستاسي بداخله، بكل مُتعلَّقات أكسيلز. تَحوَّل إلى أَلْسِنَةٍ من اللهب.

بعد الجنازة جاء ليعيش معنا. نعم، مرَّ وَقتٌ عِشنا فيه نحن الخمسة في بيت الزاري. كيف فعلناها، لا يمكنني شرح هذا بعدُ. لا، مهلًا، يمكنني شرح ذلك- لم نتكلَّم. على الإطلاق. لم يتحدَّث أيٌّ منَّا للآخر. لفترة طويلة كان بيت الزاري كمَملَكةٍ واقِعَةٍ تحت تعويذة سحريَّة. كل شيء مُمكِنٌ حين لا تتكلَّم. المشكلة الوحيدة هي أنك لا تستطيع التعامُلَ مع هذا النوع من الصمت طويلًا. بعدها ذهب أندريس للعمل في تصليح السيارات في ريجا، وعادت نانا إلى الشاطئ.

سنغادر أنا وأكسيلز إلى ريجا قريبًا. لو بقينا هنا سنموت جوعًا. للوقت الحالي، نُخطِّط أن نطلب من ماما وبابا أن نبقى في بيتهم. ستظلُّ غُرفَتُكَ خاليَةً لعامٍ آخر على الأقل. إذا رَفَضَا، سنفكِّر في شيء آخر.

هذا كل شيء يا أخي الصغير.

دون اقتباساتٍ- هذه المرة.

تَمَنَّ لنا الخير

"إيڤا".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

تمشي إيڤا عبر القرية وتقطع الهِندِباء بعصا يابسة.

لا تريد العودة إلى البيت.

عمدة القرية -سارميس- رَجُلٌ عجوز نحيلٌ بعينين ذكيَّتَيْن، وهو لا يستطيع الاحتفاظ بيديه لنفسه، سواء كان في المتجر أو في قاعة القرية. صفعة على الفخذ، دغدغة للقفص الصدري، عناق كَتِف. حين يأتي ليطلب سمك السلمون المدخَّن من نانا، دائمًا ما يقول باندهاش: يا لجمال إيڤا بعد أن كبرَت! صارت امرأةً، امرأة حقيقيَّة!

تضحك نانا وترسل إيڤا إلى القبو بحثًا عن عيش الغراب- وتسعد إيڤا بالمغادرة؛ لأن هذه الكلمة الغريبة "امرأة" ونظرات سارميس الزائغة ترسل الدَّمَ إلى وجنتيها.

لكن شيطانًا غريبًا يدفعها لإحضار عيش الغراب والعودة مُسرِعَة، وشَعرُها يهفُّ خَلفَها. تعود للجلوس جوار سارميس، والضحك، والتظاهر بأنها لا تلاحظ نظراته. دعيه ينظر، تقول إيڤا لنفسها، لن يقع أي سوء من مجرَّد النظر. الأمر مخيف قليلًا، لكن نانا وروبرتس هنا. لكنه مثير للاهتمام- ما الذي يراه سارميس حين ينظر إلى إيڤا؟ تودُّ أن تعرف في وقتٍ ما، لكن من غير المُمكِن أن تتسلَّل تحت جِلدِ شخصٍ ما.

سارميس أقلُّ شَيطَنَةً إذا ما قُورِنَ ببولينش الحراجي. يصادفان بعضهما على الطريق، ويتحدَّث بولينش بجرأة. وتلتصق كلماته بقلب إيڤا كأوراق الزَّيزفون- ناعِمَة ورقيقة. كلامُه معقول، وأفكاره واضحة. تصاعدي، جميل، رائع. المدرسة، الدراسة، المستقبل. ثم يحدث أن تنظر إيڤا لبولينش حين لا يتوقَّع ذلك. العينان الزرقاوان تحدِّقان فيها، بذات نظرة سارميس الجائعة!

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

وبولينـش لا يهـدأ. يـأتي يومًـا لـيرى روبرتـس بحقيبـة مملـوءةٍ باللحـوم المُعلَّبـة. كان مـارًّا بالصُّدفـة، وقـرَّر أن يتوقَّـف ويُذيقَهـم. تشـكره نانـا، يمدحـه روبرتـس- لحـم الأُيَّـل المفـروم مـع الخنزيـر المُقـدَّد، وليمـة حراجي حقيقيـة. ترسـل نانـا إيڤـا لإعـادة البرطمانـات الفارغـة لبولينـش في بيـت الحراجيـة، لكـن إيڤـا ترفـض. "خُذيهـم وحسـبُ"- تَزجُرُهـا نانـا، "أهـي صعبـة للدَّرجـة؟ لم يَجِـد هـو مشـكلة في أن يُحَـضِّر اللَّحـمَ ويحـضره إلى هنـا، رجـل وحيـد يعيـش بمفـرده في كـوخ الحراجيـة، لكنـه كادِحٌ جـدًّا!".

"لا شأن لي بمشاكله!"- جاء رَدُّ إيڤا القاسي بشكلٍ غير مُتَوقَّع.

وكـما لـو لم يكـن هـذا كافيًـا، يرسـل لهـم بولينـش كومَـةً مـن حطـب الصنوبـر المُجفَّـف. كافيـة لتغطيـة باحـة كـوخ الصيـد الصغـير الـذي يعيشـون فيـه. لكنهـا كانـت لفتـةً رقيقـةً للغايـة، حتـى إن نانـا لم تملـك سـوى أن ترفـع الحطـب إلى أنفهـا وتشـمَّ رائحتـه. أصفـر، خفيف كالريشـة، قـويٌّ كالبَلسَـم الطبـي، برائحـة النَّسـغ الطازجـة.

رغم ذلك، يشير روبرتس إلى أن حرق الصنوبر يسدُّ المدخنة.

"لا تنظـر في فـم حصـانٍ حَصَلـتَ عليـه كهديـة!"- تزجـره نانـا وهـي تُلَـوِّح بقطعتـين مـن الحطـب أمامـه. "كان مـن الممكـن أن تكـون مبتلَّـةً، لكنهـا جافَّـة ومُقَطَّعـة! التَّذمُّـر منهـا جريمـة!".

ولا يبالي أيٌّ منهما بالتساؤل عن سبب سخاء الحراجي المفاجئ.

وسرعـان مـا يـأتي بولينـش بنفسـه للبيـت، في ليلـة لم تكـن نانـا ولا روبرتـس في الـدار. لا بـأس، سـيجلس في المطبـخ لحـين عودتهـما، ويـشرب فنجانًـا مـن الشـاي. تهـزُّ إيڤـا كتفيهـا بـلا مبـالاة، وتعـدُّ لـه كوبًـا كبـيرًا مـن الشـاي، وتذهـب إلى الغرفـة الأخـرى. دَعْـه ينتظـر!

لكـن بولينـش يتبعهـا صامتًـا. تبحـث يـده عـن مفتـاح النـور عـلى الجـدار و -كليـك!- تَغـرَقُ الغُرفَـةُ في الظـلام. تنهـض إيڤـا مـن عـلى

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

الأريكة لتضيء النور ثانية، إنها عنيدة، تريد أن تزجر الحراجي -ماذا يَظُنُّ!- لكنها تجري كسمكة إلى ذراعيه. يقبض على مرفقيها، لا يقول شيئًا، فقط يُقَرِّب وجهه من وجهها ويحاول تقبيلها. تلمع عيناه بالضوء المنعكس عن الجليد. تشعر إيڤا كما لو كانت أرنبًا منوَّمًا مغناطيسيًّا؛ لأنه لا داعي للصراخ، أو لإبعاده أو ضربه- الفتى يتصرَّف برِقَّةٍ وبهدوء. لا تملك إيڤا سوى أن تُغَمغِمَ- كلَّا، كلَّا! تخفض ذقنها، تدفنها في صدرها، وتنفلت من يده وتهرب.

لو كانت أقلَّ حَرَجًا لأخبَرَت نانا. لكن نانا مَلاكٌ، لا يمكنه أن يسمع لمثل تلك الأشياء، وإيڤا تشعر أنها هي نفسها ستصبح مُلوَّثَة لو حَكَت مثل تلك القصص. وفي النهاية، هي لا تحب بولينش ولا تكرهه.

تهيم إيڤا بطول الطريق المُمتدِّ بين البحر والبحيرة، تضرب الهِندِباءَ بعصا؛ فتُبَعثِر رؤوسها البيضاء الهَشَّة، وتفكر وتفكر. تُحطِّم مُخَّها من التفكير.

"أهلًا، إيڤا، عَمَّ تبحثين؟"- يسأل إدفينس سائق القرية وهو يسرع بجوارها.

"الأمس"- تجيب إيڤا وتوليه ظهرها.

"ربما يمكننا أن نبحث معًا؟".

"لا تفعل سوى الكلام!".

"ما الذي يُمكِنُني فِعلُه يا عسل، عليَّ أن أعمل! ستأتين إلى الحانة الليلة؟".

"نعم، حين تطير الخنازير!".

يميل أرمينس، صديق أدفينس، بجسده من النافذة الأخرى.

"تعالي إذًا للسباحة معنا على الغداء! أودُّ أن أُجلِسَكِ على حِجري!".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"يُمكِنُكَ الاحتفاظ بعضوِكَ لنفسكَ!".

أن تقـع في براثـن هذَيْـن الثرثارَيْـن- كقـدر العَسـل يَقَـعُ في يَـدِ دُبٍّ! سـتعرف المقاطعـة كلهـا بالأمـر في الصبـاح التـالي. وإيڤـا أكـثر كبريـاء مـن أن تسـمح لشـخصٍ مـا بـأن يسـير في البلـد متفاخـرًا- لقـد حَظَيـتُ بإيڤـا إيجليتيـه!

هنـاك صبـيٌّ واحـد يُعجِـب إيڤـا أكـثر مـن الآخريـن، لكـن لهـذا عليهـا أن تبقـى بعيـدًا عنـه؛ لأنـه يـكاد يكـون مقسـومًا لهـا، مألوفًـا للغايـة لدرجـة تخيفهـا.

التقيـا في الشـتاء في رقصـة في المركـز الاجتماعـي. كان المدخـل يعـجُّ بالنـاس. تصاعَـدَت الأنفـاس كالبُخـار في الهـواء البـارد، الجميـع يُسَـلِّي الجميـع بمـزاحٍ مُبالَـغٍ فيـه. كانـت القاعـة الرئيسـية في المركـز أشـبهَ بِمَـرجٍ سـاخن بأعشـاب قليلـة متفرِّقـة. جلـس الأَحِبَّـة إلى الطـاولات التـي تراصَّـت حـذاءَ الجـدران، وتدلَّـت كـرة ديسـكو دوَّارة مـن السـقف، وعزفـت فرقـةٌ مَحلِّيَّـةٌ عـلى المـسرح.

لم يرقـص أحـدٌ. بالطبـع؛ فالسـاعة لم تتجـاوز العـاشرة، ولم يسـتجمع الشـبابُ القَـدرَ الـكافي مـن جـرأة الخمـر بعـدُ. بحلـول منتصـف الليـل تقريبًـا سـيتلوُّون ويرفسـون في منتصـف حلبـة الرقـص كالممسوسـين.

وقَفَـت إيڤـا قليـلًا، ثـم أصابهـا المَلَـلُ. اتَّجَهَـت للمخـرج. كانـت هنـاك مروحـة قـرب الجـدار، تطـنُّ وتُطـيِّر الشرائـط المُلوَّنـة المربوطـة فيهـا. وبالطبـع طَـيَّرَت أيضًـا تنُّـورة إيڤـا الخفيفـة. تراجَعَـت إيڤـا، ومسَّـدَت القـماش ليهبـط إلى مكانـه.

نظَرَت إلى أعلى، مباشرة إلى عيني أندريس.

كان الأمـر أشـبهَ بالتقـاء تحديقَـةِ شَـخصٍ تُحبُّـه بشـدَّة، ولكنـكَ لم تـره منـذ فـترة طويلـة. كعينَـيْ أخٍ.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

ولهـذا تتجنَّـب إيڤـا أندريـس. الجنـس مـع أخيهـا! لا تـرى في سِـفاح القُـربى شـيئًا جيِّـدًا.

اسـتمرَّ هـذا الشـعور الغريـب لثانيـة واحـدة فقـط وسـط صخـب الحفـل وفوضـاه. الظـلال الطويلـة المنحرفـة تحـت الأضـواء، صـوت المروحـة، دوران التنانـير، الموسـيقى، والآخريـن- كلهـم تلاشـوا ليفسـحوا المجـال لـزَوجٍ مـن العيـون المألوفـة للغايـة. لم تَـرَ وجهـه أو بنيتـه أو ملابسـه. لم تَـرَ سـوى عينيـه. وكل نصيبهـا في الحيـاة كان في هاتـين العينـين.

ثـم تنحَّـى الغريـبُ جانبًـا ليسـمح لإيڤـا بالمـرور. خفضـت هـي عينيهـا وسـارت للخـارج مُطيعَـةً.

الآن لم تَعُـد تشـعر بالملـل أو الـبرد. كان عليهـا أن تنتظـر إلى السـاعة الواحـدة بعـد منتصـف الليـل حيـث يسـكر الجميـع رسـميًّا، لكـن الفتـى الغريـب سـيكون يبحـث عنهـا. لا تعلـم إيڤـا كيـف كانـت واثقـةً تمامًـا من أنـه جـاء للبحـث عنهـا؛ فهـي لا تعرفـه. لا تعـرف شـيئًا: مـن أيـن جـاء، حتـى لم تَـرَه مـن قبـل أبـدًا؟ لـو كان مخمـورًا حـين يعـثر عليهـا؛ سـتفرُّ منـه. عـلى الأقـل هـذا مـا تبقَّـى لهـا مـن منطـق.

وجدهـا فيـما زاد عـن العـشر دقائـق بقليـل. أخذهـا مـن مرفقهـا بيـده الكبـيره الدافئـة، وقادهـا إلى حلبـة الرقـص.

لم يكـن أحـدٌ يرقـص، لكـن هـذا لم يَعُـد يبـدو مهـمًّا. المهـم هـو أن إيڤـا كانـت ترقـص مـع غريـب. كان باسـتطاعتها أن تفكِّـر في بضعـة مـرَّاتٍ تحوَّلَـت فيهـا بدايـةٌ واعِـدةٌ إلى كارثـة مُحقَّقـة.

لكـن هـذه لم تكـن واحـدة مـن تلـك المـرَّات. تحـرَّكا قليـلًا في أحـد الاتجاهـات، ثـم في الآخـر، قبـل أن يفـرد كلاهـما جناحيـه فجـأة ويطـير عـلى الأرضيـة الشـمعية المتشـقِّقة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

بعد نصف ساعة جيدة، فرَّ الاثنان إلى الخارج؛ ليُلقيا كرات الثلج على بعضهما ويهدآ قليلًا.

بعد ذلك، أمضيا نصف الليلة واقفَيْن في رواقٍ هادئ جوار الغرف الإضافية، كحصانين متعانِقَيْن. كان يحيط خصرها بيديه، ويغرس ذقنه القوية في الشعر حول أذنها. في البداية، قلقت إيڤا من أن تكون تَعَرَّقَت في سترتها البيضاء، أو أن يكون وجهها أكثر تورُّدًا من اللازم، لكنه ظلَّ يستنشق شَعرَها ولم يَقُل شيئًا، واسترخت إيڤا ببطء، لانت، أينعت.

"رائِحَتُكِ كرائحة الكعك"- قال، بصوت غليظ. هزَّت إيڤا رأسها. قبل الحفل، كانت قد أخَذَت كيسًا من الڤانيليا من خزانة نانا سِرًّا، ورَشَّت المسحوق الأبيض الثلجي الناعم على قماش سترتها.

ثم تبادَلَا القبلات، شفاههما حارَّة ومُتَشوِّقة.

"دعني أذهب!"- أسرَعَت فجأة عبر الرواق، مضطربة. لم تَعُد تفوح بالڤانيليا، بل بشيء آخر، أرَقَّ وأكثر دفئًا من الفانيليا.

في الحمام، فتحت الماء البارد، ومسحت وجنتيها ونظرت في المرآة.

وماذا الآن يا إيڤا؟

ما زالت تشعر بأنفاسه في شَعرِها المضطرب.

من الأفضل أن تعود للحفل.

اسمه أندريس، وهو من الأراضي الداخلية، لا عائلات الساحل.

يكبرها بعشر سنوات تقريبًا. يعيش في بيت الزاري، الذي كان ملكًا لجَدِّه، والذي عاد إليه بعد الصَّحوة. قبل أولمانيس، كان العقار ملكًا للألمان البلطيق. وحين استدعت ألمانيا الأم أبناءها للديار قبل الحرب العالمية الثانية، أسرع الألماني البلطيقي ببيع العقار إلى جدِّ أندريس،

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

وركـب سـفينة مـع بقيـة أسرتـه، ولم يَعُـد أبـدًا إلى هـذا الجـزء الموحِـلِ مـن العـالم.

فيـما مـضى، أيـام الزراعـة الجماعيـة، كان بيـت الـزاري مقـرًّا لورشـة قطـن.

بعـد الرقصـة، سـار أندريـس عائـدًا مـع إيڤـا للبيـت. كانـت ليلـةً لا نهايـة لهـا، رائعـة ومُريعَـة في آنٍ، كـما لـو حَقَنَهـا أحدُهـم بعقـار مـا، عقـار يُسـبِّب الشَّـلَل، أسـود، مخمـليٍّ، طيَّـار.

أخبرهـا أنـه كان في الجيـش، حـارب في أفغانسـتان، ولكنـه لا يريـد التحـدُّث عـن ذلـك أبـدًا. لا داعـي للتفكـير في الأسـوأ- لكـن كان هنـاك موقـف فقـد فيـه أربعـة رجـال حياتهـم بسـببه.

أصدقاؤه.

رجال كان يعرفهم حقَّ المعرفة.

لا يمكـن حتـى للنـاس في هـذا البلـد أن يفهمـوا ذاك المـكان، قـال. كان لديـه مُـدَرِّب جيِّـد في تدريـب الضُّبَّـاط في فيليانـدي، بـدأ محاضرتـه عـن أفغانسـتان بالسـؤال التـالي: لـو أن هنـاك نبـعَ مـاءٍ غـير بعيـد مـن بيتـك، وليـس في بيتـك مـاء جـارٍ، مـاذا سـتفعل؟

أحمل الماء في دلو- أجاب أحدهم.

أمدُّ خَطَّ أنابيب عموميًّا للمياه في النهاية- إجابة أخرى.

قـال المُـدرِّب مُشـدِّدًا عـلى كلماتـه، أنتـم ذاهبـون إلى بلـدٍ حَمَـلَ أُناسُـها المـاءَ وحملـوه، مـن الينابيـع إلى بيوتهـم، لآلاف السـنوات؛ لأن هـذا مـا وجـدوا عليـه آباءهـم وأجدادهـم. أمَّـا عـن مَـدِّ خَـطِّ المـاء العمومـي، فانسـوا أمـر التطويـر. هـذا ليـس بلـدَ تطويـر، بـل بلـد تقاليـد. وهـذا مـا سـتجرِّبونه بأنفسـكم.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

وجرَّبه أندريس. رأى الجَدَّ يُوَرِّث غلايين القُنَّب لابنه، ولحفيده من بعده. معتادون على المُخدِّرات من سِنٍّ مُبكِّرة، كأنها الخبز. رغم ذلك، لا خَمرَ. الكحول يُحوِّل الإنسان لمخلوق غير أخلاقي.

لكن- كفانا حديثًا عن ذلك.

هذا كل ما في الأمر، يقولها لها بغتةً، ولا يقول بعدها شيئًا! معذرة، لكنه سيقولها الآن- لِمَ كان ليتكلم عن الموضوع.

تهزُّ إيڤا كتفيها بلا مبالاة- لو لن تفعل حسنًا إذًا. لم يكن هناك داعٍ للتحفُّز حيال ذلك وحسب.

كان أندريس يعيش مع أبويه في ضواحي ريجا، ويعمل كميكانيكي سيارات. ثم عادوا إلى عقار جدِّه، ولم يفكر مرَّتَيْن- منذ الصحوة يسارع الجميع إلى الريف، للتجديد والبناء والتشييد. كابن وحيد، كان هذا أيضًا الطريق الذي ينبغي على أندريس أن يسلكه.

يتبادلان القُبَلَ تحت شجرة المُرَّان في باحة الزاري- يبدو أن هذا الطقس كان مُهِمًّا لأندريس: أن يُقَبِّلَ إيڤا تحت شجرة المُرَّان. البيت نفسه كان في حالة سيئة، تركت ورشة القطن بصمتها الداكنة السخامية على الجدران. كمن يستيقظ من ليلةٍ قلِقةٍ بوجه تملؤه تجاعيد الوسادة. السلالم نصف المتهدِّمة في منتصف المنزل، ورق الحائط المتقشِّر الذي يخفق مع تيار الهواء. لكن أندريس كان مفعمًا بالأمل- لديه جرَّار، وبيت الزاري، وخمسون هكتارًا من أراضي كورزيميه.

وفي أمسية جميلة من شهر يونيو، يجذب أندريس إيڤا بجواره على الأرض في بستان التفاح. يتبادلان القُبَلَ كالعادة، لكن بعد فترة، ينتقل توتُّرٌ غريبٌ من أندريس لإيڤا. تنظر إيڤا إلى عيني حبيبها شديدَتَيْ الصَّفاء.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يسأل أندريس:

"ما حكايتك؟".

تنظر إيڤا بعيدًا.

"أريده أن يَحدُثَ الآن".

ترى إيڤا أوراق الشجر وخلفها السماء. لونها أزرق.

ثـم تغمـض عينيهـا. بعـد قليـل، تشـعر بأنفـاس أندريـس اللاهثـة عليهـا.

"سيكون كل شيء على ما يرام"- يُتَمتِمُ.

يصطـرع تيَّـاران بداخـل إيڤـا، أحدهـما يحـاول كَبحَهـا، والآخـر يبتهـج- أخـيرًا، سـيحدث! منـذ اشـتَعَلَت النـار بداخلهـا للمـرة الأولى وهـي تتعذَّب، وتنتظر.

تحـاول قـوَّةٌ ضَخمَـةٌ اقتحامَهـا، تؤلمهـا، تبتعـد. يتبـع أندريـس جسـدها بـإصرار، كـما لـو ليقـول إن الفـضَّ مـن دون أَلَـمٍ لا يحـدث إلَّا في القصـص الخياليـة. عينـا إيڤـا ممتلئتـان بالدمـوع، ينثنـي شيءٌ بداخلهـا كجـسر مُشـاةٍ فـوق نهـر، ثـم يستسـلم. ينكـسر.

ثـم يطرحهـما النهـر الـذي لا يُقهَـر عـلى شـاطئه- الأرض تحـت وركيهـا صلبَـةٌ وحقيقيـة، شـأنها دومًـا. يسـتلقي أندريـس فوقهـا دون حـراك كصخـرة. ثـم يقبِّلهـا، ويتدحـرج بعيـدًا، وتـرى عينـا إيڤـا الزُّرقَـةَ الحَيَّـة مـرَّةً أخـرى. يُحلِّـق عصفـورٌ وحيـد في دوائـر، عاليًـا، عاليًـا في الهـواء. تفكِّـر إيڤـا- كيـف هـي الأمـور لـدى الطيـور؟ أن يكـبروا، ويقعـوا في الحـب، ويطـيروا. بشـكل طبيعـي للغايـة. أيؤلمهـم ذلـك أيضًـا؟

"لنتـزوَّج يـا إيـڤ"- تسـمع صـوت أندريـس. "لـن يعـثر علينـا أحـدٌ هنـا. المسـتنقع مـن ناحيـة، والغابـة مـن ناحيـة أخـرى. لِنَعِـشْ هنـا".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

"أنا في السابعة عشرة فقط"- تقول.

"سأنتظر".

مؤلم.

يصطرع تيَّاران داخل إيڤا، ضَربَتَا برقٍ، قَدَرَان. حتى الآن، سارت حياتها دومًا وفقًا لخطَّتها. الآن تشعر أنها حيوان حبيس. لا تستطيع أن تستمرَّ في العيش بالطريقة التي كانت تعيش بها من قبل، لكنها لا تعرف أية طريقة أخرى للعيش، ولديها شكوكها.

متى بالتحديد تَكَوَّن أوَّلُ شقٍّ في جدران هذا المنزل؟

والتناقُضُ الأوَّلُ في الالتزامات الأخلاقية المُفتَرَضَة في حياة شخصٍ ما؟

أحيانًا تقف القسمة في الطريق كلبًا ضالًّا، وأحيانًا يُصيبها السُّعار. لو مَنَحَتكَ القِسمَةُ أوراقَ لَعبٍ جيِّدة فهو أمرٌ عظيم، ولكن ماذا عن حرية الطفولة البسيطة؟

كانوا بالفعل قد انتقلوا لبيت الزاري، بالفعل أمضوا أيامهم ولياليهم معًا، لكنها في الوقت نفسه قالت لأندريس: لا تنتظرني. أنا لا أَعِدُكَ بأي شيء، لا أريد حتى أن أراك بعد ذلك! أصابها نوعٌ من الجنون. أرادت لو عادت الأمور لما كانت عليه من قبل، قبل أن تقابل أندريس، أن تعيش حُرَّةً كطيرٍ على شجرة. قالت تلك الكلمات القاسية، وكاد قلبها هي نفسها أن ينفطر.

لم يَعُد مُمكِنًا أن تحيا ببساطة بعد الآن.

لم يَقُل أندريس شيئًا بالمقابل، لكنه سكر بمفرده. جاء ليرى إيڤا وهو منهارٌ تمامًا. تقافَزَ الجرَّار على الطريق كحصان. تبعها أندريس عبر الغرف، باكيًا، دامعًا، مُقسِمًا بالأيمان. هَدَّد أن يقود سيارته في تلك اللحظة فوق الجليد وإلى البحر! لم تره إيڤا هكذا أبدًا. في النهاية،

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

أشـفقت عليـه، أرقدتـه، وأخـذت رأسـه الثقيـل في حِجرِهـا، وشـاهدته وهـو يـروح في النـوم.

حـين نظَـرَت للمـرَّة الأولى إلى عينَـيْ أندريـس الكبيرتـين الخضراويـن، بما تحملانـه مـن شَـذَراتٍ بُنِّيَّـة، وحُـزنٍ فضـوليٍّ، شـعرَت بقسـوة القِسـمَة، في كونهـا سـتحارب كي تبتعـد عنهـما، سـتنكمش خوفًـا منهـما، ولكنهـا، للغرابـة الشـديدة، سـتظل دومًـا خاضعـة لهـما.

الآن، ورأس أندريـس في حِجرهـا، تشـعر بـذات الـشيء مُضاعَفًـا. كيـف يمكنهـا الإفـلات منـه؟ انظـري كـم هـو مرتـاح الآن، غفـا سريعًـا! هـل تُحبُّـه؟ يُفـتَرَض أنْ نعـم. لكنهـا في الوقـت نفسـه تريـد أن تهـرب.

أين حريتها؟

حتى لو صرَخَت طلبًا للمساعدة- لا تظنُّ أن أحدًا سيسمعها.

حاوَلَت أن تتحدَّث في الأمر مع نانا:

"ما رأيُكِ في أندريس؟".

"وماذا هناك لأقول رأيي بشأنه، يا حلوتي، إنه فتى وسيمٌ وكادِحٌ".

"لكنَّ شيئًا فيه يُخيفني يا نانا. يقول الناس إنه مِزاجيٌّ".

"حسـنًا، ليظُـنَّ الآخـرون فيـه مـا شـاؤوا، لكنـه بالنسـبة إليـك، قـد يكـون ذهبًـا!".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

السَّبعينات

الانطفاء

يا لجمال الغيوم!

هـي والريـح والشـمس، أفضـل الرَّسَّـامين في العـالم. السـماء لوحـة. أحيانًـا، ينضـمُّ البَـدرُ إلى الغيـوم، وانعكاسـات الأرض في قطـرات النـدى.

أسياد توزيع الضوء.

ثـم يحـدث ذات يـوم، بينـما الغيـوم ترسـم، يحـدث أن يرفـع شـخصٌ رأسَـه وينظـر إلى السـماء. تنزَلِـقُ أشِـعَّةُ الضـوء عـلى وجهـه. دائـرة لا نهائيـة مـن الاشـتعال والانطفـاء. لا تعـرف أيـن تضـع قدَمَـكَ للخطـوة التاليـة لأن الأرض تشـتعل أمامـك، لكنهـا في عينيـك- تنفـح عـلى وسـعها. وحـين تخمـد، تصبـح مُعتِمَـةً، كأعـماق مسـتنقَعٍ يكسـوه العَفَـنُ. ينتهـي بـك الحـال تقفـز مـن نقطـة للأخـرى مـرارًا، حتـى ترتجـف الأرض. حـين ترسـم السُّـحُبُ النُّـورَ والظـلام.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

الـشيء نفسـه يحـدث في حيـاة الإنسـان- يمكـن لرُكـنٍ مُشـمِسٍ أن يغيـم فجـأة.

الخطـاب الوحيـد الباقـي بعـد ولادة باڤيلـس (مـن أخـت لوتسـيا إلى لوتسـيا).

لوتسيت!

أسـارع مـرَّةً أخـرى لزيارَتِـكِ. بالأمـس كنـتُ أركـض ككلـب مجنـون، لكننـي لم أتمكَّـن مـن العثـور عـلى كل مـا طلبتـه. أحـضرت لـك صدريَّتَـيْن، لم أسـتطِع أن أجدهـا سـوى في مَتجَـرٍ واحـد، وبمقـاس 5. قالـت فتـاة المبيعـات في المتجـر إن عـليَّ أن أشـتري مقاسَـيْن أكـبر. إذا كانتـا أكـبر مـن الـلازم فبإمكانـك قـصُّ الزيـادة وإعـادة تثبيـت الأزرار. لم أتمكَّـن مـن العثـور عـلى الحَـمَّالات التـي طَلَبتِهـا، لا القطـن ولا حتـى الشـاش. سـأُسرِعُ إلى الصيدليَّـات في شـارع لينينـا، ربمـا وجـدت شـيئًا في ذلـك الحـيِّ، لكنَّنـي أشـكُّ في ذلـك. لم يكـن هنـاك أيُّ قُطـنٍ أو شـاش في المدينـة منـذ شـهرين. علينـا أن نفكِّـر في شيء آخـر.

لا يمكننـي تهدئـة نفـسي- أظـلُّ أفكِّـر وأبـكي في إهـمال هـؤلاء الأطبـاء. مـن المثـير أنهـم جميعًـا قالـوا نفـس الـشيء، أن الإصابـة سـوف تُصلِـح نفسـها، لكنـك تقولـين إن ابنَـكِ مُعـاقٌ بالكامـل.

ربمـا سـيكون الأمـر كذلـك فعًـلا، سـيمرُّ شَـهرٌ أو نحـو ذلـك وسـيصبح ولـدًا طبيعيًـا. بالطبـع أُسـمِّيه باڤيلـس. إنـه اسـمٌ قديـم وجيـد. لكنَّـكِ لم تسـألي حتـى عـن رأي والـده. حسـنًا، سـأتوقَّف هنـا، لـن أنتظـر منـك أن تكتبـي لي. لـو اسـتطعت، هاتفينـي. سـأضع لـك كوبيـكان.

محبَّتي لبَطَليَّ.

(أعيدي البرطمانات على الفور، واغسلي العنب).

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

هـذا الخطـاب مُوجَّـه إلى لوتسـيا، في العنـبر رقـم 7. شـطبت كلمـة "عنـبر" بـإصرار، وكتبـت كلمـة "غرفـة" جوراهـا بالرصـاص بخطـوط مختلفـة. كـما لتقـول- لا يوجـد مـرضى هنـا! ومـع ذلـك، مـع ذلـك...

لم يكـن مَـرَّ عـلى ميـلاد إيڤـا سـوى عـام، لكـن هـذا الرُّكـن المُشـمِس صـار غائمًـا. كانـت أم إيڤـا قـد صاحـت في أبيهـا بالفعـل. نجـح والـد إيڤـا في إغضابهـا. أي امـرأة تجلـس في البيـت مـع طفـل لهـا مُخيِّلـة أكـثر وضوحًـا مـن أي كاتـب- لا تحتـاج للكثـير لتغضـب. بالـكاد يتحدَّثـان لبعضهـما الآن. في الـضرورة القصـوى: عـن الطعـام، أو السـاعة، أو الأقـارب المـرضى.

بعـد فـترة طويلـة مـن عـذاب التفكـير قـرَّرَت لوتسـيا أخـيرًا أن تُنجِـبَ طفـلًا آخـر. تضـع لوتسـيا ثقتهـا في القَـدَر وفي الأطبـاء وفي أُمِّهـا التـي أخبرتهـا أن كل شيء يكـون أسـهلَ مَرَّتَـيْن في الـولادة الثانيـة، وتَأمَـلُ في صَمـتٍ، في قُـرارة نفسـها، أن تصفـو السـماء مـرَّةً أخـرى بـولادة الطفـل الجديـد.

كما صَفَت بولادة إيڤا.

لكنهـا لا تفعـل. تـزداد قتامـةً. باڤيلـس ليـس مسـتعجلًا عـلى أن يولَـد، والأطِبَّـاءُ لا يتابعونهـا جيِّـدًا. ثـم يفـوت موعـد الـولادة بكثـير، ويبـدأ التَّسـمُّم. المخـاض نفسـه صعـبٌ، ينجـو باڤيلـس، لكـن تُشَـلُّ حَرَكَتُـه لبقيـة حياتـه، رغـم اتِّقـاد ذهنـه بشـكل اسـتثنائيٍّ.

وهنـاك شيء آخـر: تسـكن نملـةٌ بيضـاء مـن نـوع الخبيـث رأس لوتسـيا بعـد ولادتـه. لبضعـة أيـام في الشـهر الأول كان رأسـها يؤلمهـا بشـدَّة حتـى تتقيَّـأ، ولم يكـن بوسـعها أن تعتنـي بباڤيلـس بنفسـها. تسـتلقي دون حـراكٍ في غرفـة مُظلِمَـة. صـداع نصفـي نموذجـي لا يمكـن تفسـيره- يقـول الطبيـب. باولـس المزاجـي المشـغول أبـدًا ليـس سـعيدًا بذلـك. مـع أنـه يحـب ابنتـه وابنـه، إلا أنـه ليـس مسـتعدًّا لـتَركِ عملـه مـن أجلهـما. والأدهـى، أن باڤيلـس يحتـاج إلى رعايـة خاصـة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

يقرِّران أن يرسلا إيڤا للقرية الساحلية حيث يعيش والدا لوتسيا. في البداية، يشعر الجَدَّان بالقلق، لكن ما أن تصل الحفيدة وتضحك للمرة الأولى حتى يشعرا أنهما وُهِبَا هديَّة غير مُتَوقَّعة. كل ليلة، تعطي نانا حفيدتها حمَّامًا في قِدرٍ معدني كبير موضوع على موقد دافئ. بينما هي تفرك ظهر إيڤا، تواجه إيڤا الموقد، وتعبث بأدوات المطبخ، تقرع الحِلَل، وتلهو بكاشطات الرغوة، وتلمس أكواب الخزف والقدور المُعلَّقة على الخطاطيف.

يكبر الأخ والأخت بعيدَيْن عن بعضهما. لا تنفصل لوتسيا عن باولس أبدًا رغم أن حياتهما الزوجية خالِيةٌ من الانسجام، ولا تشعر لوتسيا بالسعادة إلا مرَّةً كلَّ فترة. لا تشرق الشمس على شقَّتهم في ريجا لأنها لا تغفر لعيني لوتسيا الحزينتين. كيف يتكوَّن ذلك الصَّدعُ الأول في بناء حياة المَرءِ؟ أفي اللحظة التي يحلُّ فيها الواقع محلَّ الالتزامات الأخلاقية المُفتَرَضَة؟

حين تشرع الغيوم في الرسم، تغيب الشمس.

ولادة إيڤا

في الوقت الحالي، هناك ثلاثة أشياء فقط تُثبِتُ ولادة إيڤا -سأهمس لكَ بها- ويمكن العثور عليها في علِّيَّة مبنى في ريجا، في صندوق خشبي مَطليٍّ باللون الأصفر، بنقوشٍ شَعبيَّة لاتڤيَّة محفورة على الغطاء. لم يرحم عَفَنُ العِلِّيَّة محتويات الصندوق- تكاد تكتسي بالكامل بهذا الدليل المُزغِب على مرور الزمن. خمسون خطابًا تقريبًا كتبتها أيادٍ مختلفة تحوَّلَت إلى كتلة خضراء مُسْوَدَّة من الفِطر، خطابات غير مُرتَّبة، مُكوَّمة في حزمة مربوطة بحبل نصف متآكل. يغطي الرماديُّ الرَّغويُّ لَمعَةَ بطاقات التهاني، حلقات من الطلاء الرطب فوق اللون

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

القبيـح؛ يجمـع الزمـن كل شيء في لوحـة قويـة. القبـح يخـون صاحبـه، الحقبـة السـوڤييتية، حقبـة القبـح. أكلـت الرطوبـة صُـوَرَ الأبيـض والأسـود- أعـمال الهـواة مـن تلـك الفـترة، حـين كان لـكل مواطـن سـوڤييتي يحـترم نفسـه غرفـة تحميـض صغـيرة في عمارتـه المبنيَّـة بالطـوب عـلى طـراز كروتشـيڤ. غرفـة تحميـض بمُكَـبِّر ومعالِـج وحمَّامـات كيميائيـة ومصبـاح للأشـعَّة تحـت الحمـراء. مُلَوِّحًـا لأُسرَتِـه، سـيختفي هـذا السـاعي للكـمال وراء السـتار عـصر كل جمعـة، ويغلـق البـاب، وفي الضـوء الأحمـر القاتـم، سـيريح فرخًـا خشـبيًّا مغطًّـى بـكل كنـوزه عـلى حـوض الاسـتحمام. وهناك، سـيجلس عـلى المرحـاض المُغطَّـى ويراقـب بعنايـة بينـما تنقـل كيماويـات المعالجـة الوقـت الضائـع إلى الـورق. ستُسـتخدم المُكبِّرة في اختيـار وجـوه بعينهـا مـن الحشـد، ويُسـتَخدَمُ المُعالِـجُ في إعـادة تنظيـم مسـتوى الكآبـة في الملامـح. كانـت بعـض أوراق التصويـر جافَّـةً؛ فتحـوَّل المشـهد إلى لـون القهـوة البُنِّـيِّ. البعـض الآخـر صـار غائمًـا، مُزرَقًّـا، وليِّنًـا قليـلًا. سـيصير هواء الحـمَّام مُحمَّـلًا بشـحنة إيجابيـة، ويَعبَـق برائحـة الكيماويـات. وسـيتنامى انزعـاج الأسرة؛ لأن الوسـيلة الوحيـدة لدخـول الغرفـة التـي تجمـع حـوض الاسـتحمام والمرحـاض -لقضـاء شـؤونهم الخاصَّـة- هـي التوسُّـل والتَّوسُّـل. سـيُكَفِّر المُصـوِّر الهـاوي عـن أفعالـه بالسَّـماح للأطفـال بتجفيـف الصُّـوَر المُبتلَّـة، وفَردِهـم عـلى لـوح التقطيـع، وتدريـم أطرافهـم بشـفرةٍ مُسـتقيمَةٍ أو سـلاح خـاص. إضافـة لذلـك، يختـار مـن يُـدَرِّم الصُّـورُ سُـمْكَ الإطـار الأبيـض الـذي سـيبقى حـول الصـورة. لكـن كان اللـه في عـون مَـن يوقـد نـور الحـمَّام!

الآن، قُطِّعَـت الصـور بفعـل الزمـن والرطوبـة- هنـا وهناك أسـنانٌ بيضاء مـن ابتسـامات واسـعة، أَوشِـحَة سـوداء مـن جنـازات. الموضوعـات الأكـثر شـعبيَّةً لصُـوَر تلـك الحقبـة كانـت أطبـاقَ الأَطعِمَـة المختلفـة وزجاجـات الـشراب المُوزَّعـة عـلى طـاولات الولائـم يحيطهـا ضيـوف سـعداء، أو الجنـازات وفي الخلفيـة غابـة رماديَّـة كئيبـة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

ما عاش ليتجاوز تلك الكتلة العَطِنَة هو الوقت على الإيصالات، ووقت إرسال البطاقات البريدية، وقت بدون بريد إلكتروني.

وثلاثة أدِلَّة صغيرة على ميلاد إيڤا.

الدليل الأول -أو بالأحرى الإعلان الأول عن مولد إيڤا- هي وسومٌ صغيرة من تلك التي تُلصَق على المجوهرات في الاتحاد السوڤييتي. يوضِّح الخَطُّ متناهي الصِّغَر على البطاقات أن المشغولات الذهبية كانت خواتِمَ صُنِعَت في مصنع مجوهرات ريجا: قطعة رقم 0611، الختم583-، الوزن 5.66 جرامًا، السعر 11 روبل وخمسون كوبيك للجرام الواحد، السعر الإجمالي 65 روبل و09. كوبيك. الخاتم الثاني بوزن 6.12 وإجمالي سعره 70 روبل و38 كوبيك. كعصفورين يجري تتبُّعُهُما، وضعت أم إيڤا وأبوها هذَيْن الخاتمين حول أصبعي أحدهما الآخر؛ اتِّباعًا للتقليد العالمي للتعبير عن الثقة في كائنٍ واحِدٍ فقط أكثر من كلِّ الكائنات الأخرى.

الدليل الثاني بطاقة برتقالية مُغلَّفَة مربوطة بخيط من الشاش، عليها بحبر أسود وحروف روسية، اسم أمِّ إيڤا الأول والثاني، واسم أبيها، وأن لديهما طفلة وليدة، بوزن 3 كجم و 50 جم، ويوم وساعة ميلادها، ورقم المريض (أمها)- 71. وبحبر أحمر، كتابة تعني 5 ثوان، والظاهر أنه الوقت الذي مرَّ قبل أن تطلق إيڤا صرختها الأولى.

كانت مثل تلك البطاقات تُربط حول كاحل الوليد، بينما تحظى الأم ببطاقة أصغر حول رسغها، عليها رقمها وحسب. كل ثلاث ساعات ونصف، تُدفع نقَّالَةٌ عبر الرواق الطويل تجاه العنابر، تحمل أطفالًا ملفوفين بشكل مُحكَمٍ، باكين أو هادئين، لأُمَّهاتهم. وبهذا؛ استمرَّت المغامرة الفردية الأعظم في الحقبة السوڤييتية، بدءًا بالحمل، الولادة،

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

ثـم الاكتشـاف أن الأطفـال، وبخـلاف مـا كان آبـاء علـم الأحيـاء السـوڤييت يعتقـدون، ليسـوا صفحـات بيضـاء يمكـن ملؤهـا بوصايـا الحزب الشـيوعي. عـلى الأقـل اكتشـفت لوتسـيا أم إيڤـا ذلـك في اليـوم الأول مـن حيـاة إيڤـا. كان بوسـعها أن تُميِّـز صـوت إيڤـا مـن بـين أصـوات الأطفـال الآخريـن في النَّقَّالـة بسـهولة؛ ولـكلِّ رضيـعٍ وجهـه المُميَّـز الفريـد، مُكتَمِـل وناضـج بالفعـل في لحظـة الـولادة، مثـل شـخصيته تقريبًـا.

الدليـل الثالـث عـلى ولادة إيڤـا هـو خُصلَـة شَـعرٍ، ملفوفـة حـول ورقـة، ومؤرَّخَـة بوقـتِ كانـت إيڤـا تبلـغ مـن العمـر عامًـا تقريبًـا- شيء حريـري وبـرَّاق. مَـن يـدري لِـمَ قُصَّـت تلـك الخُصلَـة؟ ربمـا لتوثيـق قَصَّـة شَـعرِها الأولى؟

عـلى الأرجـح يمكـن شرح تلـك المقاطـع شـديدة الحميميـة مـن خـلال المكاتبـات بـين والِـدَيْ إيڤـا.

في غـمار بارانويـا الجراثيـم، نسِـيَت العلـوم السـوڤييتية أمـرَ والدهـا. تركتـه واقفًـا عـلى الجانـب الآخـر مـن رصيـف المستشـفى، والـورود في يديـه. كان عـلى الرجـل الحقيقـي أن يكـون مُشـعِرًا، مفتـولَ العضـلات، تفـوح مـن جسـده رائحـة خفيفـة، طـراز الشـخص الـذي يفتـح زجاجـة كونيـاك في موقـع البنـاء ويوزِّعهـا عـلى زملائـه مـن العـمال عـلى شرف مولـوده الجديـد، لا الطـراز الـذي يتسـكَّع حـول أحـواض الزهـور المحيطـة بالمستشـفيات.

لم يكـن باولـس -والـد إيڤـا- ينـدرج تحـت ذاك النَّمَـط المثـالي مـن الرجـال. كان مهندسًـا في واحـدة مـن هيئـات التصميـم اللانهائيـة في جمهوريـة لاتڤيـا السـوڤيتية الاشـتراكية -واحـد ممَّـن يُمَـرِّرون الأوراق في قميـص مُـزرَّر بالكامـل- التقـى بزوجتـه وتزوَّجهـا هنـاك في ذات الهيئـة، وهـو الآن يفعـل كل مـا في وسـعه ليدخـل إلى المستشـفى ليراهـا، ولـو لثانيـة. وحـين فشـل في الدخـول رغـم كل محاولاتـه، صار يكتـب الخطابات.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

كان الاتحاد السوفييتي بأكمله، من بحر البلطيق إلى سخالين، عبارة عن ورشة مُوسَّعة في كتابة الخطابات، تُكتَب وتُنشَر الخرافات دون انقطاع؛ لأن المواطنين آنذاك لم يكونوا يرون بعضهم بالقدر الكافي ليتحدَّثوا وجهًا لوجه، كانوا دومًا بمَعزِلٍ عن بعضهم لحماية الدولة؛ لذا، وفي تلك الدولة، أُجبِرَ أصحاب المُخَيِّلات وأصحاب القرار -عادةً ما كان كل فريق منهم يُمثِّل 50% من المجتمع- على أن يكونوا من أصحاب المُخَيِّلات بنسبة 100%. وماذا يفعل صاحب المُخَيِّلة حين تُبعِدُه مُمرِّضاتُ العنابر الشبيهات بسيريبروس عن زوجته وطفلته الوليدة لأسبوعٍ بأكمله؟ إمَّا يسكر، أو يكتب الخطابات.

الخطاب الأول:

(من والد إيڤا باولس إلى والدة إيڤا لوتسيا)،

كُتِبَ بالقلم الجاف الأسود على ورقة مقطوعة من كرَّاسة مُسَطَّرة، في الأغلب في المنزل، عشيَّة ميلاد إيڤا.

"العزيزة، العزيزة، العزيزة لوتسيا!".

يعترف الوالد السعيد بارتباكه وابتهاجه وحماسته، ولكن كل هذا لا يُقارَن بما مَرَّت هي به طبعًا. يعلم أن لديه ابنة وزنها 3 كجم، وطولها 52 سم. ثم تأتي الأسئلة:

"كيف صِحَّتُكِ؟ أكان الأمر سيِّئًا؟ وكيف حال بكُرَيَّتِنا؟ مَن تشبه: أنا أم أنتِ؟ ما لون عينيها؟ كيف يبدو أنفها؟ ما لون شعرها؟ أتبكي بصوتٍ عالٍ؟ أهي مُعافاة؟ أتحتاجين لشيء- عصير أو فاكهة طازجة، أو شيء خاص؟".

مباشرة بعد هذه الأسئلة، يبدأ في اختيار الأسماء- "فتاتنا الصغيرة طويلة بالفعل، يجب أن نسمِّيها سكايدريتيه، على اسم سكايدريتيه

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

سميلدزينيا (يقصد هنا لاعبة فريق ترام آند ترولي تراست لكرة السلة، سكايدريتيه سميلدزينيا). فيما يتعلَّق بالأسماء، يطلب وقتًا ليفكِّر، وأن يُقرِّرا غدًا لو أمكن.

ثم يكتب قليلًا عن العالم الخارجي. كيف لم يَنَم جيِّدًا في الليلة السابقة، ولم يستطِع أن ينعس سوى قرب الصباح. استيقظ في الثامنة والنصف. كان قد تأخَّر على عمله بالفعل؛ فاتَّصل بالمستشفى فور أن وصل للمدينة ليرى إن كانت هناك أيَّة أخبار. لم يكن، وطلبوا منه معاوَدَةِ الاتصال بعد الغداء.

قرَّر أن يتَّصِلَ بعد الثانية. كان يأكل حين اتَّصَلَت أُمُّه، وبعد أن أبلغته بالمستجدات، هنَّأته. كان أحد زملائه واقفًا بجواره آنذاك، ورآه يَحمَرُّ، ثم يَشحبُ لونه، ثم هنَّأه زميله، وسأله إن كان المولود صبيًّا أم فتاة، ثم ذهب لينشر الخبر.

بعدها، اتَّصل الأب الجديد بالمستشفى بنفسه. أخبروه أن "كل شيء طبيعي، طبيعي للغاية، وزوجتك مستلقية في سريرها، باسمة" (ومن الوارد أن تكون تلك عبارة مُوحَّدة). "لكنني لم أفكِّر سوى في ذلك"- يكتب. "وبعدها، لم أكن أريد أن أعود للعمل. وظلَّت دموعي تحتشد في عينَيَّ دون سبب".

بعد ذلك، يتضمَّن الخطاب مجموعةً من التهاني والتحيات من زملاء العمل وأفراد العائلة. قال أحدهم إن عليهم أن يشربوا شيئًا بمناسبة الحدث طبعًا، وقال آخر إن زوجته قد عاشت حلمًا جميلًا.

بحلول الساعة 15:00 لم يَعُد باولس يطيق، فذهب إلى رئيسه متوسِّلًا أن يسمح له بالمغادرة مبكِّرًا. سأل رئيسه عن صِحَّة الوليدة وصِحَّة زوجته، وسأل مرؤوسَه عمَّا كان يتمنَّى، ولدًا أم بنتًا. زاد ارتباك باولس وأخبره أنه كان يتمنَّى الاثنين.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

ليست لديه أيَّة أخبار جديدة، والساعة 16:15 بالفعل، وعليه أن يقطع المسافة بينه وبين المستشفى.

(وقد كان؛ قطع تلك المسافة ليترك طردًا وخطابًا مع موظَّف الاستقبال، ثم ليتسلَّل بعدها إلى جانب حديقة المستشفى؛ عَلَّه يرى لمحة من زوجته عبر النافذة لبضع لحظات).

الخطاب الثاني

(من والد إيڤا باولس لوالدة إيڤا لوتسيا)،

كُتِبَ بالقلم الجاف الأسود على ورقة كرَّاسٍ مُسطَّرة، يشير الخطاب إلى أنه لم يتمكَّن من رؤية زوجته أمس).

في الخطاب الثاني، يكتب مُجدَّدًا عن طرده من المستشفى في السادسة؛ لذا هل من الممكن أن تجيب عن الأسئلة التالية فورًا وقبل أن تتابع القراءة.

1. كيف تبلين في هذه المستشفى؟
2. كيف صِحَّتُكِ؟
3. هل يمكنك أن تكتبي المزيدَ عن الرضيعة؟
4. هل ساقاها مُقَوَّستان أم تبدوان طبيعيتَيْن؟
5. أتحتاجين لأي شيء؟
6. ما الأخبار؟
7. أصحيح أن الأُمَّهات الجُدُد لا يُسمَحُ لَهُنَّ برؤية أطفالهن لثلاثة أيام، وبعدها فقط يُسمَح لَهُنَّ بإرضاعهن بأنفسهن؟
8. ما رأيُكِ في اسم هيلجا؟

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

الخطاب الثالث

(من والدة إيڤا لوتسيا إلى والد إيڤا باولس)،

وفيه تُخاطِبُ زوجها بودٍّ وتَشكُرُه على الطَّرد الذي لن تستطيع أن تنهيه أبدًا؛ لأن "ما فيه من أشياء يكفي للعمر كله".

"إذًا لدينا ابنة"- تَكتَبُ، وتضيف أنها وُلِدَت صغيرةً جدًّا. النساء الأخريات يَلِدن أطفالًا بوزن 4 كيلوجرامات أو يزيد. وهي صورة أبيها. لوتسيا بدورها صَمَدَت بشَجاعَةٍ- هناك جرحٌ غائر واحد صغير، لكنه خِيطَ بالفعل. الليلة سيُسمح لها بالمشي مرَّةً أخرى. من ناحية الصِّحَّة، لا يوجد ما يثير الاهتمام. مجرَّد حرارة بسيطة.

تكتب وهي مستلقية لأنه من غير المسموح لها بالجلوس، لكنها تتمنَّى أن يستطيع قراءة خَطِّها. على الأرجح ستعود إلى البيت خلال سبعة أيام. ابنتهما جميلة جدًّا.

"لا تقلق يا حبيبي، انتهى كل شيء الآن"- وبهذا تُنهي خطابها.

على القارئ ألَّا ينسى أن تلك الخطابات لم تأتِ من مُغامرةٍ جَماليَّة أو محاولَةٍ أدبيَّة أو هَوَسٍ فَنِّيٍّ، بل من الحياة نفسها، أساسيات الحياة. الرغبة في التواصُل واستخدام المرء امتيازَه البشريَّ: الكلمات. وبتلك الكومة من الخطابات؛ نجا اسم إيڤا إيجليتيه من تيَّار الزمن.

صحيح، ولكن تجب الإشارة إلى أن تيَّار الزمن قريب جدًّا دومًا. يمدُّ مِخلَبَه المُزغِبَ بالعَفَنِ بالفعل بحثًا عن مساحة جديدة، وسرعان ما سيغمر تيَّارُ الزَّمَن هذا الاسم وذاك اللقب أيضًا.

جدير بالذكر أيضًا أن إيڤا إيجليتيه نفسها لم تعرف أبدًا بوجود شهادة ميلادها، وربما كان هذا أفضل؛ لأنها لو قرأت تلك الخطابات لَمَا استطاعت أبدًا أن تُصدِّق أنها كانت بحجم قِطٍّ كبيرٍ وقتَ مَسَّ القَلَمُ الوَرقَة.

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

لكنها كانت.

يصبح من الجَليِّ لمن يشهد مولد شخص آخر أو موته أن الحياة ليست مسألة هزليَّةً. يمكن ويجب معامَلَتُها كمَزحَةٍ جيِّدة وناجحة، لكنها في جوهرها، ليست مَزحَةً.

لو مسَّك شُعاعٌ من الضوء، لو جَذَبكَ من العَتَمَة- فهذه ليست مَزحَة.

جالِسةً على تَلَّةٍ جميلة، عادَةً ما أغرق في أحلام اليقظة، وهذا ما أعتقده: لا جوهر في المال ولا في عدد النساء، ولا في الحكايات الشعبية القديمة ولا في الموجة الجديدة، بل نتبع إحساسنا فننتهي إلى أماكِنَ غريبة، والأشياء الوحيدة التي نملكها حقًّا هي البهجة والخوف. خوف أن نكون أسوأ ممَّا يمكننا أن نكون، وبهجة أن كل شيء في يَدٍ أمينة. وفي كل حلم، لا تُمكِنُني مقاومة الرَّكض لا أدري إلى أين. لكنني حين أفيق- أتمنَّى أن تكون معي.

"ب. جريبينتشيكوف".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

نبذة عن المُؤلِّفَة

إنجا أبيلي (من مواليد عام 1972) روائية وشاعرة وكاتبة مسرحية لاتْفيَّة. نالت روايتها "المَدُّ العالي" جائِزةَ الأدب اللاتفي لعام 2008 عن النثر، وجائزة "البلطيق" لعام 2009 في الأدب. تُرجِمَت أعمالها إلى عِدَّة لُغات، بما في ذلك السويديَّة والإنجليزية والفرنسية والروسية، وظهرت في مختاراتٍ أدبية مثل الشُّعَراء الأوروبيِّين الجُدُد، أفضل الروايات الأوروبية لعام 2010، وقصص قصيرة بلا حدود: كُتَّاب شباب من أجل أوروبا جديدة. أحدث مؤلَّفاتها مجموعة قصصية بعنوان "النَّمل والطَّنَّانات".

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع

المد العالي

"أنا لا أذكر زفافي فقط. أذكر العراك حول تصميم الكعكة. أذكر أصغر تفاصيل بيتنا. ابننا. كل لحظة في ميلاده. ضحكه. الوحمة على خده الأيسر. يومه الأول في المدرسة وكيف كان يريد ألا أتركه. لكن عندما أحاول رسم صورة في خيالي لسام، يكون فيها باللونين بالأبيض والأسود. لا لون في عينيه. أقول لنفسي إنهما كانتا زرقاوين. ولا أرى إلا اللون الأسود.

كل ذكرياتي من هذه الحياة في ظلال من اللون الرمادي، مثل اللقطات الثابتة في (الفيلم نوار). تبدو حقيقية، لكنها ذكريات مسكونة بالأشباح." وتنهار باكية: "يعتقد الجميع أن متلازمة الذاكرة الزائفة هي مجرد ذكريات زائفة عن اللحظات الكبيرة في حياتك، لكن ما يؤلم أكثر بكثير هو اللحظات الصغيرة. أنا لا أتذكر زوجي فقط، بل أتذكر رائحة أنفاسه في الصباح عندما كان يتقلب ويواجهني في الفراش. وكيف في كل مرة كان ينهض فيها قبلي كي يغسل أسنانه، كنت أعرف أنه سيعود إلى الفراش ويحاول ممارسة الجنس. تلك هي الأشياء التي تقتلني. أصغر التفاصيل الكاملة التي تجعلني أعلم أن هذا حدث."

يسألها باري: "وماذا عن هذه الحياة؟ ألا تساوي شيئا بالنسبة لك؟"

جائزة مجلس دول البلطيق ٢٠٠٩
جائزة AASTEEL للترجمة ٢٠١٥

مكتبة التميز والإبداع

t.me/Book_cr2

ISBN 978-977-313-835-6

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund

t.me/Book_cr2 مكتبة التميز والإبداع